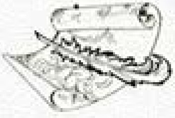
الأعلام من الأدباء والشعراء



جرير

شاعر الجزالة والرقة والعذوبة
الأغراض والخصائص ومختارات من شعره

إعداد

د. عبد المجيد الحر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

جرير

شاعر الجزالة والرقة والعذوبة
الأغراض والخصائص ومختارات من شعره

إعداد

الدكتور عبد المجيد الحر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كان جريان دجلة والفرات في العراق، وبردى في دمشق، وما عرف في مياه تلك الأنهار من عذوبة، سبباً في قيام سوق شعرية مفرطة الذكاء، لكثرة ما نهل الشعراء من الماء المروية لفنّ إبداع القصائد، خاصةً في عصر بني أميّة. وقد مثّل المثلث الأموي (الفرزدق وجرير والأخطل) قمة العطاء المكثار على ساحة الحماس السياسية، لاستهواء النّاس، وتهافتهم على سماع الجديد من شعرهم. وكلّ من يرجع إلى تاريخ نشوء ذلك المثلث، يجد وجوب وجوده لحاجة المجتمع إليه رغم الهنات - المتأتية من الهجاء - التي اعتورته، لأنّه يمثل تطور الشعر الأموي مع الحياة، بعد أن طبع نفسية الشعراء الذين ذكرنا بطوابع جديدة، لم تكن مألوفة من قبل، لسبب بسيط، وهو أنّ الشعر تعبير النفس، وهو يتأثّر، بكلّ ما يؤثّر في النفس من ظروف طبيعية: مادية، أو روحية معنوية. وظروف العصر الأموي، خرجت عن نطاق الحياة المتقيدة بالتقى والصلاح البعيدين عن الفسق والاستهتار في الشعر، واستشعرت بالانعتاق، حين شرّع الخلفاءُ

أبوابهم للتكسب الشعري، الذي كانت أبوابه قد أُقفلت في صدر الإسلام. وإذا لم يكن هؤلاء الشعراء ناسكين زاهدين، فليس معناه أنَّ الحياة الروحيّة الجديدة لم تتظلّل ظلّ الإسلام. ويكفي أن نتصفح ديوان شاعرٍ كبيرٍ كالفرزدق الذي اشتهر بمجونه وفسقه، لنعرف أنه لم ينفصل عن الإسلام، وأنه تأثّر به، وكان يعمل في سريرته. وسنرى حين ندرس نقائضه مع جرير أنّه كان يفخر بعناصر إسلامية، يأتي جرير بنقائض تماثلها، أو تزيد عليها، وما من ريب في أنّنا كلما أنعمنا النظر في ديوان شاعر أمويّ، وجدنا هذا الجانب الديني في صور مختلفة. ومعنى ذلك أنّ الحياة الدينية طوّرت الشعر الأموي، وأثّرت أثراً عميقاً في نفوس الشعراء. وهذه الحياة الدينية التي كانت سبباً في إخراج العرب من طور البداوة، إلى طور الحضارة، هي التي حققت لهم نهضة فكرية نقلتهم الى ام فتحت لهم تراثها العقلي الذي أحدث تطوراً هائلاً في ثقافتهم التي تفوق ما سبقها، وتنحدر عمّا جاء بعدها. من أمثال ذلك: تفسير القرآن، ورواية الحديث الشريف، ووضع قواعد الفقه الإسلامي، الذي شمل كلّ فروع الحياة المدنية والسياسية. وعلى هذا النحو كان شعراؤنا، وعلى رأسهم جرير، يُصبغ شعرهم بكلّ ما يدور في بيئات الفقهاء وأصحاب الكلام. وكانوا يشتركون في المناقشات الدائرة في هذه البيئات. فالجوّ كلّه كان جوّ بحث، وكان كلّ شاعر يعرض عقله ورأيه فيه. ويخيّل إلينا، أنه لم تكن هناك مسألة من المسائل في هذا العصر، إلاّ ويتناقش فيها الشعراء. فالنقائض التي منها ننطلق لدراسة «جرير» ليست إلاّ مناظرات بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. ونلفت النظر، إلى أنّها – أي المناظرات – فنّ أمويّ، غذّته، وطورته هذه البيئة الجدلية، وما انبتّ فيها من طرق

حوار واستدلال في كلّ شيء. وهو حوار واستدلال، لم يلبث أن اتصل به الفرزدق وجرير، وتناول كلٌ منهما قبساً منه، ألّفا على ضوئه شعر النقائض الذي فاز به جرير أيّما فوز. ولم تكن الحياة السياسية في هذا العصر هادئة، بل كانت ثائرة في سبيل تسلم الحكم، وتسنّم كرسيّ الخلافة. فكان كل شاعر لبني أميّة، يغلو في مدائحهم حتّى بات جريرٌ من أكثر المغالين في ذلك، خاصةً لعبد الملك وأولاده، إذ رفعهم إلى مصاف العصمة والكمال. وذلك، لأن الشعراء توزعوا إلى أحزاب، وكان شعرهم يندرج في قائمة العمل السياسي. وهذا ما أرجع الناس في حياتهم الاجتماعية، إلى بطونٍ ينتسبون إليها، كما كان في الحياة الجاهلية، وفي الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، صورٌ من ذلك كثيرة في العصر الأموي. وكان يعيش مع هذه الطبقة العامة المهووسة بالعودة إلى جاهليتها في النسب القبليّ، والطبقة الارستقراطية المنغمسة بقصورها وملذاتها، وطبقة ثالثة، هي طبقة الموالي المنتشرة بين العامّة والقصور يتعاطون الزراعة والصناعة والحرف.

وفي هذا الجوّ المفعم بحالة العصر وتطوره، نشأ جرير موضع بحثنا، وعنوان دراستنا، وقد اجتمعت العاطفة عنده إلى قريحة فيّاضة جعلته يغرف من بحر، فيسيل شعره في خفّةٍ ولباقة تعبير، وسهولة تمتد بامتداد قصائده الطويلة التي سنتناولها بدراسةٍ مستفيضة بعد أن نمهد لها بالوقوف على أصول العصر وخصائصه ومميزاته التي فيها استمد طبيعة شعره. والله الهادي وإليه التوفيق.

الثلاثاء ٢ ربيع الأول ١٤١٢

الموافق ١٠ أيلول ١٩٩١

عبد المجيد الحر

الفصل الأوّل

الشاعر من خلال عصره

- العصر الأمويّ: تطور الشعر مع الحياة.
- الحياة الدينية.
- الحياة العقلية.
- الحياة السياسية.
- الحياة الاجتماعية.
- الحياة الاقتصادية.

الشاعر من خلال عصره

إنَّ الشاعر الذي نصحبه في دراستنا هذه، وعنيت به شاعر الأهاجي والمفاخر «جرير» يلوح لنا من خلال العصر الأمويّ، قمّةً تتوسط قمتين «الفرزدق» و «الأخطل» وإن كانت تبزّهما، نتوءاً بارز الوفرة في العلوّ، لما وصفه به النقّاد والباحثون، حين جعلوه مع الفرزدق أفضل من الأخطل: «لم يكن الأخطل مثلهما»[1] وزادوا على ذلك، تفضيله على الفرزدق «كان جريرٌ يُحْسِنُ ضروباً من الشعر لا يُحسنها الفرزدق» وهذا القول يعود إلى بَشّار العُقَيْليّ الذي أضاف صاحبُ الأغاني قولَه: «وفضَّل جريراً عليه»[2] وإزاءَ هذا الذي كان عليه، صار لزاماً علينا، أنْ ندرسَ جريراً من خلال عصره، المُتَوَهّج بحرارة العصبيات الحزبيّةِ والثورات الإقليمية، والمشاحنات المركزية، ونقفَ على أحوال المؤثّرات التي أحاطت، بكلّ متفرّعات أسس الخلافة وركائزها، وفوارق عاداتها وتقاليدها، مع الشعوب الداخلة في حكم الخلافة وسلطتها. ومن هذا المنطلق المحدّد الزمان، المعرّف المكان بواقع سيطرة الدولة وقوتها، سنتعرّف إلى كلّ ما يساعدنا

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين (٢٨٤ - ٣٥٦ هـ / ٨٩٧ - ٩٦٧م)، الأغاني: دار الثقافة. بيروت (١٩٥٧) ج ٨ ص: ٥٩.

(٢) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: الأغاني: ج ٨ ص: ٥٩.

على تشريع باب دراسة الشاعر على مصراعيه. وإلى كلّ ما يوصلنا إلى الغاية من دراسة هذا العصر.

العصر الأمويّ: تطور الشعر مع الحياة:

شهد العصرُ الأمويُّ تطوّراً خطيراً، بعد صراعٍ دمويّ بين العراق والشّام، أدّى إلى نقل الخلافة من «الكوفة» في بلاد العراق، إلى «دمشق» في بلاد الشام. وصَاحَبَ هذه النقلة المؤججة بنار التخاصم على الحكم، فتنٌ، أبقت تحت الرّماد وميضاً رافق نشوء الخلافة الأموية، يبدو لنا واضحاً من خلال قول شاعرين. فشاعر الشام يقول:

أرى الشّام تكْرَهُ مُلْكَ العِـرَاقِ وَأهْلُ العـِراقِ لَـهُـمْ كَارِهُوْنَا
وَقَـالُـوْا عَـلِيٌّ إمـــامٌ لَـنَـا فَـقُـلْنَا رَضِيْنَا ابْنَ هِنْدٍ رَضِيْنَا

وشاعر العراق يقول:

أتَـاكُـمْ عَـلِيٌّ بِأهْـلِ العِـرَاقِ وَأهْـلِ الحِجَازِ فَمَا تَصْنَعُوْنَا
فَإنْ يَكْرَهِ القَوْمُ مُلْكَ العِـراقِ فَقِدْماً رَضِيْنَا الّذِيْ تَكْرَهُوْنَا[1]

ومن هنا ظهر التنافس شديداً طوال عصر بني أميّة، بين أهل العراق ومن يتبعهم من فارس، وبين أهل الشام. فكان الأوّلون دائماً في اضطرابٍ سياسيّ مستمر، إذ كانوا معارضين للأمويين أصحاب أهل الشام، وكانوا دائماً يطيرون مع أوّل ناعقٍ للثورة عليهم. وأكثر عرب العراق، كانوا من العدنانيين، بينما كان أكثر عرب الشّام من

(١) الدينوري: أبو حنيفة: أحمد بن داود (... - ٢٨٢ هـ / ... - ٨٩٥ م) الأخبار الطوال. ليدن (١٨٦٧ م) ص: ١٧٠.

القحطانيين. فاتخذ الصراع بين الاقليمين، شكلّ عصبياتٍ قبليّة بين الفرعين العربيين الكبيرين. ولم تقف هذه العصبيات عند القحطانيين والعدنانيين، فقد ذهبت كل قبيلة، بل كلُّ عشيرة، تجترّ تاريخها في الجاهلية وأيّامَها وحروبها، فاندلعتْ نيران خصومة شديدة بين القحطانيين والعدنانيين من جهة، وبين شُعَبِهم وأحيائهم من جهة ثانية. وأصبحت البصرة والكوفة من جهة، والشام من جهة أخرى، مسرحاً لهذه العصبيات، وأخذت كلُّ قبيلة، تزحف على جاراتها بشعرائها ومآثرها. وتأثرت موضوعات الشعر المختلفة بموضوعين كبيرين. أولهما ينحصر بالخصومة السياسية التي اشتعلت بين الخوارج والشيعة وبين الأمويين. وثانيهما يتحدّد بالخصومة القبلية التي التهبت بين العدنانيين والقحطانيين، ثمّ بين أعضائهم وشعبهم المختلفة[١] وأكثر موضوعات الشعر، تأثرت بهذين الموضوعين، وظهر التحامهما في مديح بني أمية، على نحو ما نجد، عند جرير والأخطل والفرزدق. وتطوّر الشعر مع الحياة الأموية، كان يتأتّى عن طريقين. الطريق الأولى: أن يفد الشعراء بشعرهم على دمشق يُنشدونه الخليفة. والطريق الثانية: أن تَحْدث في الشام حوادث تقتضي نظم الشعر كهذه الحوادث التي نشبت بين القبائل القيسية حين هاجرت هناك وبين القبائل اليمنية في الشام. وهذا التطور مع الشعر، كان يقتضي وجود حياةٍ يحياها الشاعر ويتأثّر بها، فتنعكس على شعره دينياً وعقلياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً. وهذا ما سنبحثه، ونلقي الضوء على مضامينه.

---

(١) ضيف: شوقي: التطوّر والتجديد في الشعر الأموي. دار المعارف. القاهرة. الطبعة السادسة منقّحة. (١٩٥٩) ص: ٥٧.

الحياة الدينيـة:

إنَّ عوامل مختلفة، هيَّأتْ لاتساع موجة الزهد في العصر الأُمويّ، وَمَنْ يقرأ الجاحظ في بيانه[1] وهو يعدّد أسماء زهّاد الكوفة والبصرة، ويطيل في تعدادهم، ويفتح الفصول الخاصة لذكرهم، يخيَّل إليه، أنّ زهّاد العصر الأمويّ، كلّهم كانوا منبثّين في العراق، ولا شك في أنّ الزهد، كان له أصحابه في الحجاز، كما كان له أصحابه في الشّام ومصر. ولكنّ العراق هي التي سبقت لأسباب أهمها: قيام الحروب الداخلية التي استمرت داخل العراق طوال عصر بني أميّة، وجعلت بعض من خسروا هذه الحروب، ولم يستطيعوا اقتناص الدنيا من الأمويين، أن يتحوّلوا إلى الزهد فيها، ووضعوا أمانيُّهم في الآخرة، وما وعد الله به عباده المتّقين.وكذلك قيام موجة من الزهد، في أقاليم عراقية، تأثّرت بعناصر أجنبية أمثال قتادة الذي كان ينقل عن التوراة، وأمثال الشّعبي الذي نقل عن عيسى بن مريم عليه السلام[2] وكذلك ظلم ولاة بني أميّة، وتعسُّفهم مع العراقيين يُعدُّ من الأسباب الهامّة في التحوّل إلى الزهد. ويكفي أن نعرف أنّ الحجّاج قتل -فيما يُقال- صبْراً وغيلة، مائة ألف وعشرين[3] وغيره، مثل خالد القسري، ويوسف بن عمر، وإن كانوا لم يبلغوا مبلغ الحجاج في القتل[4] وإذا

---

(١) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب الكناني (١٥٠ - ٢٥٥ هـ / ٧٦٧ - ٨٦٨م) البيان والتبيين. الخانجي بمصر. ط ٢ (١٩٦٠) ج ١ ص: ١٠٤.

(٢) الجاحظ: عمرو بن بحر. البيان والتبيين. ج ١ ص: ٢٩٧.

(٣) ابن عبد ربّه: احمد بن محمد (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ - ٩٤٠ م) العقد الفريد ط لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة (١٩٦٥) ج ٣ ص: ٢١.

(٤) الجاحظ: عمرو بن بحر. البيان والتبيين ج ١ ص: ٣٦٣.

أردنا أن نأخذ صورة عامةً عن موجة الزهد والتديّن في الدولة الأموية، نلحظ أنّ أشهر زهّاد الكوفة علقمة بن قيس، ويصفونه بأنّه كان من الربّانيين[١] وابن أخيه الأسود بن يزيد، ويقولون إنّه كان صوّاماً قوّاما[٢] وعمرو بن عُتبة بن فرقد وكان من البكّائين(٤) والربيع بن خُثَيْم، ويقولون إنّهم لم يسمعوه يذكر شيئاً قطّ من الدنيا[٣].

وهمام بن الحارث النخعي وكان يقول: «اللهم أكفني من نومي بيسير، واجعل سهري في طاعتك» فكان لا ينام إلاّ هنيهة وهو قاعد[٤] وأُوَيْس القَرَني. وكان من البكائين. وكان يتحرّج أن يُحدّث أو يُقصّ أو يُفتي[٥] وهؤلاء لم يملأوا أجواءَهم بعباداتهم وتقشفهم فحسب، بل ملأوها بمواعظهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم. وكان فريق منهم يلبسون الملابس الخشنة. وهذا يدلّ على أنّ شعراء عصر بني أميّة، نبتوا في جوّ جديد، فيه روحية ومثالية، وفيه إيمانٌ بعالمٍ آخر، فوق حسّهم وشعورهم. وهذا كلّه طبع نفسية كثير من الشعراء في العصر الأمويّ، بطوابع جديدة، لم تكن مألوفة من قبل، لأنّ الشعر تعبير النفس، وهو يتأثر بكلّ ما يؤثّر في النفس من ظروف طبيعية: مادية، أو روحية، أو معنوية. فالشعر الأموي، كتب في ظلال نفسية جديدة آمنت بربها، واستشعرت حياةً تقية صالحة، فيها نُسْكٌ

(١) المرجع نفسه: ج ٣ ص: ١٩٣.

(٢) المرجع نفسه: ج ٣ ص: ١٩٥.

(٣) ابن سعد (عبد الله بن محمد بن منيع الزهري) (١٦٨ - ٢٣٠ هـ / ٧٨٤ - ٨٤٥م) طبقات ابن سعد. ط. لندن (١٣٢٥ هـ / ١٩٠٨ م) ج ٦ ص: ٦١.

(٤) المرجع نفسه ج ٦. ص: ٨١.

(٥) المرجع نفسه ج ٦. ص: ١١٤.

وعبادة، وفيها تقوى وزهد. وليس معنى ذلك، أنّ كلّ الشعراء كانوا ناسكين زاهدين، وإنّما معناه أنّ الحياة الروحية الجديدة، لم تنفصل عن حياتهم الفنيّة، بل أثّرت في كثير من جوانبها وتطوراتها، وظهر هذا التطوّر في صور مختلفة[١]. ويكفي أن تصفّح ديوان شاعر كالفرزدق (٢١ هـ - ١١٠ هـ / ٦٤١م - ٨٢٨ م) الذي اشتهر بفسقه واستهتاره، لنعرف أنّه لم ينفصل عن الإسلام، وأنّه تأثر به. فقد حضر هو والحسن البصريّ جنازة زوجه النوّار. فقال له الحسن وهو بإزاء القبر: ماذا أعددت لهذا المضجع؟ فقال: شهادة أن لا إله إلاّ الله منذ ثمانين سنة. فقال له الحسن هذا العمود فأين الطّنب؟ فقال في الحال:

أخافُ وَرَاءَ القَبْرِ إنْ لَـمْ يُعَافِنِي ... أشَدَّ منَ القَبْرِ التِهَابـاً وَأضْيَقَا

إذا جَاءَنِي يَوْمَ القِيَامَـةِ قَائِـدٌ ... عَنِيفٌ وَسوَّاقٌ يَسُوْقُ الفَرَزْدَقَا

فالفرزدق المستهتر لم يكن الإسلام بعيداً عن نفسه، بل كان يعمل في سريرته، وسنرى هذا أيضاً عند سائر الشعراء[٢]، الذين من غير الممكن أن ينظموا شعراً لا تتضح فيه عناصر هذه الحياة.

ومن أهم ما كان من ذلك، أنّهم أصبحوا لا يمدحون أحداً، ولا يهجون أحداً، إلاّ وضعوا الصفات الدينية إيجاباً وسلباً في مديحهم وهجائهم. وتنظر هذا في شعر كثير بن عبد الرحمن بن الاسود (... - ١٠٥ هـ / ... ٧٢٣ م) المعروف بكثير عزّة، وهو يمدح عمر

---

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ٦٠.

(٢) الشريف المرتضى: أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى العلوي (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ / ٩٦٦ - ١٠٤٤ م) أمالي الشريف المرتضى «غرر الفوائد ودرر القلائد» دار إحياء الكتب (القاهرة) ج ١. ص: ٦٥.

ابن عبد العزيز (٦١ - ١٠١ هـ / ٦٨١ - ٧٢٠ م): حيث يقول:
وَصَدَّقْتَ بالفِعْلِ المَقالَ مَعَ الّذي أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضياً كلُّ مُسْلِمِ

فهو يمدح عمر بانصرافه عن الدنيا مع تعرّضها له، ويقول إنّه زاهدٌ في ملذّاتها وثمارها الفانية، لأنّه يريد الثمرة الباقية من ربّه، يريد رضوانه وفردوسه. وغير الخلفاء من الولاة والعمال، كان الشعراء يمدحونهم أيضاً بهذه العناصر الدينية وما يشبهها[1] من مثل قول الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات (... - ٨٥ هـ / ... - ٧٠٤م) في مصعب بن الزبير بن العوام (٢٦ - ٧١ هـ / ٦٤٧ - ٦٩٠م) والي العراق لأخيه عبد الله بن الزبير (١ - ٧٣ هـ / ٦٢٢ - ٦٩٢م):

إنّما مُصْعَبٌ شهابٌ من اللّـ ـه تجلّت عَنْ وَجْهِه الظَّلْمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ وَلاَ بِهِ كِبْرِيَاءُ
يَتَّقِي اللهَ في الأُمُوْرِ وَقَدْ أفْـ ـلَحَ مَنْ كَانَ هَمُّهُ الاتّقَاءُ

وبصورة مباينة لهذه الصورة الدينيّة، كان الشعراءُ يتهاجون ويهجون النّاس. إذْ كان الهجاءُ بالدّين أقذعَ صور الهجاء، ومن ذلك صورة الهجاء في شعر الطرماح بن حكيم بن الحكم (... - ١٢٥هـ / ... - ٧٤٣ م)[2].

لَوْحَانَ وِرْدُ تـمِيـمٍ ثُمَّ قِيْلَ لَهَا حَوْضُ الرَّسُوْلِ عَلَيْهِ الأَزْدُ لَمْ تَرِدِ
أَوْ أَنزلَ اللهُ وَحْياً أَنْ يُعَذِّبَهَا إنْ لَمْ تَعُدْ لِقِتَالِ الأَزْدِ لَمْ تَعُدِ

---

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ٦٤.
(٢) المرجع نفسه: ص: ٦٥.

إنّه بشعره هذا يهجو تميماً، وينصر قومه الأُزد على الصورة الدينية التي تصوّر تميماً تهلع من الأُزد، حتّى لو كان لها وِرْدٌ إلى الماء، وعلمت أنها ترد على حوض الرسول، ثم عرفت أنّ هناك الأزد لرجعت إلى نفسها، يقودها الخوف والفزع، وأقامت على العطش والظمأ.

وعلى نحو ما أثّر الإسلام في المديح والهجاء، أثّر في الغزل، بل لعلّ تأثيره فيه كان أوسع. فقد ظهر ضربٌ جديدٌ من الغزل العذريّ الطاهر العفيف، واستخدمت بعض المعاني والألفاظ الإسلامية، للتأثير في القلوب. فمن قول كثيّر عزة:

وَلاَ تَيْأسَا أَنْ يَمْحُوَ اللهُ عَنْكُمَا ... ذُنُوباً إذَا صَلَّيْتُمَا حَيْثُ صَلَّتِ

نشاهد تغيّر نفسية النّاس تحت تأثير الإسلام، وتغيّر المثل العليا والفضائل والأخلاق التي تطبع الشعر الأمويّ بطابعٍ دينيّ. ومثال ذلك نشاهده أيضاً في قول الطرماح:

كلُّ حيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عُدَّةَ العُمْـ ... ـرِ وَمُودٍ إذَا انْقَضَى عَدَدُهْ[1]

عَجَباً ما عَجِبْتُ لِلْجَامِعِ المَا ... لَ يُبَاهِي بِهِ وَيَرْتَفِدُهْ[2]

وَيُضِيعُ الَّذِيْ يُصَيِّرُهُ اللّـ ... ـهُ إلَيْهِ فَلَيْسَ يَعْتَقِدُهْ

وفي كلّ مكانٍ من شعر الشعراء، نجد فكرة الموت، وأنّ أحداً لا يخلد، فالحياة الباقية، هي حياة الآخرة، أمّا هذه الحياة الدنيا، فلا ينبغي لأحدٍ أن يتمسك بها لأنها فانية. وفي مثل ذلك يقول قَطَريُّ ابن الفُجَاءَة (... – ٧٨ هـ / ... ٦٩٧ م):

---

(١) ومودٍ: أي هالك.

(٢) يرتفده: يكتسبه. ارتفد المال: اكتسبه.

أقـوْلُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعَـاً مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَكِ لَنْ تُراعِي[1]
فإنّكِ لَوْ سَـأَلْتِ بَقَـاءَ يَـوْمٍ عَلَى الأَجَلِ الّذي لكِ لَنْ تُطَاعِيْ
فَصَبْراً فِيْ مَجَالِ المَوْتِ صَبْراً فَمَا نَيْلُ الخُلُوْدِ بِمُسْتَطَاعِ

وفي هذه البيئة الدينية من حياته، عاش جرير التقيّ العفيف بتديّن بالغ الرّقة، يظهر في قول من نقلوا عنه، أنّه كان يبكي حين تمرّ به الجنائز ويقول: «أحرقتني هذه الجنائز» وله رثاءٌ مشهورٌ في زوجه أمّ حَزْرة، يقول فيه:

صَلّى المَلائكةُ الّذِيْن تَخيَّـرُوْا وَالطَّيِّبُـوْنَ عَلَيْـكِ وَالأَبْـرَارُ

وسنرى حين نعرض لمدائحه، أنّها كانت تستمد من العناصر الاسلامية وكذلك كانت أهاجيه مع الأخطل ومع الفرزدق. وكان الشعر في عصر بني أميّة يستجيب لهذا كلّه، وما شاع من وعظ الوعاظ، وأقوال النساك. وأنت لا تكاد تجد شاعراً إلاّ وقد أخذ في شعره من هذه الحياة بخطٍ يختلف قوّةً وضعفاً، وحسب نفسيته وصلتها بالاسلام.

الحياة العقليّة:

كان العصر الأموي يسعى لتحقيق نهضة فكريّة. وقد استولى فيما استولى عليه عند الأمم ،التراث العقلي، الذي أخذت سيول ثقافته، تتدفّق على العراق والشام ومصر، وتنحدر إلى مجرى النّهر العربيّ، وتحدث تطوراً هائلاً في حياة العرب العقليّة[2] ومن آثار هذا التطوّر،

(١) ويحك: كلمة ترحم وتوجّع.
(٢) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ٧١.

ظهور الحركة الدينية التي عُنيت بتفسير القرآن الكريم، ورواية الحديث الشريف، ووضع قواعد الفقه الإسلاميّ الذي لم يقف عند أمور العبادات، بل جاوزها إلى الحياة المدنية والسياسية. وأسست في كل بلدة كبيرة مدرسة فقهية، وكان الاستنتاج والرأي الشخصي، يحترمان في الفقه الاسلاميّ. ويشهد بذلك ما رُوي عن الحسن البصريّ، من أنّ شخصاً سأله عن بعض فتاويه أبرأيه أم سمعها، فقال: «لا والله ما كلّ ما نُفْتي به سمعناه»[1] وأخذ الفقهاء يشرعون للناس أمور دينهم ودنياهم. وكان للأخذ بأصل القياس في الفتوى، أثرٌ واسعٌ في اختلافهم في مسائل كثيرة، وكان هذا الاختلاف محكاً للعقول، ومشحذة للأفكار، فكان هؤلاء الفقهاء وتلاميذهم، يبحثون في وجوهه وأسبابه، حتّى بلغ من أحد كبار الدارسين أن قال: «لا يعرف الرجل خطأ معلمِه حتى يسمع الاختلاف»[2] وكانت الكثرة من أهل الشرع، تذهب إلى الحكم البيّن والفتوى الواضحة. وسرعان ما رأينا الفقهاء يتحاورون فيما بينهم ويتناظرون[3] ولم تقف هذه المناظرات والمجادلات عند بيئة الفقهاء، بل انتقلت إلى مجالس الخلفاء. فقد رُوي أن سليمان بن عبد الملك. (٥٤ - ٩٩ هـ ٦٧٤ - ٧١٧ م) جمع بين كبارٍ من العلماء ليجروا بينهم مجادلاتٍ تأخذ شكل أسئلة[4] وما من ريب، في أنّ هذا النظر الفقهي، وما طُوي فيه من حوار وجدل، كان له أثره الواسع في العقل العربي

(١) ابن سعد: عبد الله بن محمد: طبقات ابن سعد: ج ٧، ص: ١٢٠.
(٢) الجاحظ: عمرو بن بحر. البيان والتبيين. ج ٢ ص: ٩٨.
(٣) المرجع نفسه ج ٢، ص: ٣٢٢.
(٤) المرجع نفسه ج ١، ص: ٣٤٣.

العام حينئذٍ. فإنَّ الناس ومعهم الشعراء، كانوا يستمعون إلى هذه المجادلات والمناظرات ومن الأخبار التي تناقلها الرواة في هذا الشأن الذي نحن بصدده، أنَّ الفرزدق كان يلزم حلقة الحسن البصري (٢١- ١١٠ هـ / ٦٤٢ - ٧٢٨ م) بينما كان جرير يلزم حلقة محمد بن سيرين (٣٣ - ١١١ هـ / ٦٥٣ - ٧٢٩ م)(١) وصدف أن رجلاً سأل الحسن البصري يوماً وعنده الفرزدق عن اليمين اللَّغوِ في الكلام. من مثل لا والله. فقال الفرزدق له: أو ما سمعتَ ما قلتُ في ذلك؟ فقال الحسن: ما كلّ ما قلتَ سمعوا فما قلتَ؟ فقال: قلتُ:

ولستَ بمأخوذٍ بلغوٍ تقولُهُ   إذا لم تُعَمّدْ عاقداتِ العزائمِ

وجاءَ شخصٌ آخر فسألَ الحسن البصريّ عن سَبِيَّةِ الحرب المتزوجة، أتحلّ لمن سبَاها؟ فقال الفرزدق - أيضاً - أو ما سمعتَ ما قلتُ في ذلك؟ ثم أنشد:

وذات حَليلٍ أنكَحَتْنَا رِمَاحُنَا   حَلالٌ لمن يَبْني بها لم تُطلَّقِ(٢)

وأظنّ في ذلك ما يدلّ أبلغ الدلالة، على صلة الشاعر الأمويّ، بكلّ ما كان يجري في بيئات الفقهاء. والذي يهمنا حقاً أنَّه كان يطّلع على وجوه الخلاف، وكانت تدعم عقله وتغذّي فكره(٣) وفي هذا العصر تكوّنت بذور علم الحِيَل، الذي انتشر فيما بعد، وشاع لدى الفقهاء الأحناف. وهو يقوم على اتّساع المخرج الذي يمكن أن يخلّص من يقع في إشكال دينيّ. وكان أهم جانبٍ طُبّق فيه

---

(١) ابن عبد ربه: أحمد بن محمد: العقد الفريد: ج ٣، ص: ١٦٩.
(٢) الأصبهاني: أبو الفرج علي بن الحسين: الأغاني: ج ١٩، ص: ١٤.
(٣) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ٧٤.

الجانب الدينيّ الإيمانيّ. وإلى ذلك يشير جرير فيقول:

وَلا خَيْرَ فِي مَالٍ عَلَيْهِ أَلِيَّةٌ   وَلا فِيْ يَمِيْنٍ غَيْرِ ذَاتِ مَخَارِمِ[١]

وفي وصف سُراهُ في اللّيل، يقول: غيلان بن عقبة، وهو الشّاعر المشهور: ذو الرُّمَّة (٧٧ - ١١٧ هـ / ٦٩٦ - ٧٣٥ م):

طَوَىْ طَيَّةً فَوْقَ الكَرَى جَفْنَ عَيْنِهِ   عَلَى رَهَبَاتٍ مِنْ جَنَانِ الْمُحَاذِرِ[٢]

قَلِيلاً كَتَحْلِيْلِ الأُلى ثُمَّ قَلَّصَتْ   بِهِ شِيْمَةٌ رَوْعَاءُ تَقْلِيْصَ طَائِرِ[٣]

فالشعر لم يكن غائباً عن مجالس الفقهاء، بل كان حاضراً يقظاً لكلّ ما يصدر منهم. وقد عمرت مجالس هؤلاء بكثيرٍ من المجادلات والحجج والمناظرات التي كانت تأخذ طريقها إلى عقول الشعراء. ويكفي أن نقرأ ما رواه صاحب البيان والتبيين عن إياس بن معاوية (٤٦ - ١٢٢ هـ / ٦٦٦ - ٧٤٠ م) قاضي البصرة، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء[٤] عن مقدرته في الجدل والاحتجاج لنعرف إلى أيّ حدّ، كان يؤثر هؤلاء الفقهاء، فيمن حولهم من شعراء وغير شعراء[٥] وشهد هذا العصر أيضاً دعوة علم الكلام، والبحث معها في مسألة الإيمان، وإذا كان من الضروري أن يُرفق بالعمل؟ وأعلنت

---

(١) الأليّة: اليمين. والمخارم: الطرق في الجبال. ويريد بها جرير هنا: الطرق التي يمضي فيها التحليل والاستثناء.

(٢) من جنان المحاذر: أي مما أجنّه صدره. ويقول ذو الرمة إنه أغمض عينيه على نوم قليل.

(٣) يقول ذو الرمّة إن شيمته رائعة، وقلّصت به تقليص طائر، أي ارتفعت ارتفاع الطائر في سرعته. يريد أنّها قويّة.

(٤) الجاحظ: عمرو بن بحر: البيان والتبيين: ج ١، ص: ٩٨.

(٥) ضيف: شوقي: التطور الجديد في الشعر الأموي: ص: ٧٤.

هذه الدعوة عدم التفريق بين مسلم ومسلم، فالجميع من أهل القِبْلة، وإن عصوا. فعليٌ وعثمان ومعاوية، مؤمنون. ولا نستطيع الحكم على أحدهم بخطأ. وكذلك شأن كل مسلم. وسمي علماء هذه الدعوة بـ «المرجئة» أي إرجاء الحكم على المسلم وترك أمره لربّه، حتّى لو أهمل الفروض الدينية[1] ويذكر الجاحظ شعراً عن المرجئة فيقول:

إذا المُرْجِيُّ سَرَّكَ أَنْ تَراهُ ... يَمُوْتُ بِدَائِهِ مِنْ قَبْلِ مَوْتِهْ

فجَدِّدْ عِنْدهُ ذِكْرَى عليٍّ ... وَصَلِّ عَلَى النَّبيِّ وأَهْلِ بَيْتِهِ[2]

وهناك دعوةٌ أخرى ظهرت إلى جانب «المرجئة» وهي دعوة: الجبر والاختيار في إرادة الإنسان وأعماله. وقد التحم في هذه الدعوة، علم العقائد المسيحيّ، بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف، من آي ونصوص، قد يُفْهَم منها الجبر، أو يفهم منها الاختيار. وكذلك ظهرت دعوة «القدر» التي تزعمها الحسن البصري الذي ظهرت في مجالسه كثيرٌ من شُعب القول بالقدر، كشعبة العدل، وأنَّ الله لا يظلم أحداً. وهي فكرة تتصل مباشرةً بحرية الإرادة، وأن كلَّ إنسان يُجزى حسب عمله. وكان الحسن البصريّ يؤمن بها[3]. ولم يكنْ الشعراء بمعزل عن هذا كله، بل شاركوا فيه. فذو الرُّمة مثلاً كان على مذهب القدر، وما يتصل به من فكرة العدل. وكان أكثر شعراء بني أمية يرون سادتهم على مذهب الجبر. فكانوا يتعمدون الاحتكام إليه في تقرير خلافة بني أُميّة، إمّا عن عقيدة ثابتة

(١) ابن سعد: عبد الله بن محمد: طبقات ابن سعد: ج ٦، ص: ١٩٢.
(٢) الجاحظ: عمرو بن بحر: البيان والتبيين ج٣، ص: ٣٥٠.
(٣) الشريف المرتضى: علي بن الحسين: أمالي المرتضى: ج ١، ص: ١٠٢.

وإمّا من أجل إرضائهم. وفي كل مكان من شعر جرير والفرزدق، نجد اللجوء إلى الجبر، في تقرير خلافة الأمويين، وأنّ الله كتب ذلك، ولا مفرّ منه ولا تبديل لكلماته. وفي ذلك يقول جرير:

نَالَ الخلافةَ إذْ كانتْ لَهُ قَـدراً   كما أتى ربَّهُ مُوسَى عَلَى قَـدَرِ

وعلى هذا النحو كان الشعراء في عصر بني أُميّة يُصبَغُ شعرهم بكلّ ما يدور في بيئات الفقهاء وأصحاب الكلام. ويخيّل إلى الإنسان أنّه لم تكن هناك مسألة من المسائل في هذا العصر، إلاّ ويتناقش فيها النّاس في سلمهم وحربهم، وفي مساجدهم وطرقاتهم. فالفقهاء يناقشون القدريّة والجبرية. والمرجئة والشيعة يتحاورون وكذلك الخوارج يدعون إلى المناقشة والمناظرة، على نحو ما دعا المتطرفون منهم[1] والحقّ أنّ عقلية الشاعر الأمويّ اختلفت عن عقلية مَنْ سبقهم من الشعراء. فقد ثَقِفَ أشياء لم يكن يَثقفها الشاعر الجاهليّ، وخضع لأشياء في تفكيره، لم يكن يخضع لها شاعرٌ سبقه. ولعلّ أهمّ ما يلاحظ على تفكيره وعقليته وما طرأ عليها من تطور، أننا نحسُّ عنده أنّه أخذ يتناول حرفته تناولاً جديداً، عماده البحث والدرس اللذان أُلفهما في بيئات الفقهاء، وأصحاب التفكير في العقيدة الدينية، من إرجاء وقدَر وجبر وعدل، ومنزلة تتوسط منزلتين. وشاعر العصر الأمويّ، كان شاعراً كاتباً. وكان يكتب شعره وشعر غيره كي يدرسه، وينحته وينقل عنه حين يريد النقل، ويحوّره حين يريد التحوير. وربما كان أهمّ شيء رسب في الشعر الأمويّ عن هذه العقلية المتطورة الجديدة، اننا نجد الشعراء يتخصصون في

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ٨١ – ٨٢.

موضوعات بعينها، لا يَعْدُوْنها إلى غيرها. فعمر بن أبي ربيعة يذهب شعره في الغزل. وذو الرُّمّة، يذهب شعره، أو يكاد، في وصف الصحراء. ويرتقي الفرزدق وجرير بفنّ الهجاء ويُحدثان فيه النقائض المعروفة. ولا شك في أنّ هذا أثر من آثار العقلية العربية في العصر الأموي وما أصابها من تطوّر(١).

الحياة السياسية:

عرفت الحياة السياسية في العصر الأموي، الكثير من الاضطرابات والفتن، إذ أنّ الغالبية من الأمّة، كانوا يعتقدون بأنّ الأمويين مغتصبون للخلافة. وقد اكتسبت مدينتا مكة والمدينة، صبغة جديدة. فقد كان يفد إلى المدينة - العاصمة المهجورة - كثيرون من معتزلي السياسة، وطالبي الراحة، ليكونوا بعيدين عن الضوضاء، والاضطراب، وليتنعموا بما أُغدقته عليهم الفتوحات من فيء، وما حظوا به من ثروة وجاه(٢) وكانت الشام عكس الحجاز تماماً. فقد كانت هادئة مطمئنة. إلاَّ أنَّ أحزاباً سياسية ثلاثة، كانت تضمر الحقد لدمشق عاصمة الأمويين، وتوزّع التابعين لهم في دعوة إلى الانتفاض على الخليفة. وهذه الأحزاب هي: الزبيريون، والخوارج، والشيعة. فالزبيريون كانوا يكنّون الحقد لمعاوية ومن ورثه، وكانوا يرون أن يتولّى الخلافة أحد أبناء الصحابة. أما الخوارج فكانوا يرون أن أحقّيّة الخلافة تعود إلى العرب المسلمين جميعاً. بينما رأى الشيعة،

---

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ٨٥.

(٢) حتي: فيليب: تاريخ العرب. دار غندور للطباعة والنشر. بيروت (١٩٧٤) ص: ٣٠١.

أن تعود الخلافة إلى بني هاشم، فهم أولى بها من غيرهم. وقد دعا ابن الزبير لنفسه بالخلافة بعد وفاة معاوية، فتعاطفت معه الحجاز ومصر والعراق واجزاءٌ من البلاد الشامية. وأحسَّ مروان بن الحكم (٢ - ٦٥ هـ / ٦٢٣ - ٦٨٥ م) أن الخلافة تكاد تضيع منه بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان (٢٠ ق. هـ - ٦٠ هـ / ٦٠٣ - ٦٨٠م) فقصد الشام، وحارب قبائل قيس بمساعدة كلب والقبائل اليمنية، وانتصر عليها في موقعة مرج راهط المشهورة[1] ثم استولى على مصر، وتولى ولده عبد الملك بن مروان (٢٦ - ٨٦ هـ / ٦٤٦ - ٧٠٥ م) الخلافة. فقتل مصعب بن الزبير (٢٦ - ٧١ هـ /٦٤٧ - ٦٩٠ م) والي أخيه عبد الله بن الزبير (١ - ٧٣ هـ / ٦٢٢ - ٦٩٢ م) الذي حاصره الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ - ٩٥ هـ /٦٦٠ - ٧١٤ م) وقتله. وإذا كانت مدة محاربة الزبيريين لم تدم أكثر من ثماني سنوات، كي تدعم جوانبها السياسية، فإن حزبي الخوارج والشيعة، أتيح لكل منهما أن يدعم نظريته في الخلافة، وأن يسندها بالأدلة البيّنة، لكونهما حزبين ثابتين مستقرين، وليسا حزبين عارضين[2] وتسمى الذين خرجوا على علي بن أبي طالب (... - ٤١ هـ / ٦٠٠ - ٦٦١ م) بالخوارج، لأنهم خرجوا على إمامهم الذي بايعوه وهو عليّ. وأساس مبادئهم أن لا تقتصر الخلافة على قرشي، بل هي حقّ لله. واستمرت حربهم طيلة عهد بني أميّة ويُعرف عنهم أنهم كانوا سرعان ما يختلفون ويفترقون. وكلما اتفقوا على إمام. وانقسموا إلى أربعة فرق هي: الأزارقةوهم أتباع

---

(١) المرجع نفسه: ص: ٢٥٣.

(٢) ضيف شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ٨٧.

نافع بن الأزرق (... - ٦٥ هـ / ... - ٦٨٥ م) ثم جعونة بن مازن (... - ٧٨ هـ / ... - ٦٩٧ م) المعروف بقطري بن الفجاءَة. وأهم مراكزهم البطائح بالقرب من البصرة. وقد استولوا على فارس وكسرمان. ودّخوا عبيد الله بن زياد (٢٨ - ٦٧ هـ / ٦٤٨ - ٦٨٦ م) والي مُعاوية وابنه يزيد (٢٥ - ٦٤ هـ / ٦٤٥ - ٦٨٣م) أمّا النجدات فهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي (٣٦ - ٦٩ هـ / ٦٥٦ - ٦٨٨ م). وكان مسرح نشاطهم اليمامة وحضرموت والبحرين. ورماهم الحجاج بعمر بن عبيد الله بن مَعْمَر (...-٢٩هـ / ... - ٦٥٠ م) فهزمهم وقضى عليهم. وأما الصفرية فهم أتباع زياد بن الأصغر: وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة. وأما الإباضية، فهم أتباع عبد الله بن أباض التميمي (... - ٨٦ هـ / ... - ٧٠٥ م) وكان مسرح نشاطهم حضرموت واليمن. وكان أشد هؤلاء الأحزاب ثورةً وشدّة، الخوارج وفي ذلك يقول أحد شعرائهم[1]:

آألفا مؤمنٌ منكُم زَعَمْتُم ... وَيَقْتُلُهُمْ بآسك[2] أربَعُونا
كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ ... وَلَكِنَّ الخَوَارِجَ مُؤْمِنُونا
هُمُ الفئَةُ القَلِيْلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ ... عَلَى الفِئَةِ الكَثِيرَةِ يُنْصَرُونا

وشعر الخوارج كلّه، يذهب هذا المذهب من الحماسة. وهي حماسة دينية فقد آمنوا بعقيدتهم، وظنّوا أنّ المسلمين ضلوا سواء

(١) الطبري: محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك (٢٢٥ هـ - ٣١٠ هـ / ٨٤٠ - ٩٢٥ م) نشر دي غوتيه. ليدن (١٨٨٢ م). ج ٢، ص: ١٦٨٢.
(٢) آسك: موضع بهمذان.

السبيل، وكان يقابل حزب الخوارج، حزب الشيعة، وهو لا يقلّ أهمّيّة عنه. وكان مقتل عليّ، وتحوّل الخلافة الى الشام، يرمز الى دولتهم المفقودة[1] وأما الفرقة الكيسانية، فزعيمها المختار الثقفي (١ - ٦٧ هـ / ٦٢٢ - ٦٨٧ م) الذي قضى على مصعب بن الزبير، وكان يدعو الى محمد بن علي بن الحنفية (٨١ هـ / ٧٠٠م) وهم لا يسبغون على الامام صفة روحية تفصله عن البشر: فكل ما يصفونه به، العلم والزهد والسخاء والشجاعة. وفرقة الزيدية كانت معتدلة، وكان إمامها زيد بن علي بن الحسين (٧٩ - ١٢٢ هـ / ٦٩٨ - ٧٤٠ م) وقد خرج على هشام بن عبد الملك (٧١ - ١٢٥هـ / ٦٩٠ - ٧٤٣ م) فأرسل إليه جيشاً قتله سنة (١٢٠ هـ / ٧٣٨ م) وصُلب بالكوفة. وأما حزب بني أميّة، وهو حزب الدولة والحكومة، فكان يندمج فيه أهل الشام، وكثير من أهل البلدان الأخرى. فهو حزب السواد الأعظم. وكان لهذا الحزب الذائدون عنه والمدافعون الذين يدفعون خصومه من الزبيريين والخوارج والشيعة. وكانت سياسة الناس في هذا العصر، قد انقسمت في غالبيتها إلى قسمين. قسمٌ مع بني هاشم وهو الشيعة. وقسمٌ مع الأمويين، وكانوا يُضفون عليهم من صفات الإمامة ما يُضفيه الشيعة على أئمتهم. وإلى ذلك يشير محمد بن الحنفية بقوله: «أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أنداداً من دون الله نحن وبنو عمّنا هؤلاء يعني بني أميّة»[2] فهذا الحزب الأموي كان يرفع من شأن خلفاء بني أميّة، وكانت صورة الخليفة الأمويّ في رأي حزبه صورة مقدسة،

---

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص ٩٠ - ٩١.

(٢) ابن سعد: عبد الله بن محمد: طبقات ابن سعد: ج ٥، ص: ٦٨.

لها جلالها وخطرها، فهو الإمام الذي تجب طاعته، لأنّ طاعته من طاعة الله، وطاعة خصومه من طاعة الشيطان. يدلّ على ذلك أكبر الدلالة، ما رواه الطبري من أنه لمّا توفي يزيد بن معاوية، ودعا عبدالله ابن الزبير لنفسه، قام حسّان بن مالك (... - ١٥٠ هـ / ... - ٧٦٧ م) بالأردن فقال: «يا أهل الأردن، ما شهادتكم على ابن الزبير وعلى قتلى أهل الحرّة؟ فقالوا: نشهد أن ابن الزبير منافق، وأنّ قتلى أهل الحرّة في النار. قال: فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة قالوا: نشهد أن يزيد على الحقّ، وأنّ قتلانا في الجنّة»(١) هكذا كان ولاة بني أميّة وقادتهم وأنصارهم. وقد تبعهم الشعراء يدعون في شعرهم نفس الدعوة. وتبيّن لنا من دراسة الأحوال في ذلك العصر، أنّه لم تكن هناك بلدة، ولا قبيلة، إلاّ فيها شعراء لهم نزعة أمويّة. ففي مكة نجد السّائب بن فروخ (... - ١٤٠ هـ / ... - ٧٥٧ م) أبو العباس الأعمى. وفي المدينة نجد عبد الله بن محمد (... - ١٠٥ هـ / ... - ٧٢٤ م) المعروف بالأحوص. وفي الكوفة نجد عبد الله بن الزبير الأسدي(... - ٧٥ هـ / ... - ٦٩٥ م). وفي البصرة نجد جريراً والفرزدق وفي الجزيرة نجد الأخطل (١٩ - ٩٠ هـ / ٦٤٠ - ٧٠٨ م) والقُطامي (... - ١٣٠ هـ / ... - ٧٤٧ /) وأعشى تغلب (... - ٩٢ هـ / ... - ٧١٠ م) وفي الشام نجد عُدي بن الرقاع العاملي (... - ٩٥ هـ / ... - ٧١٤ م) ومن الخطأ أن نحاول عدّ شعراء بني أمية، فهم أكثر من أن يُلمّ بهم إحصاءٌ. فقد بلغوا عشرات، إن لم يكونوا مئات. وتكتظ كتب الأدب العربي بهم وبأشعارهم السياسية الولاء لبني أمية. وجعل

---

(١) الطبري: محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك: ج: ٢، ص: ٤٦٩.

الولاء السياسي لهؤلاء الشعراء، أن يجعلوا بني أميّة أحقّ من غيرهم في ارث النبوّة. وفي ذلك يقول الأحوص مخاطباً الوليد بن عبد الملك[1]:

تـخيّره ربُّ العبادِ لَخَلْقِـــهِ ... وَلِيّـاً وَكَانَ اللهُ بِالنَّاسِ أعْـلَمَا

ويمدح عديُّ بن الرقاع الوليد بن عبد الملك، فيقول فيه:

صَلّى الّذي الصَّلواتُ الطَّيباتُ لَهُ ... والمؤمنون إذا ما جمّعوا الجُمَعا

إنّ الـوليـدَ أميـرَ المُـؤمنيـنَ لـهُ ... مُـلْكٌ عَلَيْـهِ أعَـانَ اللهُ فـارتَفعا

وعلى هذه الشاكلة، كانت الحياة السياسية، تجعل شعراء بني أميّة يَغلون في مدائحهم، ونذكر على سبيل المثال، حارثة بن بدر الغُداني (... - ٦٤ هـ / ... - ٦٨٤ م) الذي يقول في زياد بن أبيه[2]:

فأنْتَ إمَامُ مُعْدَلَـــةٍ وَقَـصْـدٍ ... وَحَزْمٍ حِيْـنَ تَحْضُرَكَ الأُمُوْرُ

أخُوْكَ خَلِيْفَـةُ اللهِ ابـنُ حَـرْبٍ ... وَأنْـتَ وَزِيْـرُهُ نِعْـمَ الـوَزِيْـرُ

وكانت سياسة الحجاج المرغمة للناس للدخول في طاعة بني أميّة، تجعل الشعراء يمدحونه خوفاً من بطشه. كما حدث للشاعر العُديل بن الفَرْخ العِجلي (... - ١٠٠ هـ / ... - ٧١٨ م) الذي هجا الحجاج وفرّ إلى قيصر الرّوم. فهدد الحجاج القيصر بغزوه، فأرسل إليه عُديل الذي مدحه بقصيدة يقول فيها[3]:

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين. الأغاني. ج ١، ص: ٢٩٨.

(٢) الطبري: محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك ج ٢، ص: ٧٨.

(٣) ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم (٢١٣ - ٢٧٦ هـ / ٨٢٨ - ٨٨٩ م) الشعر والشعراء. ط. دار المعارف بمصر. ص: ٢٤٥.

بَنَى قُبَّةَ الإسْلام حَتَّى كأنّما   هَدَى النَّاسَ مِنْ بعْدِ الضَّلالِ رَسُولُ

خليلُ أميرِ المؤمنينَ وسيفُهُ   لكلّ إمامٍ مُصْطفى وَخَلِيْلُ

ومن هذا القبيل، يأخذ أعشى همدان (... - ٨٣ هـ / ... - ٧٠٢ م) سياسة الولاء لبني أُميّة، ويقول في الحجاج، بعد قضائه على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث (... - ٨٥ هـ / ... - ٧٠٤م):

أَبَى اللهُ إلاّ أنْ يُتَمِّمَ نُورَهُ   ويُطْفِىءَ نَارَ الفَاسِقِيْنَ فَتَخْمَدا

وَيُنْزِلَ ذُلاً بالعِراقِ وَأَهْلِهِ   لِمَا نَقَضُوْا العَهْدَ الوَثِيْقَ المُوَكَّدا

وهكذا نجد الشعر في عصر بني أُميّة يتطور تحت تأثير السياسة، ونجد الشعراء يتوزعون على الأحزاب، وينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة، تصب كلّها في خانة الولاء لمن يسيرون السياسة ويقودون زمامها، فتسيل أشعتها على القصائد ولاءً لهم.

الحياة الاجتماعية:

كانت الطبقات الاجتماعية، تقسم في عصر بني أُميّة إلى أربع طبقات هي: طبقة المسلمين وهي الطبقة الحاكمة. وطبقة الموالي. وطبقة أهل الذمة. وطبقة الرقيق. فالطبقة الحاكمة هي الطبقة الارستقراطية. وعلى رأسها أسرة الخليفة، والارستقراطية المؤلفة من العرب الفاتحين. وعلى الرغم من أن عاصمة الخلافة (دمشق) كانت قد اصطبغت في آخر العهد الأُموي بصبغة الإسلام. فإنّ سورية بوجهٍ عام ظلّت محافظةً على صبغتها النصرانية حتى القرن الثالث للهجرة. ولقد حافظت المدن الصغيرة والقرى بنوعٍ خاص المناطق الجبلية - مأوى المغلوبين والمضطهدين - على طابعها الوطني،

ومميزات حضارتها القديمة. وقد بقي لبنان نصراني المذهب سرياني اللغة إلى ما بعد الفتح بأجيال طويلة. ولم يقرّر الفتح فيه إلاّ أمراً واحداً، هو انتهاء النزاع الحزبي. أمّا من حيث الدين والجنس والاجتماع وبنوع أهمّ اللغة، فإنّ هذا النزاع في الواقع، لم يبدأ إلا بعد انتهاء الفتوح[1]. وطبقة الموالي كانت تتمتع ولو إسمياً، بحقوق الرعوية الإسلامية. وقد قامت الأثرة العربية سداً منيعاً في وجه تلك الحقوق، وحالت دون تطبيقها. وشعر الموالي أنهم احطّ الطبقات الاجتماعية في البيئة الإسلامية، فاستنكروا هذا الوضع وأخذوا يناصرون كل حركةٍ تقوم ضد الحكم الأموي. وطبقة أهل الذمة، شملها أمان الإسلام وعهده. وتمتعت بقسطٍ وافرٍ من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج. وارتبطت قضاياها في الأمور المدنية والجنائية والقضائية برؤسائها الروحيين، إلاّ إذا كانت القضيّة تمسّ المسلمين. أمّا الشريعة الإسلامية فلم تطبق عليهم، لأنّها لم توضع لهم. وفي الأماكن المنيعة كأرجاء لبنان، بقيت للنصارى السيطرة، بحيث استطاعوا أن يتخذوا خلفاء بني أميّة، حتّى عبد الملك نفسه. وكانوا حتى استخلاف عمر بن عبد العزيز يعاملون بالحسنى. وكانت ميسون زوجة معاوية نصرانية وكذلك شاعرة. أما الطبقة الرابعة، وهي طبقة الرقيق، فكانت من أجناس شتّى، فمنهم الاسود من أفريقيا. ومنهم الأصفر من فرغانة أو تركستان الصينية. ومنهم الأبيض من الشرق الأدنى أو شرقي اوروبا وجنوبها. ونصت الشريعة الاسلامية، أن مولود الأمة من غير سيدها عبدٌ، سواءٌ أكان الوالدُ

(١) حتي: فيليب: تاريخ العرب. ص: ٢٩٦.

عبداً أم حراً. وكذلك يحسب ولدها من سيدها ما لم يعترف ببنوته. أما أولاد العبد من زوجة حرة فأحرار. ولم يكن غريباً أن يقتني الأمير الأموي من الحشم ألف عبدٍ يقومون على خدمته[1].

وقد اقتنى خلفاء بني أُميّة المغنين والمغنيات. وقد أُرسل يزيد بن عبد الملك (٧١ - ١٠٥ هـ / ٦٩٠ - ٧٢٤ م) في طلب القيان من الحجاز[2]. وقد دخل الشعراء الامويون، حلقات الغناء وأخذوا يؤلفون القصائد لمنشدي الغناء، في حلقات الخلفاء، تحت ظل ذوق جديد وحضارة جديدة. وكان في أغلبه شعر شباب مدنٍ يسوقونه للمرأة التي يجدونها في دور الغناء. وتحوّل الشعر في الحجاز والشام، من قصائد إلى مقطوعات تُقال في المرأة لتعبّر عن أحداث ووقائع وجدانية حاضرة. ومن المغنين عرفت دور الغناء: طوَيْس وسائب وخاثر ومعبد وابن مسيحج وابن سريج والغريض. ومن المغنيات: جميلة وسلاّمة وحبّابة وعَقيلة والزّلفاء. وكلُّ هؤلاء أُجانب على العرب والعربية. فلا بد للشاعر أن ينزل بأساليب شعره إلى اللغة اليومية، وحتّى يُرضي ذوقهم[3] ولم يعد الشعر العربي في الحجاز والشام، يؤلف في هذا العصر بالصورة القديمة، بل بصورة جديدة، يميل إلى السهولة المفرطة، ويختص بالحب وأُحداثه ووقائعه المعاصرة. وأصبحت المقطوعات الشعرية لا تزيد عن عشرة أبيات إلاّ في القليل النادر. وكان للمغنيات دورٌ كبير في حذف كلمة ووضع كلمة

---

(١) المسعودي: أبو الحسن: علي بن الحسين (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) مروج الذهب ومعادن الجوهر. نشر دي غونيه. ليدن (١٨٩٣ م) ج ٤، ص: ٢٥٤.

(٢) حتي: فيليب: تاريخ العرب ص: ٢٩٦.

(٣) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين. الأغاني: ج ١٣، ص: ١٤٩.

مكانها تناسب الصوت واللحن. وأصبح الشعر الغنائي فناً معتمداً على فن الغناء المؤثّر فيه، تارةً عن طريق تهذيب المغنين. وتارةً عن طريق فرض ألحانهم على الشعراء. وكانوا يُدخلون ألحاناً أجنبية كثيرة[1] فشاعر مكة والمدينة ودمشق في هذا العصر لم يكن حراً، بل كان مقيداً بنظرية الغناء الجديدة التي يحتاج فيها المغنّي إلى مدٍّ في بعض الحروف وهَمْسٍ وتقصيرٍ في الحروف الأخرى. وهو ما تعوّد العروضيون أن يسمّوه بالزحافات ولا نشك في أن كثيراً من زحافات الشعر في هذا العصر، أريد بها تلبية حاجات مغنٍّ أو مغنّية[1] وقد مال الشعراء - أيضاً - إلى الأوزان الخفيفة من مثل الوافر والهزج والمتقارب والرمل والسريع والخفيف. وكذلك مالوا إلى هجر الأساليب الجزلة والأوزان المعقدة، إرضاءً لهوى المغنين والمغنيات. وكان الشعر في غالبه يدور حول قصة حبّ، ويتناول الغزل بأساليبه وألفاظه وأوزانه.

وهذه الطبقة المترفة، التي انتجت حياتُها الاجتماعية هذا الغزل الجديد، كان يقابلها في الكفة الثانية من العرب، طبقة عامة، اتخذ أدبها وشعرها صوراً مخالفة، مستمدة من شظف العيش، وحياة البادية وسموّ الدين وروحه الخلقية العالية. فشعراء نجد، كانوا ينشرون الغزل العفيف، لأنهم لم يعرفوا الترف، ولا أفسدتهم الحضارة. وقد رقق الاسلام نفوسهم وصفّاها. فكان طبيعياً، أن لا يكون غزلهم إباحياً صريحاً، وفيه حرمانٌ وطهارة، وارتفاع عن الحسّ والمادة[2] وإذا تركنا نجداً إلى العراق ومدينتيه الكبيرتين البَصْرة

(١) المرجع نفسه: ج ١، ص: ٢٥٠.

(٢) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي ص: ١٠٦.

والكوفة. وجدنا العرب الذين نزلوهما، يشتغلون بالحروب والفتوح. فلم يكونوا آمنين مستقرين بل كانوا على أهبة القتال. ولذلك لم يتم للعرب اندماج فيهما لينسوا حياتهم القديمة. ومن هنا غلب على المدينتين طابع الحياة الجاهلية. وإذا كانت المدينة في الحجاز اشتهرت «بدار جميلة» حيث المغنون والمغنيات. فإنّ البصرة اشتهرت بسوق «المربد» والكوفة بسوق «كناسة» وهما سوقان عامتان، على غرار سوق «عكاظ» في الجاهلية. وتطورت الحياة الاجتماعية مع سوقي «المربد» و«كناسة» وذاع صيت المربد حيث كانت تتحلق القبائل حول شعرائها. فالشاعر جرير له حلقته. والشاعر الفرزدق له حلقته[1] ويؤم الناس هاتين الحلقتين وغيرهما من الحلقات، ليسمعوا قصائد الشعراء، وما يتعلق منها بالعصبيات القبلية وبعد حرب صفين، أخذت الحياة الاجتماعية، وصفاً آخر للشعر، يتخذ شكل الفخر والهجاء. وكان الهجاء، هو الشغل الشاغل للطبقة الفارغة من العرب في العراق حين يهدأون. فنرى الناس يتحلقون في حلقات المربد والكناسة، ليسمعوا قصائد شعرائهم المثيرة في الفخر بقبائلهم، وذمّ خصومهم، فيطربون، ويغادرون الحلقات معتزين منتصرين. وهكذا احتدمت في هاتين السوقين، العصبيات التي كانت تقوم بين الأصول والجرائيم الكبيرة بين العرب، كما تقوم بين الفروع والشعب الصغيرة. وكان لكل بطنٍ من قبيلة في البصرةِ والكوفة شعراء ينافحون عنه في هذه الحرب اللسانية الداخلية التي أشرعت فيها أسنّة الشعر.

وفي الكتب صورٌ كثيرة من هذا الذي ذكرنا. فَمُسَاوِر العَبْسيّ

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين. الأغاني ج ٨، ص: ٢٩ و٧٧.

(... – ٧٥ هـ / ... – ٦٩٥ م) يتهاجى مع المرّار الفقعي الأسدي (... – ... هـ / ... – ... م) ولبن مياده الرّماح بن أبرو بن ثوبان الذبياني (... – ١٣٦ هـ / ... – ٧٥٤ م) كان يتهاجى مع الحكم الخُضْري المحاربي (... – ١٥٠ هـ / ... – ٧٦٧ م) ويتهاجى زياد الأعجم مولى عبد القيس (... – ١٠٠ هـ / ... – ٧١٨ م) مع كعب الأشقري (... – ٨٠ هـ / ... – ٧٠٠ م) والمغيرة بن حَبْنَاء التميمي (... – ٩١ هـ / ... – ٧١٠ م)[١] ونفذ في أثناء ذلك جرير والفرزدق من جهة وجرير أيضاً والأخطل من جهة ثانية إلى أهاجٍ كانت تُلقى في مسرح المربد. وكانت تأخذ شكل لُعبة طريفة، يتجمع الناس لمشاهدتها. وسميت هذه الأهاجي بالنقائض. وكان يعيش مع هذه الطبقة العامة من العرب والطبقة الارستقراطية، طبقة ثالثة هم الموالي. وكانوا كثيرين في المدن الاسلامية إذ كانوا يبلغون في الكوفة والبصرة، نحو نصف السكان. والعرب في عصر بني أمية، رفضوا نظرية الاسلام التي تدعو الى التسوية بين الشعوب والقبائل. وهناك أخبار وروايات تحكي هذا الرفض. والموالي وان كانوا طبقة ثالثة إلاّ أنهم أدُّوا دوراً عظيماً في خدمة الثقافة والدين الاسلامي. فكان أكثر حملة العلم والدين منهم. وكذلك كان منهم شعراء اشتهروا. وكان أكثر شعرهم يذهب في المديح. ولُوّن شعر نفرٍ منهم بنزعة شعوبية. وقد اشتهر بهذه النزعة في العصر الأموي

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين. الأغاني. ج ٢ ، ص: ٢٨٣. ج ١٠، ص: ٣١٨. ج ١٣، ص: ٩٩. ج ١٤، ص: ٢٨٧.

إسماعيل بن يسار النسائي (... - ١٣٠ هـ / ... - ٧٤٨ م) وفي الاغاني نجد طرفاً من هذه النزعة في قوله[١]:

رُبَّ خَـــالٍ متـــوَّجٍ لي وعَـــمٍّ مَاجِدٍ مُجْتَدًى كَرِيمِ النّصابِ
إنّما سُمّـــيَ الفَـــوارسُ بالفُـــرْ سِ مضاهاةَ رَفعة الأنْساب

وقد فخر بنزعته الفارسية في قصيدة يمتدح بها هشام بن عبد الملك يقول فيها:

أصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْدِي لا يُقَاسُ به وَلِي لِسَانٌ كحدِّ السَّيْفِ مَسْمُوْمِ
مِنْ مِثْلِ كِسْرَى وسَابورِ الجنود معاً والهُرْمزانِ لِفخرٍ أو لِتَعْـظِيـمِ

وهذا الشعر، هو صورةٌ عن الحياة الاجتماعية في تقسيم طبقاتها، وجوحياتها الشعرية عند الموالي وموقف العرب منهم داخل العصبيات وصراعها المصور في قصائد شعرائها.

الحياة الاقتصادية:

كان المترفون من قريش، يعيشون حياةً منعمة. وكان شعرهم صدى حالتهم الاقتصادية المتقدمة في نعيم وغنى. وكان هؤلاء من أهل المدن. أما اولئك الذين بقوا في البوادي، فلم ينعموا بالترف، واصطبغ شعرهم بصبغة حزينة يظلله الحرمان. وغلب على شعرهم روحيّة من الاسلام. وكان للتأثيرات الاقتصادية نتائج مهمّة في نفوسهم. فالعامل الاقتصاديّ، كان له أثره العميق في حياة الناس والشعراء. وهذا ملاحظٌ في جميع جوانب الشعر الأمويّ، حتّى في الشعر الحماسيّ، الذي كان ينظم في الفتح والجهاد في سبيل الله،

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين. الأغاني. ج ٤، ص: ٤١١.

ويتضمن الأثر الماديّ الاقتصادي. وكانت دمشق وأموالها، محطّ أنظار الشعراء، الوافدين إلى الشام، من أقصى البوادي إلى أقصى الحواضر، فهم يسعون إليها مهرولين، من الحجاز والعراق، يلتمسون لدى الخلفاء عطاءً وفيراً على مدائحهم. وخير من يصوّر ذلك الشاعر جرير في مدحه عبد الملك بن مروان، على لسان زوجه أمّ حزرة[١]:

تَعـزَّتْ أمُّ حَزْرَةَ ثـم قـالتْ رأيْتُ الوارِدين ذَوي لِقاحِ[٢]
تُـقـلِّـلُ وَهْيَ سَاغِيـةٌ بنيهـا بأنفاسٍ من الشَّبِمِ القـرَاحِ[٣]
أغِثْني يـا فِـداكَ أبـي وأمّـي بِسَيْبٍ منْكَ إنّكَ ذو ارْتِيَـاحِ[٤]
سَأشْكُرُ إنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيْشي وأنْبَتُّ القَوادِمَ في جَنَاحِـي

ومثل هذا العطاء، كان جاذباً فعّالاً لجذب الشعراء، فيسيل له لعابهم ويقفون في صفوف بني أميّة. حتّى الشعراء المعارضون، كانوا لا يجدون غضاضة في الذهاب إلى مورد المال، وترك المعارضة جانباً في سبيل كسبه والحصول عليه، كما فعل ابن قيس الرقيات، وكُثيّر والطّرماح. الذين لم يجدوا بأساً في مدح بني أميّة لينالوا عطاءَهم. ومن أجل كسب المال وفد الشعراء على الولاة الأمويين ومدحوهم، لينالوا منهم ما يملأوا به جيوبهم. فكان جرير شاعر الحجاج، قبل أن يكون شاعر عبد الملك وكان زياد بن أبيه وابنه عبيد الله، وكثيرون غيرهم، يصلون الشعراء ويسبغون عليهم عطاياهم. حتى قال فيهم وبأمثالهم ذو الرّمة:

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين. الأغاني. ج ٨، ص: ٦٨.
(٢) اللقاح جمع لقحة. وهي الناقة الحلوب.
(٣) تعلل: تشغل وتلهي. الشبم: البارد. القراح: الصافي.
(٤) السيب: العطاء.

وَمَا كَانَ مَالِيَ مِنْ تُرَاثٍ وَرِثْتُهُ ... وَلا دِيَةٍ كَانتْ ولا كَسْبَ مَأْثَمِ
وَلَكِنْ عَطَاءُ اللهِ مِنْ كُلِّ رِحْلَةٍ ... إلى كُلِّ مَحْجُوبِ السُّرَادِقِ خِضْرَمِ(١)

وقد امتلأت دواوين العصر بمدائح هؤلاء الشعراء الذين لزموا إلى جانب الولاة القوّاد، ومنهم المهلّب قائد الجيوش الأمويّة ضدّ الترك في خراسان، كما أشادوا بأبنائه وخاصةً يزيد. وكان المهالبة في دولة بني أُميّة، كما كان البرامكة في دولة بني العبّاس. وفيهم يقول: بُكَيْر بن الأَخْنَس(٢):

نَزلتُ عَلى آلِ المهلّبِ شاتِياً ... فقيراً بعيدَ الدّارِ في سَنَةٍ مَحْلِ
فَمَا زَالَ بِيْ إلطَافُهم وافتقادُهم ... وإكْرَامُهمْ حَتّى حَسِبْتُهُمُ أَهْلِي

ويشتهر هذا العصر بكثرة الأجواد الكرماء، وقد رفدتهم الفتوح والغزوات، بما يشاؤون من الأموال، فأغدقوها على الشعراء. وبالقدر الذي رفع فيه الشعراء شأن الباذلين أموالهم في سبيل إسعادهم، فإنّهم ذمّوا البخلاء، ونعتوهم بالصفات القبيحة، كقول جرير في قوم يذمّهم لشدة بخلهم:

يُخَالِفُهم فَقْرٌ قَدِيْمٌ وَذِلَّةٌ ... وَبِئسَ الحَلِيْفَانِ المَذَلَّةُ والفَقْرُ

والتفاعل الاقتصاديّ في عصر بني أُميّة أظهر آفةً لم نعهدها من قبل. ذلك أنّ ضرورات الحياة الاقتصادية في المدن، جعلت بعض الناس يحرصون على أموالهم، فتصدّر لهم بعض الشعراء بشعرهم، وأغلظوا لهم القول في هجائهم، فلم يزدهم ذلك إلاّ شدةً في الحرص.

---

(١) الخضرم: الخير.
(٢) الجاحظ: عمرو بن بحر: البيان والتبيين. ج ٣، ص: ٢٣٣.

ومن اشتهر في هذا الهجاء أبو الأسود الدؤلي (١ ق هـ - ٦٩ هـ / ٦٠٥ - ٦٨٨ م)، الذي كان شديد البخل، حتى إنّه دعا إليه وحبّذه ودافع عنه بقوله[١]:

يَلُومُونَنِي فِي البُخْلِ جَهْلاً وضَلَّةً   وَلَـلْبُخْلِ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ بَخِيْلِ

وقد كوّن المالُ إلى جانب البخلاء، جماعةً من الصعاليك الذين يتخذون إظهار الفقر والتصعلك وسيلتهم إلى طلب المال من الأغنياء الموسرين. وأشهر من احترفوا هذه الوسيلة الحكم بن عبدل الكوفي (... - ١٠٠ هـ / ... - ٧١٨ م) الذي يقول متصعلكاً في شعره[٢]:

يا أَبَا طَلْحَةَ الجَوادَ أَغِثْنِي   بسِجَالٍ من سَيْبِكَ المَقْسُوْمِ

أَحْيِ نَفْسِي فَدَتْكَ نَفْسِي فَإِنِّي   مُـفْلِسٌ قَدْ عَلِمْتَ ذاك عَدِيْم

لَيْسَ لِيْ غَيْرُ جَرَّةٍ وَأُصِيْصٍ   وَكِتَابٍ مُنَمْنَمٍ كَالوُشُومِ

وإكافٍ أَعَارنِيهِ نَشِيْطٍ   هُوَ لِحَافٌ لكلّ ضَيْفٍ كَرِيْمٍ[٣]

ولكي يُكثر من عطف ممدوحه عليه، يصوّر داره ملأى بالحشرات والجرذان والعناكب التي تنسج بيوتها في الجدران الخالية من أيِّ أثاث أو شيء يغطيها ويمنع حالة البؤس التي هي فيها. وهذا يدل على أنّ الشخص لا يستطيع في عصر بني أميّة أن يحصل على قوته، بدون إلحافِهِ في السؤال، واحتياله في الطلب، واظهار الذلّ والمسكنة. فإذا فعل ذلك ملأ بطنه وجيبه، وإذا لم يفعل عاش فقيراً مهملاً. فلا

---

(١) ابن عبد ربّه: أحمد بن محمد: العقد الفريد ج ٣، ص: ٣٢٨.
(٢) الجاحظ: عمرو بن بحر. كتاب الحيوان. ج ٥، ص: ٢٩٧.
(٣) الإكاف: البرذعة.

توسط بين النّاس. ولا رزق يأتي دون جرأةٍ تصل إلى حدّ الوقاحة. وحياة المدن لا ترحم مَنْ يقصدها. فحياتها تتطلب وفرة اقتصادية على المرء أن يسعى في سبيل الحصول عليها بالحيلة والخداع. ومن هذا المنطلق، ارتفع صوت المال في القصيدة الأمويّة، وصار لغة التخاطب لدى الشعراء، وأصبح أساساً في شعرهم ودعامةً من دعائم الفن الشعريّ في قصائدهم. وإذا كان الشعر تعبيراً عن الحياة. فإنّ الشعر الأمويّ أعطى الصورة الواضحة عن المال والمادة والحياة الاقتصادية، إلى جانب النظم الاقتصادية الموضوعة وما فيها من اضطراب، إن من جهة كثرة الاقطاعات للولاة وزعماء العرب[١] وإن من جهة الضرائب الكثيرة التي فرضت على الناس باسم الضرورات الاستثنائية التي تفنن الولاة في فرضها تارةً باسم أجور عمال الخوارج. وطوراً باسم نفقات العقود وسك النقود وغير ذلك[٢].

وبسبب هذه الحجج المصطنعة، تمكن الولاة من جمع الأموال والثروات حتى ملأوا بيوتهم بكل غالٍ ونفيس. ويذكر أنّ الحجاج حين صرف المهلّب عن الأهواز إلى خراسان، كان عليه لبيت المال ألف ألف درهم[٣] وحين عزل يزيد بن المهلب عن خراسان، كان عليه لبيت المال، ستة آلاف درهم[٤] وكلما توغلنا في حياة العصر الأموي الاقتصادية نشاهد ظاهرة لاثراء غير المشروع، لدى الولاة،

---

(١) البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) فتوح البلدان لهدن (١٨٦٦ م).

(٢) الطبري: محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك ج ٢، ص: ١٣٦٦ وما بعدها.

(٣) المرجع نفسه: ج ٢، ص: ١٠٢٤.

(٤) المرجع نفسه: ج ٢، ص: ١٢١٣.

وعمّال الخراج مما يجمعون من الأموال. ونشاهد في ديوان جرير والفرزدق وغيرهما من شعراء هذا العصر، شكوى كثيرة، من جُباة الخراج، وما يتبعون من عَسْفٍ وظلم في استخراج المال من النّاس. وهناك وثائق عن عمال العراق وأصحاب الخراج في عصر ابن الزبير، وما فعلوه من أكل حقوق، واستثمار ما ليس لهم حقّ فيه. وفي إحدى تلك الوثائق، نجد شكوى من أحد الشعراء المغمورين إلى ابن الزبير، بحق اولئك العمال المغتصبين يقول فيها:

يَا ابْنَ الزُّبَيْرِ أَمِيرِ المُؤْمِنِيْـنَ أَلَمْ ... يَبْلُغْكَ مَا فَعَلَ العُمَّالُ بِالْعَمَلِ

بَاعُوْا التُّجَارَ طَعَامَ الأَرضِ واقْتَسَمُوا ... صُلْبَ الخَرَاجِ شِحَاحاً قِسْمَةَ النَّفَلِ

أُشْدُدْ يَدَيْكَ بَزِيداً إنْ ظَفَرْتَ بِهِ ... واشْفِ الأَرَامِلَ مِنْ دُحْرُوجَةِ الجُعَلِ (١)

وقد سبب هذا الظلم الاقتصاديّ، كثيراً من الثورات في العراق. وكلما ثار ثائر هناك، مثل عبد الرحمن بن الاشعث، أو يزيد بن المهلّب (٥٣ - ١٠٢ هـ / ٦٧٣ - ٧٢٠ م) وجدنا العراقيين يلتفون حوله. وخاصةً الموالي الذين كان يلحقهم الظلم لكثرة ما يؤدون من خراج، وضرائب استثنائية. وقد وقف هذا كلّه عندما ولي الحكم الخليفة عمر بن عبد العزيز. وتمتعت العراق وخراسان وسائر البلاد الاسلامية بازدهارٍ اقتصاديّ، وطمأنينةٍ ماليّة. وهكذا نجد أن الشعر في عصر بني أميّة، مثّل الحياة الاقتصادية من جميع أطرافها، وما أصابها من تطوّر، وصوّر نظم الدولة الاقتصادية، وما أصاب تطبيقها من خللٍ واضطراب.

---

(١) دحروجة الجعل: عامر بن مسعود الذي ولي الكوفة لابن الزبير ثم عزله وزيد: مولى لعتاب بن ورقاء. وكان خازن دحروجة الجعل.

الفصل الثاني

جرير

- نشأته
- مكان إقامته
- ثقافته
- صفاته
- وفاته

جرير

٣٢ هـ - ١١٥ هـ/٦٥٣ م - ٧٣٣ م

هو جرير بن عطيّة، بن حُذَيفة الملقّب بالخَطَفي، ، بن بدر.... ابن كليب بن يربوع من تميم كان في الطبقة الوسطى من قبيلته، بل في الدنيا وإذا صحَّ ما نقله الأغاني، وأورد في ما نقل، أنَّ عطية والد جرير، عاش عيشة فقرٍ مدقعة أوصلته إلى الدناءة والبخل الشديد. وكان اذا اشتدّ به الجوع، عمد إلى عنزٍ فاعتقلها وجعل يمصُّ ضرعها «مخافة أن يُسمعَ صوتُ الحليب فيطلب منه لبن»[١] ولكن الشعر فعل فعله في حياته، فأعلاه في نظر الناس ورفع من شأنه في المجتمع. فصار صاحب وجاهةٍ، وانهالت عليه الأموال. وكان هذا المال خيرقوةٍ دافعة به إلى الجرأة وقد ملك ما يحمي كلامه. ورغم المفاخر التي تزعمّها، فقد ظل به الكثير من ماضٍ علق به، وجعله ينسى السؤال والتذلل في المسكنة، والإلحاف في الطلب. وفوق ذلك، فإن بعض بيوت يربوع، كانت على جانب كبير من الشهرة في الجاهلية والإسلام. فقد كانت الردافة في بيت منهم اسمه رياح. ومن آخر

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: الأغاني: ج٧- ص:٥٨.

اسمه العنبر ظهرت سَجَاح التي تنبّأت في حركة الرّدة. وقد غلب بنو يربوع في أيّام الفتنة على البصرة والكوفة وخراسان. غلب على البصرة سَلَمة بن ذؤيب الرّياحي. وغلب على الكوفة مَطَر بن ناجية اليربوعي (...بعد ٨٢هـ-/...- بعد ٧٠١م) لابن الأشعث، وأُخرج منها عامل الحجاج. وغلب على خراسان وكيع بن أبي سود اليربوعي ثم الغواني، وقتل قتيبة بن مسلم الباهلي (٤٩ - ٩٦هـ/٦٦٩ - ٧١٥م) ويذكر جرير ذلك في أبيات يقول فيها[1]:

وَيَوْمَ عُبَيْدِ اللهِ خُضْنَا بِرَايَةٍ وَزَافِرَةٍ تَمَّتْ إِلَيْنَا تَميمُهَا[2]

لنا ذَادَةٌ عَنِ الحِفَاظِ وقَـادَةٌ مَقَادِيمُ لَمْ يَذْهَبْ شُعَاعاً عَزِيمُهَا

عَنِ المِنْبَرِ الشَّرْقِيِّ ذَادَتْ رِمَاحُنَا وَعَنْ حُرْمَةِ الأَرْكَانِ يُرْمَى حَطِيمُهَا

ويقصد بالمنبر الشرقيّ منبر البصرة في خراسان. ويقصد بمنع الحطيم انجاد الخوارج لابن الزبير، حين حاصره الحجاج في ملك يزيد. وكان معظم الخوارج وقتذاك من تميم. والظاهر أنّ بيت صاحبنا في كليب بن يربوع، لم يكن نابهاً ولا مشهوراً، وإن كنا نعرف أن الخطَفي جدّ جرير كان مثرياً فيما يُروى في خبر أبياته المشهورة التي يعاتبه بها (وهي الأبيات التي عاتب بها يزيدٌ أباه معاوية وأدعاها لنفسه، لأن جريراً لم يكن قد اشتهر وقتذاك)[3] ومن

---

(١) محمد حسين محمد: الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام: ط٢. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت (١٣٨٩هـ- ١٩٧٠م)ص: ١٧٤.

(٢) الزافرة الأعوان: يوم عبيد الله بن زياد. ذلك حين ترك الإمارة بعد موت يزيد ابن معاوية.

(٣) محمد حسين محمد: الهجاء والهجاؤون: ص:١٧٥.

تلك الأبيات قوله:

فـردّي جمـال الحيّ ثم تحمّـلي   فما لك فيهم من مُقام ولا ليا

فأنت أبي ما لم تكن لي حاجة   فَإِنْ عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أَنْ لا أَبا لِيا

وإنّـي لَـمَغْرُورٌ أُعِـلَّلُ بِالْمُنَىْ   لَيَـالِيَ أَرْجُوْ أَنَّ مالكَ مالِيَا[١]

وهي قصيدة طويلة أضاف إليها جرير في وقت متأخرّ أبياتاً في هجاء الفرزدق. وهي تصور صاحبنا جيد الشعر في ذلك الوقت. وان كان خاملاً غير معروف[٢] وهناك صعوبة في تحديد مولدالشاعر، رغم اتفاق المؤرخين أن ولادته كانت في أواخر أيام الخليفة عثمان ابن عفان (٤٧ق.هـ-٣١هـ /٥٧٧ - ٦٥٦م) وإذا أخذنا قول ابن قتيبة [٢] نجد أن ولادته كانت قبل السنة ٣٤ للهجرة (٢٢ تموز ٦٥٤ - ١١ تموز ٦٥٥). وبذلك نجد أن شاعرنا أصغر من الأخطل والفرزدق بأكثر من عشر سنوات. ويقول صاحب الأغاني[٣] أنّه ولد لسبعة أشهر. وكان الفرزدق يعيره بقوله: «وأنت ابن صغرى لم تتم شهورها» ويذكر صاحب الأغاني أخوين لجرير هما: عمرو، وأبو الورد. ولعلّ اسمه حكيم ولم يكن على وفاق معهما. وعندما توفيا رثاهما ببيتين رقيقين[٤] وكان ولده بلال عاقاً، كما هو كان عاقاً بأبيه[٥]وكذلك لم يكن على وفاق مع جدّه الذي كان

---

(١) يقول لجده: لقد غررت نفسي حين زعمت لها أن لا فرق بين مالك وماليا.

(٢) ابن قتيبة: عبد الله بن سلام الشعر والشعراء: ص: ٢٨٣.

(٣) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: ج٧. ص: ٥٦.

(٤) المصدر نفسه: ج٧: ٥٩.

(٥) المصدر نفسه: ج٧:٥٩.

بخيلاً وكان هو طامعاً بماله أمّا أولاده فذكر الشاعر منهم ثمانية ذكور وابنتان، وأكبرهم حزرة، ابن خالدة، وبه يكنّى الشاعر، ثم نوح وبلال، وهو أشهرهم وأفضلهم من زرّة الديلمية. ثم عكرمة الذي حمّله آخر قصيدة قالها في مدح هشام بن عبد الملك. وكانوا كلهم شعراء وله ولد اسمه سوادة توفي بالشام فرثاه بأبيات رائعة[1] ويذكر ابنة لها اسمها زينب، وابنة لا يسمّيها، خطبها ناشر من كليب فكرهتهم. ونذكر من ازواجه أمامة أم زينب. وزرّة الديلمية ام نوح وبلال. وخالدة أم حزرة التي رثاها بقصيدته المشهورة.

نشأته:

في بحثنا عن نشأة الشاعر نجد أنه لطيفٌ ليّنٌ اذا شاء اللين، صلبٌ جافٌ مجافٍ اذا تعمّد الجفاء.. وأنه واضحٌ سهلٌ على أيّ حال، سواء في ذلك الفكرة والصورة والديباجة. هو البدوي في حياته وفي شعره[2] .وهذه النشأة بلغت نيفاً على ثمانين عاماً. ويؤيد ذلك ما يذكر جريرٌ من شيبه في أوّل قصيدة مدح بها عبد الملك ابن مروان، حين أوفده الحجاج إليه، حين ولي العراق سنة (٧٥هـ /٦٩٥م) وهذا يتنافى من أنّ شاعرنا كان تَرْعِيَةً يَرْعَى عن أبيه الغنم[3] وكانت نشأة جرير الشعرية تقوم على الرجز شأن معظم شعراء عصره. فاشتبك بشاعر معروف من قومه اسمه غسّان السليطي (... - نحو ١٠٠هـ /... - نحو ٧١٨م) فكانا يتبادلان السّباب بالرجز. ثم لحم بينهما التهاجي شعراً. فلم يزالا يتناقضان حتى دخل

---

(١) المصدر نفسه:ج٧ :٤٠-٤١.

(٢) البستاني: فؤاد أفرام: الروائع. ط٦. (١٩٨٣) رقم ٤٠ ص: ٣٣١.

(٣) محمد حسين: محمد: الهجاء والهجاؤون : ص: ١٧٧.

بينهما البعيث. وقد أتاح ذلك لجرير شيئاً من الشهرة الضيقة في قبيلته. ولكنه لم يظهر في الحياة العامة الأ في خلافة يزيد بن معاوية. ويروي صاحب الأغاني بسنده عن جرير أنه قال: وفدت على يزيد بن معاوية وأنا شابٌ يومئذٍ. فاستؤذن لي عليه في جملة الشعراء. فخرج الحاجب اليَّ وقال: يقول لك امير المؤمنين إنه لا يصل إلينا شاعر لا نعرفه. ولا نسمع بشيء من شعره. وما سمعنا بشيء فنأذن لك على بصيرة. فقلت له: تقول لأمير المؤمنين أنا القائل:

وإني لَعَفُّ الفَقْرِ مُشْتَرَكُ الغِنى   سَرِيْعٌ إذا لَمْ أَرْضَ دارِيْ انْتِقَالِيَا

فدخل الحاجب عليه فأنشده الأبيات. ثم خرج اليَّ وأذن لي فدخلت وأنشدته. واخذت الجائزة مع الشعراء. فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة وكانت نشأة الشاعر زبيرية. شأنه في ذلك شأن قومه من بني يربوع، الذين كانوا من أظهر فروع تميم تعصباً لابن الزبير. ولكن جريراً لم يكن من وجهاء قومه، واصحاب رأيهم حتى يدخل في ذلك. وكان مسالماً في نشأته. حريصاً على أن يبعد نفسه عن مواطن الشبهة. وما قد يعرضه عنده لشرّ. فهو يكتفي أن يؤيد ابن الزبير بقلبه ولم يكن معنياً بشؤون الناس ومشاكل السياسة. فكل مواهبه الهجائية تتجلى في مهاجمة الأفراد ولا تتجاوز ذلك الى الجماعات. وعندما تجاوز نشأته الأولى، وذاع صيته، كان له ما اراد من خطوة وصولات وارادة يسيرها بشعره كيفما شاء[1].

مكان إقامتـه:

إنَّ مكان إقامة شاعرنا، يتبع المكان الذي كانت تنزل فيه كليب

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: الأغاني ج٧- ص:٢٦.

ابن يربوع وهو اليمامة. وكان جرير ينزل قريةً منها اسمها «أُتيفيَة» وقد تركها لولده من بعده[1] وكانت أمّه وهي أمّ جرير أمّ قيس بنت مُعَيد بن عُمَير بن مسعود بن حارثة بن عوف بن كليب بن يَرْبوع تقيم في نفس القرية وقت ولادته. وبها عرف مكان إقامته وقد تكون بقربها تلك البئر التي نازعه ملكيتها بنوحمّان، وادّعى جرير أنّه أوّل من حفرها، فتحاكموا إلى المهاجر بن عبد الله الكلابي (...– بعد ١٢٥هـ / ...– بعد ٧٤٣م) أمير اليمامة والبحرين في خلافة هشام والوليد بن يزيد. فحكم بها للشاعر. فهجاه الفرزدق بقوله:

وإذا اليَمَامَةُ أَثْمَرَتْ حِيطَانُها وَقَعَدْتَ يا ابنَ خضَافِ فَوْقَ سَرِيرِ
لوَّيتَ بِيْ شِدْقَيْكَ تحسبُ أنني أُعْيا بِكَوْمِكَ يا ابنَ عبدِ كثَيْرِ[2]

وأقام جرير مُدَّةً بـ «المروت» حتى إذا لجَّ الهجاء بينه وبين الفرزدق، أرسل اليه بنو يربوع: «إنك مقيم بالمَرّوت ليس أحد يروي عنك، والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك منذ سبع حجيج» فانحدر الى العراق، فأقام بالبصرة[3] ومن البصرة، أخذ يتنقل منتجعاً أرباب

---

(١) الحموي: ياقوت ابن عبد الله الرومي (٥٧٤-٦٢٦هـ/١١٧٨-١٢٢٩م) معجم الأدباء القاهرة (١٩٣٦) ج١. ص: ١٢١.

(٢) يشير في الشطر الآخير الى «كثير بن الصلت الكندي» وكان هو السبب لانتصال المهاجر أو يني أمية. وأما ابن خضاف فكلمة يُسَبُّ بها ويقول الزبيري: محمد مرتضى الحسين (١١٤٥-١٢٠٥هـ /١٧٣٢-١٧٩٠م) في قاموس تاج العروس ج ٦ ص: ٨٩: «ويقال للمسبوب يا ابن خضاف كخدام».

(٣) ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء ص: ٢٨٦-٢٨٧.

السلطان من خلفاء الأمويين وولاتهم. فطوّف في الحجاز والعراق والبحرين، واليمامة. وقدم دمشق على عبد الملك بن مروان [١] وادرك هشاماً في الرصافة في آخر عمره.

ثقافته:

إتفقت العرب على أنّ جريراً كان يسبك الشعر بفاعليّةٍ رقيقة محكمة، ويسكبه في قالبٍ مضمون المعاني، محكم الشكل، يمتاز بنكهة المعرفة المجبولة بثقافة فطرية امتاز بها شعره. ويذكر صاحب الأغاني لون ثقافته ضمن حديث ذكره محمد بن سلام[٢] حين قال: رأيت أعرابياً من بني أُسد أعجبني ظرفه وروايته، فقلت له. أيهما عندك اشعر (يقصد جريراً والفرزدق). فقال: بيوت الشعر أُربعة: فخرٌ ومديحٌ وهجاءٌ ونسيبٌ. وفي كلها غلب جرير؛ قال في الفخر:

إذا غَـضِبَتْ عَلَيْكَ بَنوْ تَمِيْمٍ حَـسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَاْ

وقال في المدْيح:

أَلَسْتم خَيْر من رَكِبَ المَطَاْيَاْ وَأَنـدىْ العَالَمِيْـنَ بُطُوْنَ رَاْحِ

وقال في الهجاء:

فَـغُضٌ الطَّرْفَ اِنـَّكَ مِن نُـمَيْـرِ فَلا كَعْـباً بَـلَغْـتَ وَلا كِلاَبَاْ

وقال في النسيب:

إنَّ العيون التي في طرفها حَـوَرٌ قَـتَـلْـنَـناْ ثُمَّ لم يُحْيِينَ قَتْلاَنَاْ

وهذا إن دلَّ على شيء فيدلُّ على موهبةٍ تثقَّفَتْ بها نفس الشاعر،

---

(١) الأصبهاني: ابو الفرج علي بن الحسين الاغاني ج٧: ص:٦٥.

(٢) المصدر نفسه: ج٨ ص: ٦.

فصارت أريحية فيضٍ تنساب رقةً وعذوبة. وتلك الاريحية تجيش ثورةً عارمة في وجه من يتصدّى لها. فقد كان ينهشه ثلاثةٌ وأربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره، ويرمي بهم واحداً واحداً. ويقول صاحب الأغاني أيضاً للتدليل على سعة ثقافته: «كان جرير ميدان الشعر من لم يجر فيه لم يَرْوِ شيئاً»(1) وقال أيضاً: «كانت لجرير ضروبٌ من الشعر لا يحسنها الفرزدق»

وقد عرف لجرير ما عرف لشعراء عصره من ثقافة بدوية، تناول عناصرها، بطريق السّماع، عن مأثورات العرب الجاهلية، وعمّا نشره الإسلام من عقائد وعبادات. سمع بها وحفظها دون أن يميّز صحيحها من فاسدها، ودون أن يهضم هذه العناصر فيحوّلها إلى كيانه. فحفل شعره بكثير من الذكريات القديمة، دينية وتاريخية، وجاهلية، وإسلامية، صحيحة وظرفية(3)فهو يشير إلى رسم «بذي البيض» وإلى رسم «بدوّار».

إذا أقولُ ترَكْتُ الجَهْلَ هيَّجَني
رَسْمٌ «بذي البَيْضِ»(4) أوْ رَسْمٌ (بدُوّار)(5)

كما يشير إلى الضّم «دُوار» ويجعله من معبودات المجوس:

لا تَفْخَرَنّ فإنّ دِينَ مُجَاشعٍ دِينُ المَجُوسِ تَطُوْفُ حَوْلَ (دُوَارِ)(6)

---

(1) . المصدر نفسه: ص:٨.
(2) المصدر نفسه: ص:٩.
(3) البستاني: فؤاد أفرام: الروائع. رقم /٤٠/ ص: ٣٩٧.
(4) ذي البيض: من بلاد يربوع.
(5) دوار: سار بني اسيد.
(6) دوار: صنم كان الجاهليون يطوفون حوله كما يطوف الحجيج اليوم حول الكعبة.

ويظلّ على اعتقاد الجاهلية بالصَّدَى:

سَيَبْكي صَدَىً في قَبْرِ سَلْمى بن جَنْدَلٍ نِكاحُ أَبي الدَّهْماءِ بنتَ سَعِيدِ(١)

ويأتي على ذكر «عاد»:

رَفَعُوا البِناءَ بنو الوَليْدِ وأَسَسُوا بُنْيانَةً وَصَلَتْ أَرُوْمَةَ عَادِ

كما يأتي على ذكر «ثمودَ» :

وَشَبَّهْتَ نَفْسَكَ أَشْقى «ثمودَ» فَقَالوا: ضَلِلْتَ وَلَمْ تَهْتَدِ

ويقول أيضاً في ثمود:

وإنْ أَهْلُ الضَّلالَةِ خالَفُوكُمْ أَصَابَهُمْ كَما لَقِيت «ثَمُوْدُ»

ويأتي على ذكر يوسف ويعقوب فيقول:

اللهُ فَضَّلَهُ، واللهُ وفَّقَهُ تَوْفيقَ يُوْسُفَ إذْ وَصَّاهُ يَعْقُوْبُ

وهكذا تسير ثقافته من خلال شعره في ذكر موسى وربّة السامريّ وضلاله، وداود والزّبور وصنعة الدّروع، حتى لا يترك نبياً أو وصياً الأ ويشبعه توضيحاً وتأريخاً وذكراً ويجعلنا نقف معجبين، مقدّرين سعة اطلاع هذا الشاعر، وإلمامه بعلم ما يرفع من قدر أهل الشعر ويُعليهم في مجالس عصرهم.

صفاته:

إذا وقفنا على حياة جرير، نجد في صفاته الغثّ والثمين. فعنده من السجايا التي تجعله في صفوف أهل القدر والفضل، وعنده من

---

(١) أبو الدهماء وسعيد: أبناء عمّ من أبناء نهشل.

الخصال القبيحة التي نتمنّى لو كانت ليست له. ومن الصفات التي اشتهر بها العاطفة القويّة المبالغ فيها من قبل بعض الرّواة، حين يقابلون بينه وبين الفرزدق. ويذهبون إلى التأثير بالتضاد. ومن رواياتهم تلك أنّهم جمعوا الشاعرين بمنى في أحد مواسم الحجّ. فقال الفرزدق مخاطباً جريراً:

فإنك لاقٍ بالمنازل من منىً ... فخاراً، فخبّرني بمن أنت فاخرُ؟

فيجيبه هذا الأخير: «لبّيك اللهم لبّيك!»[1].

وممّا يروى عنه أنه كان يُملي بعض شعره حين مرّتْ جنازةٌ به، فقطع الإنشاد اتعاظاً بها، وترقرقت الدّموع في عينيه واشتد عليه البكاء وهو يردد «شيبتني هذه الجنازة!» وكان عمرو بن العلاء سامعاً له فقال: «فعلامَ تقذف المحصّنات منذ كذا وكذا؟» فيجيبه مبرراً: «إنّهم يبدأونني ثم لا أعفو»[2]، والذين رووا عنه هذه العاطفة القويّة الجيّاشة، وجعلوه سريع التأثّر، ربطوا بين عاطفته ونبل خلقه، فميزوه بالعفة التي أرجعوا ذكرها إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، ففضله بها على الفرزدق. ونحن إذا بحثنا عن تلك العفّة التي رُويت عنه، فلا نقر عليها، ولا نجد في شعره بذاءةً تقلُّ عن بذاءة نظيره الفرزدق. والذي عزّز الاعتقاد بالعفة في نظر النّاس، ما رُوي عنه بأنّه لم يعشق ولم ينزع في شعره إلى الغزل. ومن تلك الرّوايات أنّ جريراً قال: «ما عشقت قطّ. ولو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكي ما فاتها من شبابها»[3] وسرعان ما يثبت لنا عكس هذا القول حين

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: الأغاني. ج٧ ص: ٥١.
(٢) المصدر نفسه: ص: ٥٩-٦٠.
(٣) المصدر نفسه: ص: ٥٥

مطالع شعره الغزلي، فنجد عكس الرواية التي رويت عنه، وليس ما يكذب الرواية، سوى غزل جرير الناعم الرقيق.

ويعود الرواة الى ذكر ما يتناقض مع العفّة. حين يقولون بأنه كان عاقاً لأبيه. وعلى ذكر المثل القائل: «كما تَدينُ تُدان» جاءَ أبناؤه عاقين له. ويقول صاحب الأغاني في هذا الصدد: أنَّ جريراً ناقش ابنه بلال يوماً. فشتمه بلال شتماً بذيئاً. فصاحت به أمُّه قائلةً: «يا عدوّ الله، أتقول هذا لأبيك!» فقال جرير: «دعيه، فوالله لكأنّه سمعها منّي وأنا أقولها لأبي»[1] وكان جرير يميل إلى البخل في حياته، ويقتّر على نفسه في معاشه، مع كثير من الحرص. والغريب في أمره، أنّه مع شدة بخله، يذكر الكرم والعطاء في قصائده. وكان يوصي ابنه حزرة بأن يشبهه في السخاء، وحسن الضيف، وحسن البيان وتحدث الجاحظ عن شدة بخله فقال: «وَمَنْ الأمُ من جرير بن الخَطَفَيّ وأبخل؟»[2] وعرف عن جرير أنّه فيه شيءٌ من الجبن، وكان يخاف الولاة الأمويين واشتد به القلق والخوف إثر انكسار ابناء الزبير. ومهما قيل في خوفه وجبنه، فهو لم يبلغ الجبن الذي عرف عن الفرزدق.

وفاته:

أُصيب جرير بعلّةٍ كانت سبب مرض وفاته. وقد زاره نفرٌ من قريشٍ يعودونه قبل أن يموت، فخاطبهم بقوله[3]:

أهلاً وَسَهْلاً بِقَوْمٍ زَيّنوا حَسَبي   وَإنْ مَرِضْتُ فَهُمْ أهْلِيْ وَعُوَّادِيْ
إنْ تَجْرِ طَـيْرٌ بأَمرٍ فَيْهِ عَافِيَةٌ   أو بـالـفِراقِ فَقَدْ أحْسَنْتُمْ زَادِيْ

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين. الأغاني. ج٧ ص:٧٠

(٢) الجاحظ: عمرو بن بحر: البخلاء: ص:٢٨٤

(٣) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: الأغاني ج٧: ص:٨٧.

لَوْ أنَّ لَيْثاً أُمّها شِبْلَينِ أوْعَلَيْنِي   لَمْ يُسْلِمُوْنِي لِلَيْثِ الغَلْبَةِ العَادِيْ

وَقَدْ توفي جرير، في السَّنة التي توفي فيها الفرزدق. وقد اختلف في المدّة التي تأخّر فيها جرير عن الفرزدق. فمنهم من قال: إنه تأخر أربعين يوماً. ومنهم من قال: إنه تأخر ثمانين يوماً. أمّا صاحب الأغاني فيقول: كان تأخرّه عن الفرزدق سنه كاملة[1] وقد ذكر الباحثون بأنّ وفاة الفرزدق كانت سنة (١١٤هـ/ ٣ آذار ٧٣٢ - ٢٠ شباط ٧٣٣) وعلى هذا فتكون وفاة جرير على أقصى فرض سنة ٧٣٣. وكانت وفاته في اليمامة، بعد أن بلغ الثمانين من عمره، أو زاد عليها نيفاً. وحين بلغه نبأ وفاة الفرزدق قال:

مَاتَ الفَرَزْدقُ بَعْدَ مَا جدَّعتُهُ   لَيْتَ الفَرَزْدَقَ كَانَ عَاشَ قَلِيْلا

وقد سمع المهاجر بن عبد الله ما قاله جرير فقال له: بئس لعَمْرُ الله ما قلت في ابن عَمك! أتهجو ميتاً! أما والله لو رَثَيْتَهُ لكنتَ أكرمَ العرب وأشعرها. فقال جرير: إن رأى الأمير أنْ يكتمها عليَّ فإنّها سَوْءة. ثم قال:

فلا وَضَعَتْ بَعْدَ الفَرَزْدق حَاملٌ   وَلا ذَاتُ بَعْلٍ مِنْ نِفَاسٍ تَعلّتِ
هُوَ الوَافِد الميمون والرَّتقُ النَّأى   إذا النَّعْلُ يَوْماً بالعَشيرةِ زَلَّتِ[2]

وكان هذا آخر ما قاله في رثاء الفرزدق قبل وفاته. وقد عدَّها الباحثون خاتمة خيرٍ بعد هجاء شديد طال بين ابني العمّ: الفرزدق وجرير.

---

(١) المصدر نفسه: ج٧ ص:٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ج٧ ص:٨٨.

الفصل الثالث

اتصاله بأرباب السلطان

- جرير ويزيد بن معاوية
- جرير وابنا الزبير
- جرير وعبد الملك بن مروان
- جرير والوليد بن عبد الملك
- جرير وسليمان بن عبد الملك
- جرير وعمر بن عبد العزيز
- جرير ويزيد بن عبد الملك
- جرير وهشام بن عبد الملك
- جرير والشعراء

اتصاله بأرباب السلطان

لم يكن عطيّه أبو جرير مثل غالب أبي الفرزدق، في سؤدده وشرفه، إذ كان من طبقة أخرى. ولكنه لم يقلّ عنه رتبةً في اتصاله بوجهاء القوم، وأرباب السلطان، لأنه اذا فاته شيء من النسب، فإنه لم يفته شيء من عزّة السلطان، وأرباب الملك والتاج والصولجان. وقد وقف العصر الأموي موقفاً سلبياً من الاعاجم. وكان مدح واحدٍ منهم، يُعد كبيرةً من الكبائر. أمّا جرير فكان اتصاله بسلطاتهم، إمّا يعود الى أموال تصب في حجره، أو أن نفسيته، لم تكن تستشعر العصبية العربية، ولا العصبية القبلية، على نحو ما يستشعرهما الناس والشعراء في عصره ومن شعره الذي يقوله في الأعاجم[1].

ويـجـمـعـنـا والغرُّ اولادَ سارةٍ أبٌ لا نبالي بعده من تعذّرا

إلى جانب الأعاجم، اتصل ببني أميّة. وأوّل خليفة أمويّ وفد عليه، هو يزيد بن معاوية. وأول جائزة حصل عليها هي جائزته، وحين تبع العراق لابن الزبير كان جرير على رأس المتصلين بولاته،

(١) الأصبهاني: ابو الفرج: علي بن الحسين: الأغاني (طبع دار الكتب) ج: ٨، ص: ٦٥.

مما جعله يصطدم بابن عمّه الفرزدق، وسرعان مادخل جرير فيما دخل فيه أهل العراق، فمدح بشراً[1] ولما ولي العراق الحجّاج الثقفي القيسي، قرّ به منه، حتى أصبح شاعره الرسمي غير مدافع ولا منازع عليه، وجذبه إليه، وكان شعره في الحجاج يصل الى أذن عبد الملك فكان يغبط الحجاج على شاعره، ويتمنى لو يحظى به. ولم يطل الأمر حتى أصبح شاعره كما تمنّى. ومنه انتقل إلى سائر الخلفاء الأمويين ذوي الجاه والسلطان، وأصبح شاعرهم المفضّل، كما سنجد لدى استعراضنا العظماء الذين اتصل بهم.

جرير ويزيد بن معاوية:

كانت الخلافة الأموية بعد وفاة معاوية، حكراً على يزيد الذي أراده والده أن يكون وحده سيداً بعده. وكان الذين يفدون على الشام – حباً بمن أصبح ملكها، أو حباً في عطاء يأخذونه ممن قلب الموازين، فجعل الملك في بني أمية، بعد أن كان في بني هاشم –، لا يتركون فرصةً تمرّ، دون أن يحبيوا لمعاوية، صحة ما ذهب إليه، في جعل الخلافة لابنه يزيد، وما كاد هذا الأمر يتمّ، حتى وفد الشعراء على يزيد، يرثون والده، ويعددون صفاته ومزاياه العظيمة، ثم يهنئون يزيداً بمنصبه الجديد، ويدعون له بطول العمر، والاطراد في الابداع والتجديد ليكون خير خلفٍ لخير سلف. وكانوا يلقبونه بـ «مهندس بني أمية» وبأنه زينة العرب، ومفخرة خلق الشام. وكان شاعرنا جرير بسبب تعمّق الإسلام فيه من جهة، وبسبب التواضع

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ١٥٤.

في نشأته وأسرته من جهة ثانية، يجد أنه قد أطال الوقت، في مدح الأعاجم وقيس، وأنَّ الأوان قد آن ليمدح بمدح بني أميّة. ولذا يمم وجهه ناحية الشام، وقصد أول خليفة بمدحه، وينال عطاياه. وفي ذلك نسمعه يقول: «وفدت إلى يزيد وأنا شاب، فاستؤذن لي في جملة الشعراء... فدخلت وأنشدته، وأخذت الجائزة معهم، فكانت أوّل جائزة أخذتها من خليفة»[1] ونحن إذا رجعنا إلى ديوان جرير، نتفاجأ بما يعكس هذه الرواية، ويقلبها رأساً على عقب فليس هناك أيُّ بيتٍ يشير ولو إشارة بعيدة إلى أنَّ الشاعر مدح يزيداً. ويذهب الباحثون إلى تعليل ما فوجئوا به، كما فوجئنا، فيقولون: إمَّا أن يكون ما نظمه جرير في يزيدٍ قد ضاع، أو أنَّ الرواية التي تقول باتصال جرير بيزيد غير صحيحة، ورغم هذا الغموض الذي نلمسه إزاء التناقض الذي نعيش فيه، نصرّ على إيراد الرواية كما وصلت إلينا، علّه يتوافر لنا في المستقبل القريب، من يميط اللثام عن هذه المعضلة التاريخية.

جرير، وابنا الزبير:

عندما ولي يزيد الخلافة، رأى عبد الله بن الزبير أنه أحق بها من يزيد، وسرعان ما بايعه الناس في الحجاز والعراق. وعندما تمّت له البيعة أرسل أخاه مصعباً والياً على العراق. ومن هنا بدأت علاقة جرير بابني الزبير.ورأيناه يتقرب إلى كلّ من كان زبيريّ الهوى. والفرزدق لاحظ تقرّب ابن عمه لولاة ابن الزبير، وعلى رأسهم القباع، فجن جنونه، وطاب له أن ينافسه وينتصر عليه، فاحتدم

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: الأغاني طبع دار الكتب: ج ٨ ص: ٣٦.

الهجاء بين الشاعرين الكبيرين وقد استطاع جرير أن يأخذ زمام المبادرة في التفوّق، فظل في نقائضه مع الفرزدق، يذكر قتل قومه للزبير بن العوام، فإن قاتله كان من مجاشع[1]. وربما كان من الأدلة على زبيريته، واتصاله بسلطان آل الزبير في هذه الحقبة، أن نجد بِشْر ابن مروان، حين يُولّى على العراق بعد القضاء على ابن الزبير، يبعده عنه، ويدعو الشعراء إلى هجائه، وكأنه يراه شاعر خصومه[2] ثم يحدثنا الرواة، أن جريراً كان موالياً لآل الزبير، شديد الارتباط بسلطانهم، وأن الخليفة الأموي، عبد الملك بن مروان، كان « لا يسمع من شعراء مضر، ولا يأذن لهم لأنّـهم كانوا زبيريّة[3]»فكان طبيعياً أن لا يأذن لجرير. وهنا نقع في التناقض الذي وقعنا فيه،لدى بحثنا في صلة جرير بيزيد بن معاوية لأننا لا نرى، في ما وصل إلينا من شعر جرير، بيتاً واحداً، في مدح أبناء الزبير، أو التشيّع لهم، اللهم ما يُشَمُّ في أهاجيه للفرزدق، من احتجاج للزبير، وتعبير بني مجاشع بأنهم خفروا ذمامه. وقد يتصف هذا الاحتجاج بشيء من الميل، فيسمّي جرير الزبير «حواري الرسول، ويدعو يوم قتله «يوم الحواريّ» ويقول في ذلك:

يُقَـبّح جبريلٌ وُجـوْهَ مُجَاشِعٍ وَتَنْعَى الحَوَاريَّ النّجومُ الطّوالعُ

ويذكره كلما دعت حمامة هذيلها. أمّا أبناء عبد الله ومصعب، فليس في الديوان إلاّ ذمهما، والتعريض بهما، والتشنيع على ما قاما به من ثورة على الأمويين. ويتزلف في ذلك الى أصحاب السلطان، وكان أراد أن

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ١٥٤.
(٢) الأصبهاني: ابو الفرج: علي بن الحسين: ج ٨ ص: ١٨ وص: ٣٥.
(٣) المصدر نفسه ج ٧ . ص: ٥٩.

يؤيد قول الحجاج عند ماله الى عبدالملك فقال: « ان جريراً لم يكن ممن والى ابن الزبير ولا نصره بيده ولا لسانه »[1].

جرير وعبد الملك بن مروان:

لم يكف اتصال جرير بعبد الملك اتصالاً مباشراً، بل جاء عن طريق الحجاج عامله ووالي العراق آنذاك. فقد توسّم الحجاج بجرير، شاعريةً تصلح لنشر إعلام تجذب النّاس إليه، وإلى آل بني أُميّة. فقربه به منه، ووسّد له وسادة الولاية بشكلها الرسمي، فانبهر جرير بهذا التقريب من والٍ كبيرٍ، وراح يغدق على الحجاج أوصافاً ونعوتاً ترفع من مقامه، وتجعله يتبع سياسةً حازمةً لم يمارسها حكيمٌ غيره:

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمُ ... أَمْ مَنْ يَصُوْلُ كَصَوْلَةِ الحجَّاجِ
إنَّ ابـنَ يُوْسُفَ فاعلَمُوا وَتَيَقَّنُوا ... مَاضِـيْ البَصِيْرةِ وَاضِحُ المِنْهَاجِ
مَاضٍ على الغَمَرَاتِ يُمْضِيْ هَمُّهُ ... وَاللَّيْلُ مُخْتَلَفُ الطَّرَائِفِ دَاجي
مَنَـعَ الرِّشَادَ أرَاكُمُ سُبُلَ الهُدَىٰ ... والـلِّصَ نَكَّلَهُ عَنِ الإِدْلاَجِ[2]

ولا يكتفي الحجاج بما قدم من أبياتٍ ليس لها مثال في رفع شأن الحجاج، بل زاد على ذلك أبياتاً يقول فيها:

---

(١) المصدر نفسه ج ٧ ص: ٦٦.

(٢) إن جريراً يصف الحجاج بالشجاعة ونفاذ البصيرة، ووضوح المنهاج واختراق عزيمته للشدائد، وانطلاقه في الأمور.ويعطف على سياسته فيبّن رشدها، وما أفادت على الناس.فقد منع الرشوة، وأمّن الطرق من اللصوص.وأصبح الحجاج لا يخافون على حقائبهم نهباً ولا سلباً. وبذلك قضى الحجاج على كل فساد في العراق، سواء كان مادياً أو معنوياً. فإن يده امتدت ايضاً الى الفساد النفسي، والى هذه الآفة التي تسمى النفاق فعالجتها في أصحابها. وقضت على سمومها وأفاعيها.

وَثِنْتَانِ فِي الحَجَّاجِ لا تَرْكُ ظَالِمٍ سَوِيّاً وَلا عِنْدَ المُرَاشَاةِ نَائِلُ
قَدِمْتَ عَلَى أَهْلِ العِرَاقِ ومنهمُ مُخَالِفُ دِيْنِ المُسْلِمِينَ وَخَاذِلُ
فَكُنْتَ لِمَنْ لا يُبْرِىء الدِّينُ قَلْبَهُ شِفَاءً وَخَفَّ المُدْهِنُ المتثاقِلُ[١]

وهكذا تجد تكرار التبجيل والتعظيم لشأن الحجاج العالم الحكيم. وكان الخليفة عبد الملك بن مروان يطرب لدى سماعه هذه الأبيات، يغدقها الشاعر على واليه، فيغبط الحجاج على هذا الإعلام القليل النظير، ويتمنى لو يتسنّى له أن يلحق هذا الشاعر ببلاطه. وعرف الحجاج بحبّ عبد الملك لشعر جرير، ورغبته في ان يكون من شعرائه. فبعث به الى الخليفة مع ابنه محمد. وحين مثل الشاعر بين يدي عبد الملك نفحه قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وَأَنْدَى العَالَمِيْنَ بُطُوْنَ رَاحِ

ولكثرة إعجاب عبد الملك بشعره، نفحه مائة ناقة وثمانية من الرّعاء[٢] ومنذ ذلك، صار جريرٌ شاعر بني أُميّة. بدءاً بعبد الملك، وانتهاء بأبنائه، يَشيع لهم، ويدعو دعوتهم، وينفخ مع أنصارهم في بوقهم، بكلّ ما أوتي من حول فني وقوة. وكانت صلة جرير بعبد الملك أشد قوة وصلابة من صلة الفرزدق. فعلاقة جرير ببني أُميّة، تبدأ من عهد عبد الملك. أما علاقة الفرزدق بهم، فلم تبدأ الا في عهد سليمان. وجرير لم

(١) يقول جرير: خصلتان في الحجاج رفعت من قدره: الأولى القضاء على الظالم. والثانية قطع دابر الرشوة. ثم يقول مخاطباً الحجاج. عندما. جئت العراق وجدت المنحرف عن الدين، والمتخاذل من الدفاع عنه. فشفيت الأول من علته، وجعلت المتخاذل يسرع للدفاع عن الدين.
(٢) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: الأغاني ج ٨ ص: ٦٦.

يكن متمرداً، بل كان فيه ضراعة، اعدّته للحاق بعبد الملك الذي عرف كيف يرضيه ليصبح داعيةً له ولأبنائه في العراق والعالم الإسلامي. وليصبح شعره يذاع في كل مكان، يترنّم به الشعراء، وينشده المنشدون. ومن أمثال ذلك قوله في عبد الملك:

لَوْلا الخَلِيْفَةُ والقُرْآنُ يَقْرَأُهُ　　مَا قَامَ للنّاسِ أَحْكَامٌ وَلا جُمَعُ
أَنتَ الأَمِيْنُ أَمِيْنُ اللهِ لاسَرِفٌ　　فِيْمَا وَلِيْتَ وَلاَ هَيَّابَةٌ وَرِعُ(١)
أَنتَ المُبَارَكُ يَهْدِيْ اللّهُ شِيْعَتَهُ　　إِذَا تَـفَرَّقَتِ الأَهْوَارُ والشِّيَعُ
فَكُلُّ أَمْرٍ عَلَى يُمْنٍ أَمَرْتَ بِهِ　　فِيْنَا مُطَاعٌ وَمَهْمَا قُلْتَ يُسْتَمَعُ
يـَا آلَ مَرْوانَ إِنَّ اللّهَ فَضَّلَكُمْ　　فَضْلاً عَظِيْماً عَلَى مَنْ دِيْنُهُ البِدَعُ(٢)

ولا أظنّ شاعراً يلتصق ولاءً لخليفة كما التصق جرير بعبد الملك.ويزيد تعظيم الشاعر للخليفة حين يقول في مكان آخر من قصيدة له:

اللّـهُ طَـوَّقَكَ الخِلافَةَ والهُدَى　　وَاللّهُ لَيسَ لِمَا قَضَى تَبْدِيْلُ(٣)

---

(١) ورع: هنا الجبن.

(٢) يصف الشاعر عبد الملك، فيجعله عمود الدين، ولولاه ما انعقدت أحكام الإسلام، ولا انعقدت صلواته. فهو أمين الله في أرضه وعلى عباده. وهذا القرآن يقرأه. وهذه أوامره تستمد كلها منه،وهي كلها أوامر يمن يأتيها الناس عن طاعة ورضى. ويقول ايضا: إن هذا فضل عظيم اختص به الله سبحانه آل مروان، ورفعهم به درجات فوق الناس من خوارج وشيعة وغيرهما ممن يتبدعون البدع في الدين. فهم أهل الكتاب والسنة. وخصومهم أهل البدعة والإلحاد.

(٣) وفي هذا البيت إشارة الى فكرة المهدي من جهة، وإشارة الى مذهب الجبرية من جهة ثانية. فكل شيء بقضاء وقدر، ولا سبيل الى التبديل والتغيير في أي شيء.

وقد يتساءل القارىء، كيف تسنىٌ لجرير أن يخرق الحصار الذي كان يفرضه الأخطل بشاعريته على بني أمية؟ وكان للأخطل وزنٌ كبيرٌ عندهم لايعادله وزن شاعر آخر. فتلكم القصة التي تبدأ بموالاة جرير لابن الزبير الذي ما كادت تخمد حركته، حتى تلطّف شاعرنا كيما تسنّى له دخول واسط خفية لأن رقابة الحجاج عليها لا تسمح ان يدخلها الا من كان موالياً له. واسرع جرير لاجئاً الى أحد اشراف الأمويين، عنبسة بن سعيد بن العاص الذي شفع له الى الحجاج. واستغل شاعرنا هذه الشفاعة فأسرع الى مدحه - كما سبق وقلمنا - وذم أعداءه من الزبيريين والخوارج وأهل العراق عامّة. وكانت هذه الثغرة الأولى التي نفذ منها جرير لمزاحمة الأخطل في كَسْبِ عطف بني أميّة. أمّا الثغرة الثانية فجاءت بوصول الشاعر الى مجلس عبد الملك، وقدومه إليه مرّات في المواسم. وكان الهجاء قد لجّ بينه وبين الأخطل والفرزدق. فالتقى مرتين أو ثلاثاً بالأخطل في مجلس الخليفة. فخاف منه الأخطل مرّةً، على ما في رواية عُمارة ابن عقيل[1] ومرةً أفحمه بجواب مسكت. وانتصر عليه مرّةً ثالثة بانشاده «خفّ القطين». ورغم ذلك، فإن جريراً يعرف انه دخل قلب عبد الملك، وإنّ الأخطل لن يستطيع إبعاده عن مجلسه. وكان له ذلك، والمؤسف أننا لم نجد من قصائد جرير الموسمية في مدح عبد الملك سوى ثلاث تدل على ذكاء الشاعر في حسن تقربه من الخليفة. وأما القصائد الأخرى التي ذكرها المؤرخون، فلم نعلم ماذا حلّ بها، وأين ذهبت. هل إلى الضياع انتسبت، أم إلى الإهمال درجت؟ هذا ما نتمنى الكشف عنه إذا وُفق الباحثون.

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: ج ٧، ص: ٦٩.

جرير والوليد بن عبد الملك:

لقد ترسخت فكرة الموالاة لبني أمية في شعر جرير. وصار لزاماً عليه أن ينتقل بشعر ولائه لهم كلما حلّ خليفة قادم، مكان خليفة راحل. وهذا كان شأن شاعرنا، حين وفد على الوليد في دمشق وكان قد تجاوز الخمسين من عمره، وذهب صيته في المدح والهجاء. ووافق وجوده في دمشق داخل المسجد، وجود الفرزدق فيه. وكون الشاعر من المادحين للموالي والفرس، فقد أفرد الفرزدق بنفر قليل من خندف، بينما هبّ الناس الى جرير يحيّونه، ومن ثم يسألونه: «كيف أنت، يا أبا حزرة، في سيرك؟ وكيف أهلك وأسبابك؟»(١)

وعرف الشاعر كيف يصل الى قلب الوليد، كما وصل من قبل الى قلب عبد الملك. وكانت له في الوليد مدحية يقول فيها:

حَيِّ الدِّيارَ بِعَاقِلٍ والأَنْعُمِ ... كَالْوَحيِ في رَقِّ الكِتَابِ الْمُعْجَمِ(٢)

طَلَلٌ تَجرُّبه الرِّياحُ سَوارِياً ... وَالْمُدْجَناتُ مِنَ السِّمَاكِ المِرْزَمِ(٣)

عَضَّ المَنَازِلَ كُلُّ جَوْنٍ مَاطِرٍ ... أَوْ كُلُّ مُعْصِفَةٍ حَصَاهَا مُرْتَمي(٤)

أَصْرَمتَ حَاجَتَكَ التي قَضَّيتها ... وَمَعَ الضَّغَائِنِ حَاجَةٌ لَمْ تصرمِ

بَقَرٌ أَوَانِسَ لَمْ تُصِبْ غِرَّاتِها ... نَبْلُ الرُّمَاةِ ولاَ رِمَاحُ الْمُسْتَمي(٥)

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: ح ٧، ص: ٦٥.

(٢) عاقل والأنعم: موضعان.

(٣) السماك: مطر ينسب إليه المطر السماكي. المرزم: الكثير الرعد.

(٤) الجون: السحاب الماطر.

(٥) الإستماء: ان يهيج الوحش في كناسه عند شدة الحر حتى يخرج منه ثم يُفعل به ذلك مراراً حتى يتحيّر ولا يفارق الكناس فيهجم عليه.

ويستمر على هذا المنوال، حتى يصل الى إشارة مذهب الجبريّة، والقضاء والقدر والمهدوية التي سعى بنو أمية الى نشرها بين الناس، حتى ينصرفوا عن التفكير في خلافتهم ومحاولة تبديلها أو صرفها عنهم، لأن الله شاء أن يكونوا هم خلفاء رسوله. ويعزّز جرير هذا المبدأ، حتى يصل بها - في مدحه للوليد - الى المغالاة، وكأنه يريد أن يقررها تقريراً، من خلال فكرته التي يقول فيها:

إنَّ الوَلِيْدَ هُوَ الإمَامُ المُصطَفَىْ   بالنَّصْرِ هُزَّ لواؤه والمَغْنَم

ذُو العَرْشِ قَدَّرَ أَنْ تَكُوْنَ خَلِيْفَةً   مُلِّكْتَ فاعْلُ عَلَى المَنَابِرِ واسْلَمِ[1]

وعلاقته بالوليد كانت على هذه الشاكلة التي استمرت بعبد الملك حيث يدعو للأمويين الى هذا الجبر في القضاء، فخلافتهم قَدَرٌ مقدور منذ الأزل. وكذلك أوامرهم وسياستهم، وكلّ قولٍ أو فعلٍ يصدر عنهم حتى إنّ السفك للدماء مبرّر في فعلهم. وهو تابعٌ للقضاء المبرم. والقدر المقدر على البشر. فأعمال الإنسان تحكم بقوة إلهية خارجة عن سلطانه وهي قوة أعطى الله صولجانها لبني أمية. فهم خلفاء الله ورسوله في الأرض، وعلى العباد بتنفيذ مشيئته وارادته. وعليهم أن يرضوا عنهم، ويصدعوا بمشيئتهم، لأنها مستمدة من مشيئة الله. وأثبتت علاقة جرير بالوليد أربع قصائد، تذكره في مجلسه. منها واحدة فيها يحضّه على البيعة لابنه عبد العزيز حيث يقول:

عَفَا نِهْيَا حَمَامَةَ فَالجِوَاءُ   لِطُوْلِ تَبَايُنٍ جَرَتِ الظِّبَاءُ[2]

---

(١) إنه يقول في الوليد ما قاله في أبيه من ان خلافته قدر مقدور قدّره العلي العظيم صاحب العرش والأمر الذي تصدر عنه أعمالنا في الكون صدور الشمس، فلا يمكن ردها لأنها تصدر بقضاء نافذ محتوم.

(٢) عفا: درس وامّحى. النهي: منتهى السيل وموضع الشرب. الحمامة والجواء:=

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ نَوَىً قَذُوفٌ   وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هُوَ الجَلاَءُ[1]

وبعد هذا المطلع التقليديّ، يصل الى الغاية التي يريدها بالوصول الى البيعة التي يريدها لعبد العزيز بن الوليد، فيقول:

إِلَى عَبْدِ العَزيزِ سَمَتْ عيونُ الـ   رّعيـةِ، إن تـُخيّرتِ الرِّعـاءُ
إِلـَيْـهِ دَعَـتْ دَوَاعِـيهِ إِذَا مَـاْ   عِـمـَاْدُ المُلْكِ خَرّتْ والسَّمَاْءُ
وَقَاْلَ أُوْلو الحُكُومَةِ مِنْ قُـرَيْشٍ   علينـا البَيْعُ إِذْ بَلَغَ الغلاءُ[2]
رَأَوْا عَبْـدَ الـعَزِيْـزِ وَلِـيَّ عَـهْـدٍ   وَمـاْ ظَلَمُوْا بِذَاكَ وَلا أَسَاْؤُوا
فَـزَحْلِـقْـهـا بْأَزْفُـلِـهَا إِلَيْـهِ   أَمِيْـرَ المُـؤْمِنِيْنَ، إذا تَشاءُ[3]
فَـإِنَّ النَّـاسَ قَـدْ مَـدُّوا إِلَيْـهِ   أَكُـفَّـهُـمُ، وَقَـدْ بَـرَحَ الخَفَاءُ
وَلَـوْ قَـدْ بَايَـعُـوْكَ وَلِيَّ عَـهْـدٍ   لَقَامَ القِسْطُ واعتدلَ البِنَاءُ[4]

وبينا نحن نسترسل معه في ما طلبه لعبد العزيز بن الوليد، ونظن أنّه لن يرضى عن عبد العزيز بديلاً لولاية العهد، إذا بنا نجده يسارع لتهنئة أيوب بن سليمان، حين سارت ولاية العهد إليه، ويمدح والده، ويبدأ قصيدته بقوله:

هَلْ يَنْفَعَنَّكَ إِنْ جَرَّبْـتَ تَجْرِيْـبُ   أَمْ هَلْ شَبَابُكَ بَعْدَ الشَّيْبِ مَطْلُوْبُ

= اسمان لموقعين يرد ذكرهما كثيراً في شعر جرير. تباين: فرقة وتباعد. جرت الظباء: جرت بالشؤم.

(١) النوى القذوف: البعيدة. الجلاء: التفرق أو الخوف.

(٢) الغلاء: هو المسابقة في رفع الثمن.

(٣) زحفلها: دفعها اليه. بأزفلها: كاملة لا نقصان فيها.

(٤) القسط: العدل.

أَمْ كَلَّمَتْكَ بِسُلْمَاتِيْنِ مَنْزِلَةٌ يَا مَنْزِلَ الحَيِّ جَادَتْكَ الأَهَاضِيبُ[١]
كَلَّفْتُ مَنْ حَلَّ مَلْحُوباً فكَاظِمَةً أَيْهَاتَ كَاظِمَةٌ مِنْهَا وَمَلْحُوبُ[٢]

حتّى يقول في الولاء لبيعة أيّوب:

إِنَّ الإِمَامَ الذي تُرْجَى نَوَافِلُهُ بَعْدَ الإِمَامِ، وَلِيُّ العَهْدِ أَيُّوبُ
مُسْتَقْبَلُ الخَيْرِ لا كابٍ وَلا جَحَدٌ بَدْرٌ يَغُمُّ نُجُومَ اللَّيْلِ مَشْبُوبُ[٣]

ومنها قصيدة مطوّلة، يذكر فيها فتوحات الوليد الواسعة في الهند والصين والروم والفرس حيث يقول:

وَلَقَدْ قَطَعْتَ مَجَاهِلاً وَمَنَاهِلاً وَجِمَامُ آجِنِهَا كَلَوْنِ العَنْدَمِ[٤]

ثم يذكر بعد ذلك كيف سما على النصارى، ويمدحه بهدمه كنيسة النصارى في دمشق فيقول:

وَلَقَدْ سَمَوْتَ إلى النَّصَارَى سَمْوَةً رَجَفَتْ لِوَقْعَتِهَا جِبَالُ الدَّيْلَمِ[٥]
إِنَّ الكَنِيْسَةَ كَانَ هَدْمُ بِنَائِهَا قَسْراً، فكَانَ هَزِيمَةً لِلأَخْرَمِ[٦]
فَأَرَاكَ رَبُّكَ إِذْ كَسَرْتَ صَلِيبَهُمْ نُورَ الهُدَى وَعَلِمْتَ مَا لَمْ تَعْلَمِ

وكذا يهنئه بكل انتصاراته ويمدح أولاده بقوله:

---

(١) سلماتين: اسم وادٍ في صحراء الدهناء. الأهاضيب: السحاب الممطر.
(٢) كاظمة وملحوب: أسماء مواقع.
(٣) جحد: نكران الجميل. مشبوب: الواضح. الظاهر.
(٤) الآجان: واحدها آجن اوهو المتغير. العندم: الدم أو الصباغ الأحمر.
(٥) جبال الديلم: الجبال التابعة لأعاجم الديلم.
(٦) الأخرم من ملوك الروم. وفي البيت إشارة الى هدم الوليد لكنيسة مار يوحنا، حيث آلمه ان يسمع قراءة النصارى، وهو متوجه الى صلاة العصر في المسجد المعروف اليوم بالمسجد الأموي في دمشق.

وَبَنُو الوَلِيْـدِ من الـوَلِيْـدِ بِمَـنْزِلٍ كَالبَدْرِ حُفَّ بِواضِحَاتِ الأَنجُمِ

وكأنَّ جريراً لا يكفيه ما حلَّ به حين تهاجى مع الأخطل في حضرة الخليفة عبد الملك، فأمر هذا الأخير أن يركب الأخطل ظهر جرير كما يُركب الحمار حتى يسير فيه ويدور، وعبد الملك مسروراً بإذلاله، لأنَّ جريراً أقذع الأخطل وأفحش في هجائه، حتى حلَّ به في حضرة الوليد نفس ما حلَّ به سابقاً. فقد اجتمع الشاعر بِعَدَيَّ بن الرِّقاع العامليّ شاعر الوليد الخاص، فتطاول عليه، حتى غضب الخليفة، وأمر بان يُوكف جرير[1] فيركبه ابن الرقاع. ولم ينقذ الشاعر من هذه المحنة، إلاّ شفاعة عمر بن الوليد[2] تلكم هي علاقة الشاعر بالوليد وما أصابه في حضرة سلطانه من مسرّة وأفراح إذا أصابه الرضى، ونغيصةٍ وأحزانٍ إذا وقع عليه الغضب.

جرير وسليمان بن عبد الملك:

وهكذا يستمرُّ جرير في موالاته لبني أُميّة، خليفةً بعد خليفة، حتى يصل به الأمر، الى سليمان بن عبد الملك، فيصفه بالمهديّ،أُسوةً بالفرزدق ويقول فيه ضمن مقدمة قصيدة، يهنّي بها ولده في ولاية العهد:

قَدْ تَيَّمَ القَلْبَ حتّى زادَهُ خَبَلا مَنْ لا يُكَلِّمُ إلاَّ وَهوَ مَحْجُوْبُ[3]

قَدْ كَانَ يَشْفِيكَ لَوْ لَمْ يَرْضَ خازِنُهُ رَاحٌ بِبَرْدِ قَراحِ الماءِ مَقْطُوبُ[4]

كأنَّ في الخَدِّ قَرْنَ الشَّمْسِ طالِعَةً لَمّا دَنَا مِنْ جِمَارِ النَّاسِ تَحْصِيْبُ[5]

---

(١) يوكف: أي يوضع عليه الإكاف. وهو البرذعة.
(٢) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: ج ٧ . ص: ٧٣.
(٣) خبلاً: ولهاً.
(٤) الراح: الخمر، مقطوب: ممزوج.
(٥) التحصيب: رمي الحجارة بوادي منى.

تَمُتُّ الى حَسَبٍ مَا فَوْقَهُ حَسَبٌ ۝ مَجْداً وَزَيَّنَ ذَاكَ الحُسْنُ وَالطِّيبُ
تَبْدُو فَتُبْدِي جَمَالاً زَانَهُ خَفَرٌ ۝ إِذَا تَزَأْزَأَتِ السُّودُ العَنَاكِيبُ(١)

ويستمر على هذه النفحة في شعره، كما يكرر معها نغمة تفضيل الله لبني أمية على الناس، إذ اختصهم بفضله، وجعل الخلافة فيهم دون غيرهم، ثم يعود الى تكرار صفات الكرم والعدالة والاقتداء بالكتاب والسنّة في قصيدة أخرى يقول فيها:

عَلامَ تَلُومُ عَاذِلَةً جَهُولُ ۝ وَقَدْ بَلِّي رَوَاحِلَنَا الرَّحِيلُ
فَإِنَّ السَّيْفَ يُخْلِقُ مِحْمَلاهُ ۝ وَيَسْرعُ في مَضَارِبِهِ النُّحُولُ
قَطَعْنَ إِلَيْكُمُ مُتَشَنِّعَاتٍ ۝ مَسَهَامِهِ مَا يُعَدّ لَهُنَّ مِيلُ

ويظلّ على نهجه المدحيّ حتى يصل الى محطة المهدويّة التي يقف عليها منادياً بالخليفة إماماً مرسلاً من الله فيقول:

سُلَيْمَانُ المُبَارِكُ، قَدْ عَلِمْتُمْ ۝ هُوَ(المَهْدِيُّ) قَدْ وَضَحَ السَّبِيلُ
أجَرْتَ مِنَ المَظَالِمِ كُلَّ نَفْسٍ ۝ وَأَدَّيْتَ الذِيْ عَهِدَ الرَّسُولُ
صَفَتْ لَكَ بَيْعَةٌ بِثَبَاتِ عَهْدٍ ۝ فَوَزْنُ العَدْلِ أَصْبَحَ لاَ يَمِيلُ
ألا هَلْ لِلْخَلِيفَةِ في نَزَارٍ ۝ فَقَدْ أَمْسَوْا وَأَكْثَرُهُمْ كُلُولُ
وَتَدْعُوكَ الأَرَامِلُ واليَتَامَى ۝ وَمَنْ أَمْسَى وَلَيْسَ بِهِ حَوِيلُ(٢)
وَتَشْكُو المَاشِيَاتُ إِلَيْكَ جُهْداً ۝ ولاصعبٌ لَهُنَّ ولا ذلولُ

---

(١) خفر: حياء، تزأزأت: سارت مسرعة، السود العناكيب: النساء الدميمات.
(٢) الحويل: البأس والقوة.

وَأَكْثَر زَادِهِنَّ وَهُنَّ سُفْعٌ حُطَامُ الجِلْدِ والعَصَبُ المَلِيلُ[١]

ويمضي في وصفه لسليمان، فيجعله منقذاً للناس بعدله، راداً عنهم مظالم المتعسفين، لأنه مهدي زمانه المبارك من ربه لأنه اختط لنفسه سبيل السنّة النبوية، فصار من اتبعه سلك سبيل الهدى، ومن تركه سلك طريق الضلال، وكانت شدّة موالاة جرير لخلفاء بني أُميّة تجعله ينتصر لكل رأي يريد به الخليفة، وهو حين سمع بأن الخليفة سليمان يرغب في جعل ولاية العهد لابنه أيوب، أسرع الى القول:

إنَّ الإمَامَ الّذي تُرْجَىْ نَوَافِلُهُ بَعْدَ الإمَامِ وَلِيُّ العَهْدِ أيُّوبُ
اللهُ أعْطَاكُمُ مِنْ عِلْمِهِ بِكُمُ حُكْماً وَمَا بَعْدَ حُكْمِ اللهِ تَعْقِيبُ
أنْتَ الخَلِيْفَةُ لَلرحْمَنِ تَعْرِفُهُ أهْلُ الزبُوْرِ وفِي التَوْراةِ مَكْتُوْبُ

وكانت عادة جرير، أن يستجيب دائماً لمثل هذه الرغبة،حين يريد خليفةٌ أن يصرف ولاية العهد دون أُخيه لابنه. صنع ذلك مع عبد الملك حين أراد أن يحوّل ولاية العهد من أُخيه عبد العزيز الى ابنه الوليد. وصنع ذلك مع الوليد، حين أراد أن يترك سليمان الى ابنه عبد العزيز. وهو الآن يصنع الصنيع نفسه مع سليمان في ولده،حين أراد أن يصرف ولاية العهد عن أُخيه يزيد الى ابنه ايوب. وقد رأى أخيراً أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز[٢].

جرير وعمر بن عبد العزيز:

وحين كانت الخلافة في عهدة الوليد، جاء جرير المدينة، وعليها

---

(١) السفع: الاحمرار يعلوه السواد.

(٢) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ١٥٨.

عمر بن عبد العزيز. فما كان منه إلاّ أن اتصل به، واغدق عليه مديحه. وكان الفرزدق في المدينة. فأراد عمر أن يعرف أيّ الشاعرين أصلح. وحين اطلع على شعرهما، وجد الفرزدق صاحب فجورٍ وخلاعة، وجريراً صاحب عفّة. فمال الى جرير وفضله على الفرزدق الذي نفاه وقال فيه «عجبت لقومٍ يفضّلون الفرزدق على جرير مع عفّة جرير... وفجور الفرزوق وخبيثه وقلة ورعه وخوفه من الله عزّ وجل»[1] ومن القصائد التي مدحه بها واعجبته، قوله:

لَجَّتْ أُمَامَةُ في لَوْمِيْ وَمَا عَلِمَتْ عَرْضَ السَّمَاوَةِ رَوْحَاتي وَلا بُكَرِي[2]

وَلا تَقَعْقُعَ أَلْحي العِيْسَ قاربَةً بَيْنَ المِراجِ وَدعْني، رِجْلَتِي بَقَرِ[3]

مَا هَوَّمَ القَوْمُ مُذْ شَدُّوا رِحَالَهُمُ إلاّ غِشَاشاً لَدَى أَعْضَادِها اليُسُرِ[4]

ويستمر على هذه السجية في مدحه حتى ينبري قائلاً:

أَصْبَحْتَ، لِلْمِنْبَرِ المَعْمُوْرِ مَجْلِسُهُ زَيْناً وَزَيْنَ قِبَابِ المُلْكِ والحُجَرِ

نَالَ الخِلافَـةَ إذْ كَانَتْ لهُ قَدَراً كَـمَا أَتَىْ رَبَّهُ مُوْسَىْ علىَ قَدَرِ

فَلَنْ تَزَالَ لِهَذَا الدِّيْنِ مَا عَمِرُوا مِنْكُم عَمَارَة مُلْكٍ وَاضِحِ الغُرَرِ

ولا يملُّ جرير تكرار هذه النغمة الشيقة في مدائحه لعبد العزيز، وهو واحدٌ من عصبة الدوحة الأمويّة التي يريد لهم دوام الحكم على الأساس الذي يحكمون به. وقد أمْعَن في وصفهم لصفاتٍ جليلة

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين ج ٧ ص: ٧٤.
(٢) السماوة: صحراء السماوة.
(٣) المراج ورعني ورجلتي بقر: أسماء مواقع.
(٤) هوم: نام قليلاً، الغشاش: السرعة.

سارت مثلاً بين محبيهم ومؤيّديهم. كما أصبحت تلك التي ينال بها خصومهم منتشرةً بين من قال عنهم انهم ضلّوا سواء السبيل. ومن هنا انتشرت في شعره المقارنة بين الثائرين على الأمويين وقوم نوح وهود وثمود من مثل قوله في يزيد بن المهلب حين ثار وقتله الأمويون:

آلُ المُهَلَّبِ فرَّطوا في دِينِهِمْ   وَطَغَوْا كَمَا فَعَلَتْ ثَمُوْدُ فَبَارُوْا

فهو يعدهم خارجين على الدّين مارقين منه لثورتهم على حفظته وحرسته. كما يعدهم طاغين باغين كما بغت ثمود وطغت. فأذاقها الله عاقبة طغيانها جزاءً وفاقا[1] ورغم أنَّ عمر بن عبد العزيز فضَّل جريراً على الفرزدق، إلاَّ أنَّ هذا التفضيل لم يمنعه من عقاب جرير عندما لجَّ الهجاء في المدينة، بينه وبين الشاعر عمر بن لجَأ، فتقاذفا وأفحشا في القول. ويذكر صاحب الأغاني ما حصل فيقول[2]: كان الذي هاج الهجاء بين جرير وعمر بن لجأ، أن عمر كان ينشد أرجوزةً له يصف فيها إبله وجرير حاضرٌ فقال فيها:

قَدْ وَرَدَتْ قَبْلَ إِناً ضَحائِها   تُفرِّسُ الحيَّاتِ في خِرشائها[3]

جَرَّ العَجُوْزِ الثّنيَ مِنْ رِدائها

فقال له جرير: أخفقت. فقال: كيف أقول؟ قال تقول:

جرّ العَرُوسِ الثّنيَ مِنْ ردَائها

فقال له التّيميّ أنت اسوأ قولاً منّي حيث تقول:

وأَوْثَقُ عِنْدَ المُرْدَفَاتِ عَشِيَّةً   لَحاقاً إِذَا مَا جَرَّدَ السَّيْفَ لامِعُ

---

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ١٥٩.
(٢) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين، الأغاني: ج ٨ ص:٦٩.
(٣) الإنا: الوقت، والضحاء: الضحى، وتفرس: تقتل، والخرشاء: جلد الحيّة.

فجعلتهنَّ مُرْدفاتٍ غُدوةً ثمَّ تداركتَهنَّ عشيَّةً. فقال: كيف أقول؟ قال تقول: وأوثَقُ عِنْدَ المُرهَفَاتِ عَشيَّةً. فقال جرير: والله لهذا البيتُ أحبُّ إليَّ من بِكريّ حَرزَةَ. ولكنك مجلب[1] للفرزدق وقال فيه جرير:

هَلاَّ سِوانَا أدَّرَأْتــم يَا بَني لَجَأٍ   شيئاً يُقَارِبُ أو وَحْشاً لها غِرَرُ[2]

أُحِيْنَ كُنْتَ سِمَاماً يَا بَنِــيْ لجــأٍ   وخَـاطَرَت بِيَ عَنْ أحسَابِهَا مُضَرُا

خَلِّ الطَّرِيْقَ لِمَنْ يَبْنِي المَنَارَ بِهِ   وَابْرُزْ بِبَرْزَةَ حَيْثُ اضطرَّكَ القَدَرُ[3]

أَنْتَ ابنُ بَرزَةَ مَنْسُوباً إلى لجأٍ   عِنْدَ العُصَارَةِ والعِيْدانُ تُعْتَصَرُ

وقال ابن لجأ يردُّ عليه:

لَقَدْ كَذَبْتَ وَشَرُّ القَوْلِ أَكْذَبُـهُ   مَا خَاطَرْت بِكَ عَنْ أحْسَابِهَا مُضَرُ

بَلْ أنْـتَ نَـزْوَةُ خَوَّارٍ عَلَى أمةٍ   لا يَسْبِقُ الحَلَبَاتِ اللُّؤْمُ وَالخَوَرُ

مَا قُلْتَ مِنْ هَذِهِ إلاَّ سأنْقُضُهَا   يـابنَ الأتَانِ بِمِثْلِي تُنْقَضُ المِرَرُ

وكان جرير شيخاً، قد أسنَّ وضعف، وعمر شابٌّ كأنه حصان. فأمر بهما عمر بن عبد العزيز، فقيّدا وقُرنا أحدهما بالآخر، وأُقيما في سوق المدينة مُشهرين موقوفين للناس. وكانا يتشاتمان ويضطربان في الحبل، فيسقطان الى الارض «فأمّا ابن لجأ فيقع قائماً. وأمّا جرير

(١) المجلب: المعين.
(٢) ادرأتم: ختلتم غرر: غفلات.
(٣) برزة: أم عمر بن لجأ.

فينحرّ لركبتيه ووجهه. فإذا قام نفض الغبار عنه»[1] وفي رواية أخرى أنّ الوليد أمر بضربهما وتقييدهما، حين قدم المدينة فسمع بتهاجيهما وقذفهما المحصنات[2].

وعندما بويع لعمر بن عبد العزيز، وفد عليه جرير، فطال وقوفه على الباب، لأن عمر لم يكن يأذن للشعراء ولا يعطيهم. حتّى إذا وُفّق الى المثول بين يديه، مدحه بالتقوى، وشكا الفقر والجدب في قوله:

يا رُبَّ سَجْلٍ مُغيثٍ قَدْ نَفَحْتَ بِـهِ ... مِنْ نَائِلٍ غَيْرِ مَنْزُوحٍ وَلا كَدَرِ
أأذْكُرُ الجَهْدَ والبَلْوَىْ التي نَـزَلَـتْ ... أمْ قَدْ كَفَانِيْ الذي بُلِّغْتَ مِنْ خَبَرِيْ
مَا زِلْتُ بَعْدَكَ في دَارٍ تعَرِّفنِـي ... قَدْ عَيَّ بِالحَيِّ إِصْعادي وَمُنْحَدَرِي
كَمْ قَدْ دَعَوْتُك مَنْ دَعْوَى مُخلِّـلَةٍ ... لَـمّـا رَأيْتُ زَمَانَ النَّاسِ فِي دُبُرِ[3]
لَتنْعَشَ اليَوْمَ رِيْشي ثُمَّ تُنهِضُنِيْ ... وَتُنْزِلَ اليُسْرَ مِنِّي مَوْضِعَ العُسُرِ
فَمَا وَجَدْتُ لكُمْ نِداً يُعَادِلُكُـمْ ... وَمَا عَلِمْتُ لكُمْ في النَّاسِ من خطَرِ
إنّي سَأشْكُـرُ مَا أوْلَيْـتَ مِنْ حَسَنٍ ... وَخَيْرُ مَنْ نِلْتَ مَعْرُوْفاً ذَوُو الشُكْرِ

وكان ينتظر، أن ينفحه عمر على أبياته هذه. ولكنّ عمر حرمه واعتذر إليه بأنّ في المسلمين من هو أحوج الى العطاء من الشعراء. فانصرف جرير راضياً، يقول لأصحابه من الشعراء المنتظرين، وفيهم الفرزدق: «خرجت من عند رجل يقرّب الفقراء، ويباعد

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: ج ٧: ص: ٧٤.
(٢) المصدر نفسه: ج ٧ ص: ٦٩.
(٣) دبر: عودة الى الوراء.

الشعراء»[1] وهناك من يقول بأنّ كبار الأمويين أرضوه من أموالهم. ومهما يكن من أمرٍ فإنّ الشاعر عاد الى استجداء عمر بأبيات يذكر فيها أمله بخير الخليفة العاجل في مطلع يقول فيه:

هَلْ رَامَ أَمْ لَمْ ترِمْ ذو السِّدْرِ فالْثَلَمُ ... ذَاكَ الهَوَىْ مِنْكَ لا دانٍ ولا أَمَمُ[2]

إنَّ طِلابَكَ شَيْءاً لَسْتَ نَائِلَهُ ... جَهْلٌ، وَطُولُ كِبَانات الهَوَىْ سَقَمُ

حتى يصل الى الاستجداء الذي يقول فيه:

أَنْهِضْ جَنَاحِيَّ في رِيشي فَقَدْ رَجَعتْ ... رِيشَ الجناحين مِنْ آبائِكَ النِّعَمُ

أَنْتَ ابنُ عبد العَزِيْزِ الخَيْرِ لا رَهِقٌ ... غَمْرُ الشَّبابِ ولا أَزْرى بِكَ العَدَمُ

ورغم ذلك، لم ينل منه ما يؤمله، لأن عمر بن عبد العزيز، كان بعيداً عن جوّ المباهاة والمفاخرة بمديح الشعراء. وكان همه كله محصوراً في السير على ما يُرضي الله، وإعطاء المسلمين حقوقهم وهكذا، فعلاقة جرير به، لم تنل منه ما كان يؤمله.

جرير ويزيد بن عبد الملك:

وملك يزيد بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه عمر بن عبد العزيز، وهو يوم الجمعة لخمسٍ بَقِيْنَ من رجب سنة إحدى ومائة هجرية (٧٢٠ م) ويُكنّى أبا خالد، وأمّه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان[3] وكان جرير كعادته مع بني أميّة، قد تقرّب إلى يزيد ومدحه بقصيدةٍ يقول في مطلعها:

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: ج ٧ ص: ٥٨.
(٢) الأمم: القاسي.
(٣) المسعودي: علي بن الحسين: مروج الذهب ج ٣، ص: ١٨٢.

أنظرْ خليلي بأعْلَى ثرْمَداء ضُحىً ... وَالعِيسُ حائلةٌ أعْراضُهَا خُنُف[1]
إستَقْبَلَ الحيُّ بَطْنَ السرِّ أم عسَفُوا ... فالقَلْبُ فِيهِمْ رَهِينٌ أيْنَ ما انصرَفُوا[2]
مِنْ مَحْوِ كابةَ تَحْتَثُ الحُداةُ بِهِمْ ... كَيْ يَشْعَفُوا الِفاً حبّاً فَقَدْ شَعَفُوا[3]

ثم يخاطب بعد ذلك يزيداً بمثل ما كان يخاطب به مَنْ سبقه من الخلفاء في تبجيل وتعظيم الله لهم، وتفضيلهم على سائر الناس بقوله:

يا ابنَ الأَرْوَمِ وفي الأعْيَاصِ مَنْبتُهـا ... لا قـادِحٌ يرْتَقِي فِيهَا وَلاَ قَصَفُ[4]
إنّي لَزائرُكـمْ وُدّاً وَتَـكْرِمَـةً ... حتّى يُقارِبَ قَيْدَ المُكْبِرِ الرَّسَفُ
أرْجُو الفَواضِلَ إنَّ اللّهَ فَضَّلَكُمْ ... يَا قَبْلَ نَفْسِكَ لاقَى نَفْسِي التَّلَفُ
اللّهُ أعْطَاكَ فَاشْكُرْ فَضْلَ نِعْمَتِهِ ... أعطاك مُلْكَ الّتِي مَا فَوْقَهَا شَرَفُ
هَذِي البَرِيَّةُ تَرْضَى مَا رَضِيْتَ لَهَـا ... إنْ سِرْتَ سَارُوا وإنْ قُلْتَ ارْبَعُوا وَقَفُوا

وبعد هذا المديح والإطراء، يستطرد في شعره الى هجاء أبناء المهلّب في ثورتهم عليه[5] فيقول:

---

(١) الخنف: التي تلعب برأسها يمنة ويسرة، ثرمداء: اسم مكان، الأعراض: الأحزمة.
(٢) عسفوا: ضلوا عن الطريق.
(٣) كابة: موضع لبني تميم. شعفوا: نال الحب منهم نصيباً.
(٤) القادح: العفن الذي يصيب العود، القصف: الضعف.
(٥) كان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة (٥٣ – ١٠٢ هـ / ٦٧٣ – ٧٢٠ م) قد هرب من سجن عمر بن عبد العزيز. وصار الى البصرة وعليها عدي بن أرطأة الفزاري (...– ١٠٢ هـ/ ... – ٧٢٠ م). فأخذه يزيد، فأوثقه ثم خرج يريد الكوفة، مخالفاً على يزيد بن عبد الملك. وحشدت له الأزد وأحلافها. وانحاز اليه أهله وخاصته، وعظم أمره واشتدت شوكته. فبعث←

يا رُبَّ قَوْمٍ وَقَوْمٍ حَاسِدِيْنَ لَكُمْ　مَا فِيْهِمُ بَدَلٌ مِنْكُمْ وَلا خَلَفُ
آلُ المُهَلَّبِ جَزَّ اللّهُ دَابِرَهُمْ　أَمْسُوا رَمَاداً فَلاَ أَصْلٌ وَلا طَرَقُ[1]
مَا نَالَتِ الأَزْدُ مِنْ دَعْوَى مُضِلِّهُمُ　إلاَّ المَعَاصِمَ وَالأَعْنَاقُ تُخْتَطَفُ
وَالأَزْدُ قَدْ جَعَلُوا المَنْوفَ قَائِدَهُمْ　فَقَتَّلَتْهُم جُنُوْدُ اللهِ وَانْتُفُوا[2]

وهي قصيدة طويلة جداً. وفي قصيدة أخرى يقول:

لَقَدْ تَرَكْتَ فَلا نَعدِمَكَ إذْ كَفَرُوْا　لابنِ المُهَلَّبِ عَظْمَاً غَيْرَ مَجْبُوْرِ
يَا ابْنَ المُهَلَّبِ إنَّ النَاسَ قَدْ عَلِمُوا　أنَّ الخِلافَةَ لِلشُّمِّ المَغَاوِيْرِ

وَلَمْ ينس أن يمدح أخا يزيد، مسلمة بن عبد الملك بقوله:

مُسْلَمُ جَرَّارُ الجُيُوشِ إلى العِدَىْ　كَمَا قَادَ أَصْحَابَ السَّفِيْنَةِ نُوْحُ[3]

– إليه يزيد أخاه مَسْلمة بن عبد الملك (... – ١٢٠ هـ / ... – ٧٣٨ م) وابن أخيه العباس ابن الوليد بن عبد الملك (... – ١٣١ هـ /... – ٧٤٩ م) في جيش عظيم. فلما شارف رأى يزيد بن المهلب في عسكره اضطرابا. فسأل عن سببه فقيل له عن مجيء مسلمة والعباس، فقال: فوالله ما مسلمة الا جرادة صفراء. وما العباس الا نسطوس بن نسطوس (النسطوس: الذي يستخرج الشيء إذا تعذّر إخراجه). وقد التقى جيشه بجيش مسلمة والعباس. فاقتتلوا قتالاً شديداً، وولّى أصحاب يزيد عنه، فقتل في المعركة، وقتل جميع اخوته. فلما ورد الخبر على يزيد بن عبد الملك، استبشر واخذ الشعراء جميعا يهجون آل المهلب ومنهم جرير.

[للمسعودي: علي بن الحسين: مروج الذهب ج ٣ ص: ١٩٩ – ٢٠٠].

(١) في نسخ أخرى وردت: جز (جذّ) بالذال.

(٢) في نسخة ثانية وردت: وانتفوا (وانتسفوا) بالسين بدل التاء.

(٣) المقصود ان مسلمة بن عبد الملك، يقود الجيوش، كما قاد نبي الله نوح السفينة في أهله وأصحابه الى النجاة.

يَمِينَاكَ: يَدٌ تَسْقِي السِّمَامَ عَدُوَّنَا   وَأُخْرَى بِرَيَّاتِ السَّحَابِ تَفُوحُ(١)

وهكذا وفّى جرير ليزيد بن عبد الملك، ما وجب عليه أن يوفيه لبني أمية، وبقيت علاقته معه كشأنها مع آبائه الأمويين.

جرير وهشام بن عبد الملك:

وآخر خليفة اتصل به جرير هو هشام بن عبد الملك. وكان قد تجاوز السبعين من عمره، عندما بويع لهشام في اليوم الذي توفي فيه أخوه يزيد بن عبد الملك، وهو يوم الجمعة لخمس بقين من شوال سنة خمس ومائة للهجرة، الموافق (٧٢٤ م)(٢) ويقول المسعودي، صاحب مروج الذهب: وكان هشام أحْوَلَ خشناً فظاً غليظاً، يجمع الأموال، ويعمر الأرض، ويستجيد الخيل، وأقام الحَلْبَةَ فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس. وقد قوّى الثغور، واتخذ القنى والبرك بطريق مكة، وغير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود بن علي في صدر الدولة العباسية(٣) ورغم كبر سن جرير، والهرم والشيب الذي بلغه، فقد تجشّم المشاق الى زيارة هشام في الرّصافة، منافساً الفرزدق في مدحه، وقال مخاطباً الخليفة بقوله:

أَصْبَحَ حَبْلُ وَصْلِكُمُ رِمَامَا   وَمَا عَهْدٌ كَعَهْدِكِ يا أُمَامَا(٤)

---

(١) اعتبر لكل يد من يدي مسلمة وظيفة، فالأولى تفتك بالأعداء، والثانية تقوم بتقديم النوال والعطاء.

(٢) المسعودي: علي بن الحسين: مروج الذهب: ج ٣: ص: ٢٠٥.

(٣) المصدر نفسه: ج ٣: ص: ٢٠٥.

(٤) الرمام: البالي.

إذا سَفَـرَتْ فَـمَسْفَرِهَا جَمِيلٌ　　وَيُرْضِي العَيْنَ مَرْجِعُهَا اللِّثَامَا

نُرِي صَــدِيَّانَ مَشْرَعَةً سِقَــاءً　　فَـخَامَ وَلَيْسَ وَارِدُهَا وَحَامَا

أَمَنِّيتِ المُنَى، وَخَلَبْتِ، حَتَّى　　تَـرَكْتِ ضَمِيرَ قَلْبِي مُسْتَهَامَا

ونجد عنده نفس الصورة ونفس الصفات السّامية، في وصف بني أميّة حيث يقول:

إِلَى المَهْدِيِّ نَفْـزَعُ إِنْ فَزِعْـنَا　　وَنَسْتَسْقِي بِغُرَّتِهِ الغَمَامَا

وَمَا جَعَلَ الكَوَاكِبَ أَوْ سُهَيْـلاً　　كَضَوْءِ البَدْرِ يَجْتَابُ الظَّلامَا

وَحَبْلُ اللّهِ تَعْصِمُكُـمْ قُوَاهُ　　فَلا تَخْشَ لِعُرْوَتِهِ انْفِصَامَا

وَيَخْسَرُ مَنْ تَرَكْتَ فَلَمْ تُكَـلِّمْ　　وَيَغْـبِطُ مَنْ تُراجعه الكَلامَا

رَضِينَا بِالـخَلِيفَةِ حِينَ كُنَّـا　　لَـهُ تَبَعاً وَكَانَ لَنَا إِمَـامَا

تَبَاشَرَتِ البِلادُ لَكُمْ بِحُكْـمٍ　　أَقَـامَ لَنَا الفَرَائِضَ وَاسْتَقَامَا

ولم يترك جرير شيئاً إلاّ وقاله في هشام. فذكر الأنهر التي شقها الخليفة من الفرات بإزاء الرقّة، واصفاً بساتين الزيتون والكروم والنخل والفاكهة، وسائر المزروعات[1] ويذكر «الرُّصافة» مكان إقامة الخليفة الذي يجمع المكارم والتقى فيقول:

إنَّ (الرُّصافة) مَنْزِلٌ لِخَلِيْفَةٍ　　جَمَعَ المَكَارِمَ والعزائِمَ والتُّقَى[2]

(١) البستاني: فؤاد أفرام: الروائع رقم: ٣٩ ص: ٣٤١.

(٢) الرصافة: مدينة هشام بن عبد الملك التي عمر أسوارها.

مَا كَانَ جُرْبَ عَنْدَ مَدّ حِبَالِكُمْ   ضَعْفُ المُتُونِ وَلا انفِصَامٌ في العُرَى(١)

مَا إن تَـرَكْتَ مِنَ البِلادِ مَضِلَّةً   إلاَّ رَفَعْتَ بِهَا مَنَاراً لِلْهُدَى(٢)

أُعْطِيْتَ عَافِيَةً وَنَصْراً عَاجِلاً   آمِينَ ثُمَّ وُقِيْتَ أَسْبَابَ الرَّدَى(٣)

ويبقى على هذا الوصف المجلّ لمقام الخليفة، والرافع لقدر بين الناس والأمم، حتّى يصل إلى المحطة المتوجب عليه فيها، أن يذكر بني أمية وما اعتاد ان يقول فيهم، فيقول:

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِيْ أَعْطَاكُمُ   حُسْنَ الصَّنَائِعِ والدَّسَائِعِ وَالعُلَى(٤)

يَا ابْنَ الخَضَارِمِ لا يَغِيبُ جُبَاكُمُ   صِغْرُ الحِيَاضِ وَلا غَوَائِلُ في الجَبَا(٥)

يَا ابْنَ الحُمَاةِ فَمَا يُرَامُ حِمَاكُمُ   والسَّابِقِيْنَ بِكُلِّ حَمْدٍ يُشْتَرَى(٦)

مَا زِلْتَ مُعْتَصِماً بِحَبْلٍ مِنْكُمُ   مَنْ حَلَّ نَجْوَتَكُمْ بِأَسْبَابٍ نَجَا(٧)

وَإذَا ذَكَرْتُكُمُ شَدَدْتُمْ قُوَّتِي   وَإذَا نَزَلْتُ بِغَيْثِكُمْ كانَ الحَيَا(٨)

ورغم العزيمة التي كان يتمتع بها جرير في شعره، إلاَّ أنَّ الشاعر عجز، في الموسم التالي عن قصد الخليفة، فأرسل إليه ابنه عكرمة،

---

(١) المتون: أواسط الجبال. الانفصام: الانقطاع والتفكك. العرى: الروابط الوثيقة.

(٢) مضلة: أرض لا يهتدي بها أصحاب السفر.

(٣) وُقيت: حُميت، الرّدى: الموت.

(٤) الدسائع: مفردها دسيعة، وهي الأعطية الجزيلة.

(٥) الخضارم: الكرام نسباً وكرماً. الجبا: المياه الموجودة في الحياض. الحياض: أماكن تجمع المياه. غوائل: شقوق تتسرب منها المياه داخل الحياض.

(٦) يرام: يستطاع الوصول إليه.

(٧) النجوة: الأرض المرتفعة.

(٨) الغيث: العشب، ومنها رعت الماشية الغيث، والمقصود هنا الحيا.

بقصيدة كانت آخر شعره، وبها يسمّي هشاماً المهدي، ويطلب منه الصفح لعدم تمكنه من المثول بين يديه لضعف الشيخوخة والهرم الذي يعجزه عن ركوب المطايا، واضطراره الى السير على العصا.

وما دام قد تطرّق الى مدح بني أمية تكريماً لممدوحه هشام، فكان لا بد من ذكر مَنْ ينتمون الى الخليفة في حياته. خاصةً، معاوية ابن هشام الذي قال فيه:

إلى مُعَاوِيَةَ المَنْصُورِ إنَّ لَهُ   دِيناً وَثِيقاً، وقَلْباً غَيْرَ حَيَّاد
مِنْ آلِ مَرْوانَ مَا ارْتَدَّتْ بَصَائِرُهُمْ   مِنْ خَوْفِ قَوْمٍ وَلا صَمُّوا بِالْحادِ

ويمضي على هذه السيرة في المديح، حتى يصل الى الغرض الذي يرجوه في كل قصيدةٍ يرفعها الى ممدوحه، الا وهو العطاء الذي يقول فيه:

سِيرُوا فَإِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لَكُمْ   غَيْثٌ مُغِيثٌ بِبِيتٍ غَيْرِ مِجْحَادِ(١)
مَا ذَا تَرَىٰ فِي عِيَالٍ قَدْ بَرِمْتُ بِهِمْ   لَمْ تُحْصِ عِدَّتُهُمْ إلاَّ بِعَدَّادِ
كَانُوا ثَمَانِينَ أَوْ زَادُوا ثَمَانِيَةً   لَوْلا رَجَاؤُكَ قَدْ قَتَّلْتُ أَوْلادِي

ويخاطبه في قصيدةٍ أُخرى فيقول له:

يا ابنَ الخَلِيْفَةِ، يَا مُعَاوِيَ إِنَّنِي   أَرْجُوْ فُضُوْلَكَ فاتَّخِذْ عِنْدِي يَدَا
إنا لَنَأْمُلُ مِنْكَ سَيْباً عَاجِلاً   يَا ابنَ الخَلِيْفةِ ثُمَّ نَرْجُوْكُمْ غَدَا
آبَاؤُكَ المُتَخَيِّرُوْن أُوْلُوْ النُّهَى   يَا ابنَ الخَضَارِمِ يَنْزِعُوْنَ المِرْفَدَا(٢)

---

(١) المجحاد: القليل العطاء.
(٢) الخضارم: الأسياد الكرام، ينزعون: يملأون، المرفد: الوعاء الضخم.

وَجَدُوا مُعَاوِيَةَ المُبَارَكَ عَزْمُهُ صُلْبَ القَنَاةِ عَنِ المَحَارِمْ مِذْوَدَا

وإلى جانب مدحه لمعاوية، فإنه مدح أبا شاكر مسلمة بن هشام في قصيدة يقول فيها:

وَوَجَدتُ مَسْلَمَةَ الكريمِ نِجَارُهُ مِثْلَ الهِلالِ أغَرَّ غَيْرَ بَهِيمِ

أَنْتَ المُؤَمَّلُ والمُرَجَّىْ فَضْلُهُ يَا ابْنَ الخَلِيْفَةِ،وابْنَ أُمِّ حَكِيْمِ

لَلْبَدْرُ وَابْنُ غَمَامَةٍ رِبْعِيَّةٍ أَصْبَحْتَ أكْرَمَ ظَاعِنٍ وَمُقِيْمِ

وَبَنَاتُ عِيصِكُمُ لَهُ طِيْبُ الثَّرَىْ وَقَدِيْمُ عِيْصِكَ كَانَ خَيْرَ قَدِيْمِ

والى جانب هذا، مدح والي هشام على اليمامة والبحرين، المهاجر الكلابي ثم واليه على العراق خالد القسري. وهكذا كان في اتصاله بآخر أرباب السلطان الذين حرص على حسن علاقته بهم.

جرير والشعراء:

تمرّس جرير بعددٍ من الشعراء، فكان يهاجي شعراء قومه وغيرهم من الشعراء. وممّا قاله الأصمعي عن جرير والشعراء: «كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره، ويرمي بهم واحداً واحداً... وثبت له الفرزدق والأخطل»[1]. أمّا الثلاثة والأربعون، فقد ذكر منهم جرير، في حديثه للحجاج، عشرين فقط، وهم: غسّان بن ذهيل السُّليطي، والبعيث المجاشعي، خدّاني بن بشر (... - ١٣٤ هـ/... - ٧٥١ م/) وكلاهما من قومه. ثم الفرزدق،

---

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: ج ٧ ص: ٨.

والأخطل، وعمر بن لجأ التّيمي، وسراقة بن مرداس البارقي (... - ٧٩ هـ/ ... - ٦٩٨ م) والمستنير بن سَبْرة العنبري المعروف بالبلتغ، وعبيد ابن حُصين (... - ٩٠هـ/ ... - ٧٠٩ م) المعروف براعي الإبل. وعباس بن يزيد الكندي، وجفنة الهزّاني، والمرّار بن منقذ، وحكيم ابن مَعيَّة، وثور بن الأشهب بن رميلة النهشلي والدُّلميّ، وقبضة الكلب، وهبيرة بن الصَّلْت، والثلاثة الآخيرون هم من بني ربيعة بن مالك، وعلقة والسُّرندي من بني الرّباب، وعقبه بن السفيع الطهويّ، وسحمة الأعور النبهاني[١] وقد كان بدء هجائه مع الفرزدق سنة (٦٦ هـ/ ٦٨٥ م) بسبب حادث وقع بين البعيث والمجاشعي، وقد غذّى هذا الحادث، بعض أفراد القبائل المتعادية، وزعماء الأحزاب وبعض الولاة والمتأدبين، حتّى أنَّ سُراقة بن مرداس دفع الى هجو جرير في سبيل ان يرد عليه. وعلى طريقة بشر، سار الحجاج أحيانا في اذكاء نار التحريش بين الفرزدق وجرير، حتّى أمرهما يوماً بأن يدخل عليه بلباس آبائهما في الجاهلية، فكان ذلك سبباً لدفعة جديدة من الهجاء[٢] وهذان الشاعران المتهاجيان، رغم تنافرهما، كانا يأنفان أن يدخل بينهما من ليس كفوًا. ومن أمثلة ذلك، أنه لما احتدم الهجاء بين جرير وعمر بن لجأ التيمي لقي الفرزدق عمر بن عطية أخا جرير فقال له: ويلك! قل لأخيك: «ثكلتك أمّك! إيْتِ التيميّ من علُ كما أصنع أنا بِكَ» وكالفرزدق قد أنف لجرير ان يتعلق به التيمي[٣] ومن الشعراء الذين عرَّض بهم مهدّداً، ولم يهجهم صراحةً، الأحوص وذو الرمة، وعديّ بن الرقاع

---

(١) المصدر نفسه: ج ٧ ص: ٤٢ - ٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ج ٧ ص: ١٧ - ٢١.
(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص:٧١.

العاملي، الذي لم يتحرج عن التهجم عليه في حضرة الوليد[1] وكان عقلاء تميم يتألمون لهذه المخازي ينشرها كبيرا شعرائهم، حتى إذا فاتهما شيء منها، تولى نشره شعراء القبائل المعادية. وكثيراً ما رددوا «والله ما شعراؤنا إلاّ بلاء علينا ينشرون مساوينا ويهجون أحياءنا وأمواتنا»[2] وهكذا كان رأي أبي عبيدة، إذا سُئل عن الفرزدق وجرير، فقال: «وهما بئس الشيخان! ما خلق الله أشأم منهما على قومهما. إنهما أخرجا مثالب بني تميم وعيوبهم، وكانا أعلم الناس بعيوب الناس»[3] ولعلّ في هذا كله ما يلفتنا الى أن اتصال جرير بسائر الشعراء، لم يغفل الصوت الذي يرتفع في مديح خلفاء بني أميّة، بل في مديح كل من له صلة بهم، كما أنه ضمن قصائده، معاني إسلامية جديدة لم ترد على لسان من سبقه من الشعراء. ورغم الضجيج الذي أحدثته قصائده في هجائه، فقد بقي لجرير أصالة الشعر التي جمعته مع كبار شعراء عصره.

---

(١) البستاني: فؤاد أفرام، الروائع رقم ٣٩ ص: ٣٤٣.
(٢) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين: ج ٧ ص: ٧١.
(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص: ٧٢.

الفصل الرابع

اغراضه الشعرية

- المدح
- الهجاء
- الرثاء
- الغزل
- الفخر
- الخصائص العامة

أغراضه الشعرية

لقد اتضح لنا من خلال ما قدمناه كيف أنّ جريراً كان يولّد المعاني والصور في اغراضه التي تصله بالخلفاء والامراء والوجهاء والولاة. وانّ من الممكن على هذا القياس ان نصل الى أغراضه التي سنعرضها في بابها المعد لها حيث يجمع كل ما جاء داخل فكره المبدع، ضمن عقليته النيّرة القادرة على توليد المعاني، وتوسيع طاقتها. وفي محاولتنا لاستعراض فنونه الشعرية ستجده على مستوىً من الرقي العقلي الذي أحرزه، على ضوء ما كان يسمعه، من المتناظرين والمتكلمين في مسائل الإيمان، وخلق الكون وحسن الجمال الذي سوى به الله الإنسان، والقضاء والقدر.... الخ وما رآه عند الشعراء من تثقيف الافكار وتوليدها وسبر أغوارها فذهب يطبق ذلك على اغراضه وينقلها لنا ضمن مناظرات بينه وبين شعراء عصره في قيس وتميم وكليب ودارم وتغلب وغيرها من القبائل، ويخضعها لكل الثروة العقلية التي لقفها من العلماء، وفي اثناء بحثهم ومحاوراتهم، ومداولاتهم، كما يخضعها لكل الظروف السياسية والاجتماعية التي ألمت بعصره. ولا نستطيع ان نستعرض اغراض الشعر، دون ان نذكر معه رفيقيه في المثلث الاموي الاخطل والفرزدق. وفي نضرةٍ سريعة

لاستعراض هذه الاغراض، قبل البدء بتحليلها، تبدو لنا المنزلة الرفيعة التي كان ينزلها الفرزدق وجرير في أذهان الناس خاصتهم وعامتهم لهذا العصر فقد كان الخلفاء والولاة يجلّونهما، وكذلك كان الناس من حولهما، لهذا التفوق الفني الذي رأوه فيهما. إذ نهضا بفن الهجاء ذلك النهوض الكبير، واستطاعا ان يحققا له استقلالاً واكتمالاً لم يحققه شاعر من قبلهما ولا من بعدهما، فركبا قصائده ذلك التركيب الذي نطالعه في النقائض، حيث استخرجا فيه كثيراً من الافكار والمعاني، فتنوعت صور الهجاء وطرائقه تنوعاً شديداً. وكان كل من يحاول الوقوف معهما في هذا الميدان، يسقط الى الابد ولم يثبت معهما فيه سوى الاخطل، ولذلك كان يعده النقاد ثالث الثلاثة الممتازين في العراق، بل في العالم العربي كلّه، حينئذٍ[1].

وإذا اخذنا نقارن بين الاخطل وجرير في نقائضهما لنرى أيهما يتفوق على صاحبه، وجدناهما يتهاجيان، بعناصر قديمة من الايام والامجاد الجاهلية، وعناصر جديدة يستمدانها من العصر والسياسة. والأخطل من هذه الناحية، لا يتصل بالعناصر الاسلامية مباشرةً ولكنها تتسرب اليه، فهو حين يمدح عبد الملك مثلاً لا يفكر في مدحه بالتقوى وقراءة القرآن الكريم على نحو ما يصنع جرير، وهو لا يمدُّ أطناب المسألة الى نزعة اموية تقابل النزعة الشيعية، على النحو ما عند جرير. ومع هذا تتسرب اليه بعض العناصر، فيصف عبد الملك بأنه خليفة الله. او يصفه بأنه إمام المسلمين ونحو ذلك. والعقل الدائب الذي شاهدناه عند جرير في توليد المعاني وتجديدها، نجده عند الاخطل، وان كنا نلاحظ أنّ عقل جرير كان أكثر توليداً.

---

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الاموي ص: ٢٠٢.

وكان جرير يتصدر للأخطل من جانب آخر يحاول ان يشد على خناقه منه، وهو جانب مسيحيته، وقد لعب هذا الجانب دوراً بعيداً في نقائض جرير مع الاخطل وكان هو نفسه يعترف به. فالرواة يحدثون عنه انه قال: أرعنت على الاخطل، بكفره[1] وكان معاصروه يشعرون بذلك. فقد روى الرواة عن عمر بن عبد العزيز انه قال: «ان الاخطل ضيّق عليه كفره القول. وإن جريراً وسع عليه اسلامه قوله»[2] واذا رجعنا الى جرير والفرزدق في ديوانيهما، لنوازن بين شاعريتيهما، نجد جريراً في ديوانه اشعر من صاحبه. وكأن جريراً كان يسقط او يضعف امام الفرزدق في المناظرات لعوامل نفسية طارئة، فإذا فصل عن هذه العوامل واصبح حراً استعاد كل مقدرته، واصبح اشعر من صاحبه[3] وقد حاول النقاد أن يحكموا بينهما ووسعوا الحكم الى الاخطل، فذهبوا الى أن الفرزدق يتفوق في الفخر بينما يتفوق الاخطل في المدح ونعت الخمر، أمّا جرير فاعطوه السبق في الهجاء والغزل والرثاء[4] وقد تقدم الاخطل صاحبيه في نعت الخمر لا لانهما اجريا معه فيه، وسبقهما ولكن لأنه انفرد به. أمّا المقارنة في المديح، فينبغي ان تكون بين الاخطل وجرير، واذا ذهبنا نقارن بينهما، وجدنا الأخطل ينوّع في مديحه، ولكن تنويعه ينصب في اكثره على الافادة من العناصر القديمة، فهو يمدح بالخصال

---

(١) الأصبهاني: ابو الفرج: علي بن الحسين. الاغاني (طبع دار الكتب) ج ٨، ص: ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه ج: ٨، ص: ٣٠٦.

(٣) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الاموي: ص:٢٠٦.

(٤) الأصبهاني: ابو الفرج: علي بن الحسين. الاغاني (طبع دار الكتب) ج ٨، ص: ٣٨.

المعروفة عن العرب من كرم وشجاعة ووفاء ومروءة وحلم وصبر على المكروه، ويقف في اكثر مديحه عند ذلك امًّا جرير، فإنه يفيد في مديحه من العناصر الاسلامية الجديدة فيخلع على الخلفاء والولاة صفات دينية كثيرة من اقامة العدل بين الناس، ومن عصيان داعي الهوى والاهتداء بالكتاب والسنة واقامة الفرائض والحدود. وقد تحول الجزء الاكبر من مديحه في الخلفاء الى دفاع حار عن دعوة الامويين وتفضيل حزبهم على الحزب الشيعي وغيره من الاحزاب، وذهب يسبغ عليهم، كل ما يسبغه الشيعة على ائمتهم من خصال وصفات. فإذا نظرنا الى معاني المدح وصلتها بالدين الاسلامي الجديد، قدمنا جريراً على الاخطل، واذا نظرنا الى الصياغة وجزالتها ومحاولة استنفاد المعاني والصور القديمة والتوليد فيها، قدمنا الاخطل على جرير، كما حكم بذلك النقاد[1] وكان الفرزدق يمتقع لون وجهه حين يقول له قائل: انَّ جريراً انشد اليوم في المربد قصيدة[2] وشأن جرير في الغزل، شأنه في الهجاء، كان يسبق صاحبيه سبقاً لا يدع مجالاً للشك والريب. فقد شهد به معاصروه، وشهد به نقاد العصور التالية. ويلاحظ ذلك في وضوح من يرجع الى ديوانه وديوان صاحبيه. وربما كان تخلف الاخطل في الغزل، راجعاً الى انه كان متكلفاً في شعره يسعى به الى الصورة التي نعهدها عند شعراء الجاهلية من امثال زهير والنابغة. ومن اهم ما يحتاج اليه الغزل ان يكون طبيعياً صادراً عن شعور حقيقي، لا عن تكلف وافتعال، وهذا ما نلمسه عند جرير. والفرزدق – أيضاً – لم ينجح في هذا الفن،

---

(١) ضيف. شوقي: التطور والتجديد في الشعر الاموي: ص:٢٠٩

(٢) ابن سلاّم الجُمحي: محمد. طبقات الشعراء. تقديم الاستاذ عبد الحميد فايد بيروت. ص: ٨٦.

لأن نفسه كانت غليظة، ولم تكن رقيقة. فقد كانت خشنة جافة، لم تطبع على شيء من اللين، انما طبعت على القسوة والتمرد وعدم الخضوع والاستكانة[1] ولذلك فقد تقدم جرير اذ كانت نفسه ليّنة حقاً، صافية حقاً، وقد جاءه ذلك من أنه كان متديناً، يذوب في الاسلام فصفّى الاسلام جوهر نفسه. وأعده لينبغ في هذا الفن، ويتفوّق على زميله الذي كان يرتبط بالعادات والطباع الجاهلية. واتفق مع ذلك ان جريراً كان من اسرة فقيرة، بينما كان الفرزدق من اسرة شريفة، فكان ذلك سبباً لأن يشعر جرير في اعماقه بشيء من الحزن. فليس ما يبتهج به في الآباء، وانما له ما يؤذيه، وما يشعر معه بالقصور والحزن. وكل ذلك هيأ جريراً لأن يتقدّم صاحبه في هذا الفن الرقيق من فنون شعره، واستمع الى قوله في بعض غزله[2]:

إنَّ الذين غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا وَشَلاً بعينك مَا يَزَالُ معينا

غَيَّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وَقُلْن لِي مَاذا لَقِيتَ مِنَ الهَوَىٰ ولَقِينَا

ويتبين لنا بوضوح ما تضمنه البيان من بكاء ودموع، وهما يصدران من نفس يشوبها غير قليل من الحزن. والغزل لا يقف بجرير الى هذا اللون الرقيق، فحسب، بل يتعدّاه الى شفافية عميقة الرقّة حين يقول[3]:

إنَّ العُيُونَ الَّتي فِيْ طَرْفِهَا حوَرٌ

قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِيْنَ قَتْلانَا

---

(١) ضيف: شوقي التطور والتجديد في الشعر الاموي: ص:٢١٠.
(٢) الأصبهاني: ابو الفرج: علي بن الحسين: الاغاني: ج ٨، ص: ٥٩.
(٣) المصدر نفسه: ج٨ ص: ٣٩.

يَصْرَعْـنَ ذَا اللُّبُّ حَتَّى لا حِراكَ بِهِ
وَهُـنَّ أَضْعَـفُ خَلْقِ اللهِ ارْكانا
اتْبَعْتُهُمْ مُقْلَـــةً إِنْسَـانُها غَـرِقٌ
هَـــلْ مَا تَـرَى تَارِكٌ للعَيْنِ إِنْسَاناً

وتلمع صفاء المعاني في وجدانيته المتلوّنة بعاطفته الجياشة المجبولة بمسحةٍ من حزن، يبدو – دائماً – من خلالها شاكياً في غزله، متمادياً في الرقة من فرط حساسية مشاعره. وما دمنا نبحث عن مكانه الصحيح، في سير أغراضه، وفنونه الشعرية، فلا بد لنا من ذكر فن الرّثاء الذي احرز من خلاله تفوقاً ظاهراً على صاحبيه، سببه وفرة الشعور في معانيه، وصدق الاحساس في معطياته الفكرية، واذا اضفنا الى ذلك نفسه المحزونة، كان ذلك عاملاً آخر في احسانه والبراعة فيه(١) وقد سبق وقلنا ان التكلف كان يطغى على شعر الاخطل، ولا يصدر فيه عن طبع ولا ما يشبه الطبع، وأن الفرزدق كان فيه خشونة، وميل الى الصلابة كونه غليظاً جافياً، فيبقى لنا إذاً، رقة جرير وشفافية عاطفته المتأتية من بؤس اسرته التي طبعت نفسه بطابع مغرقٍ في الحزن يقول فيه عند رثاء زوجه أم حَزْرة:

لَوْلا الحَيَـاءُ لَعَادَنِي اسْتِعْبَارُ   وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ والحبِيْبُ يُزَارُ
وَلَّهتِ قَلْبِي إذ عَلَتْنِي كَبْـرَةٌ   وَذوُو التَّمَائِمِ مِنْ بَنِيْكِ صِغَارُ
وَلَقَدْ أراكِ كُسِيْتِ أَجْمَل مَنْظَـرٍ   ومَعَ الجَمَالِ سكينةٌ وَوَقَارُ
صَلَّى المَلائِكَةُ الَّذِيْـنَ تُـخُيِّروا   والصالحُونَ عَلَيْكِ وَالابـرَارُ

---

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الاموي: ص: ٢١٣.

لا يَلْبَثُ القُرَنَاءُ أنْ يَتَفَرَّقُوا   لَيْلٌ يكرُّ عَلَيْهِمُ وَنَهَارُ

ونحن نلمس في كل لفظة من لفظات هذا الرثاء، شدة الحزن والأسى التي تفيض من تعابيره الملتاعة لفقد زوجه التي كان بالامس يتغزل فيها غزلاً عذباً، وإذا به اليوم يفقدها فتهيج اشجانه بهذا الرثاء المكبوت الحار ؟ ولا يعزز صورة الرثاء المتفوق على كل من عداه الا حين نلحظ شعره في رثاء ابنه سوادة الذي يقول فيه:

قَالُوا نَصِيْبَكَ مِنْ أجْرٍ فَقُلْتُ لَهُمْ   كَيْفَ العَزَاءُ وَقَدْ فَارَقْتُ أشْبَالي

ودَّعْتَني حِيْنَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِيْ   وَحِيْنَ صِرْتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ البَالي

ونلمح في كل لفظة من لفظات هذين البيتين، نفسه المتساقطة على فلذة كبدهِ وسويداء فُؤادِهِ فَهوَ ينوحُ عليهِ نواحاً لا ينقطعُ ويُعزيهِ النّاس، ويذكرونه ثواب الصبر فلا يزيدهُ ذلك إلاّ نواحاً وحزناً(١) ويختلف الأمرَ تماماً عند الفرزدق الذي لم تكن نفسه مفطورة على الحزن الذي طبع به شعرَ جرير، ومما يروى عنه أنّهُ حين توفيت زوجه النّوار لم يجد النّاحة شعراً له ينوحون به عليها، فناحوا بشعر جرير السابق في رثاء زوجه(٢) وهكذا، فإنّ شعر جرير كان أكثر سيرورة وانتشاراً من شعرِ صاحبيه، وكان أقرب إلى نفوس معاصريه. إذ اندمجَ بأغراضِهِ كلّها في الحياة الجديدة. وكان طبيعياً أن تصبح أساليبه اكثر ذيوعاً، وأكثر إلفةً للناس.

المدح:

كان جرير في مديحه شأن شعراء عصره، يتخذه وسيلةً إلى

---

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص: ٢١٣.

(٢) المرزباني: محمد بن عمران بن سوس: ابو عبدالله (٢٩٧ - ٣٨٤ هـ / ٩١٠ - ٩٩٤ م). الموشح .ط.دار النهضة. مصر. القاهرة ص: ١١٦.

التكسُّب. وحين نذكر التكسُّب، لا نستطيع أن نجزم بوجود إخلاص ووفاء ووجدانية، رغم ما عرف عن جرير من عاطفة فياضة بالرِّقة، وشدَّة التأثر. ولَّما كان الأمويونَ أوَّلَ مَنْ تسلَّم الحكم، بعد الخلفاء الراشدين. ولَّما كان المالُ متوفراً لديهم، وهو كثيرٌ بين أيديهم، فقد مال نحوهم متكسِّباً. وأول مَنْ وَفَدَ عليه، هوَ، يزيد بن معاوية، وكان خليفة، وجرير حدثٌ فانشدَهُ:

إنّي لعفُّ الفَقْرِ مشترَكُ الغِنى   سريعٌ إذا لم أرضَ داري أنتقاليا

وقد شكَّ يزيد في أن يكون البيت لقائله، وكان لم يتعرَّف على جرير بعد، فقال: كذبتَ، ذاك جرير. فانتفض جرير هلعاً وقال: أنا جرير. والله فارق أمير المؤمنين معاوية الدنيا وهو يرى أن هذا البيت لي[1] وقد غالى جرير في مدح بني أميَّة أملاً في كسب ودِّهم ورضاهم، والوصول إلى جزيل نوالهم. وبعد ان انتصر الخليفة عبد الملك بن مروان، على اتباع ابن الزبير، ووطَّدَ الحجَّاج الأمْنَ في العراق. أخذ جرير يتزلَّف إلى الأمويين، فمدح الحجَّاج أولاً في قصيدةٍ قال فيها مبتدئاً بالغزلِ التقليدي الذي يقول فيه:

هـاجَ الهوىْ لِفـؤادِكَ المُهتـاجِ   فَانظرْ بتوضحَ باكرُ الأحْداجِ[2]

هذا هوى شغَـفَ الفُـؤادَ مبرِّحٌ   ونَوىً تقاذفُ غيرُ ذاتِ خِلاجِ[3]

إنَّ الغرابَ بمـا كرِهْتَ لَموْلَـعٌ   بنوَى الأحبَّة دائمُ التَّشْحاجِ[4]

---

(١) أبو سلاّم الجمحي: أبو عبد الله، محمد: طبقات الشعراء: ص: ١٣٢.

(٢) توضح: موضع بلاد بني يربوع. باكرُ الأحداج: فاعل هاج.

(٣) سعفَ وسَغَفَ: بلغ غلاف القلب. الخلاج: الشك.

(٤) التَّشحاج: صوت الغراب.

كَيْتَ الغُرابَ غَداةَ يَنْــعَبُ بالنَّوى　　　كان الغُرابُ مقطِّع الأوداجِ[1]

ولقدْ عَلِمْتَ بأنَّ سِــرَّكَ عندنــا،　　　بَيْنَ الجَوانِح، مُوثَقُ الأشْراجِ[2]

ولقدْ رَمَيْتَكَ، حين رُحْتَ بأَعْـيُنٍ　　　يَنْظُرْنَ من خَلَلِ الستورِ سَواجِي[3]

وَ بمنطقٍ شَغَفَ الفُــؤادَ كأنَّـهُ　　　عَسَلٌ يَجُدْنَ بـهِ بِغيْرِ مِزاجِ!

قُلْ للجبانِ، وإذ تأخَّــرَ سِرْجُهُ:　　　هَلْ أنتَ مِنْ شركِ المنيَّةِ ناجي؟[4]

ثم انتقل من هذا البيت الأخير إلى مدح الحجاج بالصولة والغيرة على النساء، ومنع الرشوة، والانتصار على المشاغبين، ثم يتابع قائلاً:

فتعلَّـقَـنْ ببنــاتِ نَعشٍ هــارِباً　　　أو بــالبُحورِ وَشدَّةِ الأمواجِ!

مَنْ سَدَّ مُطَّلِعَ النِّفاقِ عَلَيْكُمُ؟　　　أَمْ مَنْ يَصولُ كصولَةِ الحَجَّاجِ

أَمْ مَنْ يَغارُ على النِّساءِ حفيظـةً　　　إذْ لا يَثِقْنَ بِغَيْرَةِ الأزواجِ[5]

إنَّ ابنَ يُوسُفَ ـ فاعْلموا وتيقَّنوا ـ　　　ماضي البصيرةِ واضحُ المِنهاجِ[6]

ماضٍ على الغمـرات، يُمضي هَمَّـهُ،　　　و الليْـلُ مُختَلِفُ الطرائفِ،داجي

مَنَعَ الرُّشا، واراكُمُ سُبُلَ الهُدىٰ　　　والـلِّص نـكَّلهُ عن الإدلاجِ[7]

---

(١) الأوداج: جمع الوَدَج: عرق الأخدع في العنف.

(٢) الأشراج: جمع الشروج: العُروة: الرَّوابط والعرى.

(٣) سواجي: جمع ساجية: فاترة.

(٤) تأخر سرجه: إشارة إلى أنَّ الخوف أعجله عن شدِّ حزامه.

(٥) الحفيظة: اسم من المحافظة والحفاظ للذب عن المحارم والمنع لها. والحفيظة: الغضب والحميَّة في الشيء الذي ينبغي ان يحفظ.

(٦) المنهاج: السبيل.

(٧) نكَّله: أصابه بتأديب يحذّر غيره. الإدلاج مصدر أدلج: سار في الليل، اراد–

فاسْتوسقوا و تبيَّنوا سُبُلَ الهُدى وَدَعوا النَّجيَّ فَلَيْسَ حِيْنَ تَناجي(١)

يـا رُبَّ نَاكـثٍ بَيْعَتَيْنِ تَرَكْتَـهُ، وخضـابُ لِحْيَتِهِ دَمُ الأوْداجِ!(٢)

إنَّ العَدُوَّ، إذا رَموكَ رَمَيْتَهُم بذُرى عمايَةَ أوْ بِهَضْبِ سواجِ(٣)

و إذا رأيتَ منافقينَ تَخيَّروا سُبُلَ الضَّجاجِ أقَمْتَ كُلَّ ضجاجِ(٤)

داوَيْتَهُم وَشَفَيْتَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ غَبْراءَ ذاتِ دواخِنٍ و إجـاجِ(٥)

إنّي لمـرتَقَبٌ لِمـا خَـوَّفْتَنـي

وَلفضـْل سَيْبِكَ يا ابنَ يوْسُفَ راجي(٦)

وَ لَـقَـد كسرْتَ سِنانَ كُلِّ منافقٍ

وَلَـقَدْ منَعْتَ حقائبَ الحُجّاجِ(٧)

وبعد هذه المديحة التي وصلت أصداؤها إلى أذني عبد الملك بن مروان، والتي غبط الحجاج بجمال الصفات التي أعذقها عليه، كان لا بد لعبد الملك من أن يرضي سيده الخليفة، ويشبع كبرياء بإرسال جرير إليه. وهكذا كان، فقد انتظر حلول أحد المواسم، وبعث بجرير

= به السَّعي ليلاً للسرقة.

(١) استوسقوا: استقيموا. النجيُّ: يُراد به التآمر بالسرّ.

(٢) بيعتين: يقصد بهما: بيعة الخليفة، وبيعة الحجاج.

(٣) عماية وسواج: جبلان.

(٤) الضجاج: الشَّغب، الجَلبة، وتأتي بمعنى: باطل.

(٥) الدّواخن: من الدَّخَن: الفساد. الاجاج: جمع الأجَّة: شدة.

(٦) سيبك: عطاؤك.

(٧) حقائب الحجاج: يقصد أن الحجاج منع اللصوص من سرقة الحجاج.

إلى الخليفة. فرجا الشاعر عبد الملك أن يأذن له بالإنشاد. فتفضل الخليفة وأذن له. فمدحه جرير بقصيدة يبدأها بالتشكي من الشيب وذكر السفر حيث يقول:

أَتَصْحو! بَلْ فُؤادُكَ غَيرُ صاحٍ، عشيَّةَ هَمَّ صَحبُكَ بالرَّواحِ![1]

يقولُ العاذِلاتُ: عَلاكَ شَيْبٌ أهذا الشَّيبُ يمنعنيْ مِراحي؟

يُكَلِّفُني فُؤادِي، مِنْ هَوَاهُ، ظَعائنَ يَجتَزِعْنَ على رُماحِ[2]

ظعائن لَمْ يَدِنَّ مع النصارى وَلا يَدْرِيْنَ ما سمكُ القراحِ[3]

فبَعْضُ الماءِ ماءُ رَبابِ مُزْنٍ؛ وبَعضُ الماءِ مِنْ سَبَخٍ مِلاحِ[4]

سَيَكفيكَ العواذلَ أَرْحَبِيٌّ هِجانُ اللَّون كالفردِ اللياحِ[5]

يَعُزُّ على الطَّرِيْقِ بِمَنْكِبَيْهِ كما ابتَرَكَ الخليْعُ على القِداحِ[6]

---

(١) كان عبد الملك واجداً على جرير. فلما سمعه ينشد «أتصحوا بل فؤادك غير صاح» قال: «بل فؤادك، يا ابن الفاعلة...» وظلَّ غاضباً حتى وصل الشاعر إلى قوله: «والستم خير من ركب المطايا» فسري عن عبد الملك.

(٢) الظعائن: جمع الظعينة: الهودج، ما دامت المرأة فيه. يجتزعن: يقطعن. رُماح: اسم موضع.

(٣) القراح: قرية بين النهرين. يقول: انهن بدويات بعيدات عن مساكن التغلبيين النصارى وفي البيت تعريض بالأخطل.

(٤) الرباب: السحاب الأبيض. واحدتُهُ ربابة. السبخة: ارض ذات نزٍّ وملح. ملاح: جمع ملح: صفة المالح. يقال: ماء ملح: أي ليس بعذب. يعني: فضل البدويّات على الحضريات كفضل ماء المزن على الماء المالح.

(٥) أرحبي نسبة إلى الرحب: اسم فحل. الهجان: الابيض. الفرد: المتفرد. اللياح: الأبيض من كل شيء الثور الأبيض الوحشي.

(٦) الخليع: الملازم للقمار. القداح: جمع القدح: سهم الميسر.

تـعَــزَتْ أمُّ حــزْرَةَ ثم قـالتْ   رَأَيْتُ الواردينَ ذوِيْ امْتِياحِ[1]

و إبتداءً من البيت الأخير، يبدأ بالإشارة إلى فقره يذكر أم حرزة وهي تشير إلى عطاء الخليفة. كما يذكر حاجته إلى كرم الخليفة حيث يقول:

تُعَلِّــلُ وَهيَ ساغبــةٌ، بَنيْـها   بأنفاسٍ من الشُّبمِ القَــراحِ[2]
سأمْتــاحُ الْبحُورَ فَجَنِّبينــيْ   أذاةَ اللّوم، وانتظري امتياحي[3]
ثِقِي بـالله، ليسَ لـهُ شريـكٌ   ومِنْ عِندِ الخليفة، بالنجاحِ
أغثني، يـا فـداكَ أبي وأمـيْ   بِسببِ منكَ، إنَّك ذُو ارْتيـاحِ
فإنّــي قـدْ رَأيْـتُ عليَّ حقّـاً   زيـارتيَ الخليفـةَ، وامْتداحيْ
سأشكُــرُ أنْ رددْتَ عـليَّ ريشي   وَأنْبتُّ القـوادِمَ فيْ جناحي[4]

وهنا ينتهي توسله إلى الخليفة كيما يمنُّ عليه بالعطاء،ثم يبدأ بمدح الخليفة، ونعته ونعت الأمويين بالكرم والبطش حيث يقول:

ألَستُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايـا   وَأنْدَى العالمين بُطُونَ راحِ[5]
وَقَوْم قدْ سَمَوْتَ لَهُم، فـدانـوا   بدُهــمٍ في مُلَمْلَمَةٍ رَداحِ[6]

---

(١) أم حرزة: امرأة جرير. إمتتح الرجل: اخذ العطاء.
(٢) ساغبة: جائعة. الشبم: البارد من الماء. القراح: الماء الخالص.
(٣) امتاح الماء: إغترفه.
(٤) القوادم: الرّيش الكبير من الطائر.
(٥) أندى: أكرم. الراح: جمع الراحة: الكفّ.
(٦) الململة: المجموع ببعضها إلى بعض. الرداح: الكتيبة الثقيلة الجرارة.

أبحْتَ حِمى تِهامــةَ بَعْدَ نَجْـدٍ   وَمـا شـيءٌ حَميـتَ بِمُسْتَبَاحِ

لكمْ شُمُّ الجبـالِ مِـنَ الـرَّواسي   واعْظم سيْل مُعْتلج البطاحِ[١]

دَعَوْتَ المُلْـحدينَ، لَبا خُبَيْـبٍ   جِماحاً، هَلْ شُفِيْتَ من الجِمَاحِ[٢]

لَقَـدْ وَجَـدوا الخليْفَـةَ هِبْرِزِيّـاً   أَلفَّ العِيْص، لَيْسَ مِنَ النّواحي[٣]

فما شجراتُ عِيْصِك في قُــرَيْشٍ   بِعِشَّاتِ الفُرُوعِ، وَ لا ضواحي[٤]

رأس النَّاسُ البصيرةَ فاستفاقــوا   وَبَنَيْت المِراضُ من الصّحاحِ[٥]

وهذه قصيدة أخرى يمدح فيها الحجّاج بن يوسف الثقفي، ويذكر في مديحته شيئين لهما أثر فعّالٌ في بسط سلطة الدولة الأموية، الأثر الأوّلُ: إن الحجاج استطاع بدهائه و مقدرته، ان يجتثّ دابر المشاغبين، الذين أقضّوا مضجع السلطة، ويجعلهم يستكينون إلى الخوف الذي ملأ قلوبهم رعباً و فزعاً، وكلهم يخشونَ بطش الحجاج الذي لا يرحم، و سيفه المتكللّ بكلّ خارج على القانون. أمّا الأثر الثاني: فهو وصف السفينة، الذي أورده في مديحته هذه، وقد اتت على الشك التالي:

شُغِفْتَ بعَهدٍ ذكَّــرَتهُ المنازلُ   وَكِدْتَ تناسي الحِلمَ و الشيْبُ شاملُ

---

(١) اعتلج الرمل: اجتمع، تكثّف.

(٢) لُبو خبيب: عبد الله بن الزبير. وهنا يخاطبه، ويشمت به في انكساره. الجماح: الخلاف.

(٣) الهبرزي: الذهب الخالص. العيص: منبت خيار الشجر، الأصل.

(٤) العشة: الشجرة اللئيمة المنبت. عثات الفروع: دقيقات الفروع. الضواحي: جمع ضاحية: الناحية البارزة من كل شيء. فالشجرات الضواحي: البادية العيدان ولا ورق عليها.

(٥) بينت المراض من الصحاح: بنيت المريض من الصحاح: غير المريض.

لَعَمْرُكَ! لا أنسى ليـالي مَنْعِجٍ وَلا عـاقـلاً إذ مَـنْزِلُ الحيِّ عاقِلُ
وَما في مُباحاتِ الحديثِ لنـا هَوىً وَلـكـنْ هَـوانا المُنفِساتُ العقائلُ
ألا حـبَّـذا أيّام يَـحتـلّ أهلُنا بِذاتِ الغَضا والحيّ في الدّارِ آهِلُ[١]
وَإذْ نَحْنُ آلافٌ لَدى كلّ منزِلٍ وَلَمّا تُـفَـرَّقْ لـلطيّاتِ الجمائِلُ[٢]
وإذْ نَحنُ لَمْ يولِعْ بنا النّاسُ كلُّهم وما تَرْتَجي صُرْمَ الخليطِ العواذِلُ
خليليَّ مَهْلاً! لا تَلوما، فَإنّـهُ عَذابٌ إذا لامَ الصّديق المُواصِلُ
عَجِبْتُ لِهَذا الزّائِرِ الرّكْبَ مُوْهِناً وَمِنْ دُونِهِ بِيْدُ المَلا وَالمَناهِلُ[٣]
أقـامَ قَليـلاً، ثم بَاحَ بَحاجَةٍ إلَيْنا وَدَمْعُ العَيْنِ بِالمَاءِ وَاشِلُ[٤]
وَأنّى اهتَدَىْ لِلركْبِ فِي مُدْلَهِمَةٍ تُواعِسُ بالرُّكْبَانِ فِيهَا الرَّوَاحِلُ[٥]
أناخُوا قَلِيْلاً ثُمّ هَاجُوا قَلائصاً كَمَا هِيْجَ خَيْطٌ مَغرِبَ الشّمْسِ جَافِلُ
وَأيُّ مَزَارٍ زُرْتَ حَرْفٌ شِمِلّةٌ وَطَاوِي الحَشَا مُسْتأنِسُ القفرناحِلُ[٦]
وَلَـوْلا أمِيـرُ المؤمِنِينَ، وَأنّهُ إمَامٌ وَعَـدْلٌ، لـلـبَرِيَةِ، فَاصِلُ
وَبَسْطُ يَدِ الحَجّاجِ بِالسّيْفِ لَمْ تكُنْ سَبِيْلُ جِهَادٍ وَاسْتُبِيحَ الخَلائِلُ

---

(١) ذات الغضا: إسم موضع.
(٢) الطيات: النوايا. الجمائل: الإبل.
(٣) موهناً: ضعيفاً.
(٤) واشل: قاطر.
(٥) المدهمة: الشديدة السّواد تواعس، اصلها واعست اي مدت اعناقها وسارت سريعاً.
(٦) حرف شملة: الناقة الضعيفة والسريعة.

إِذا خَافَ دَرْءاً مِنْ عَدُوٍ رَمَى بِـهِ شَدِيْـدُ القُوَى وَالنَّزْعِ فِي القَوْسِ نابِلُ

خَلِيْـفَةُ عَدْلٍ، ثَبَّتَ اللهُ مُلْكَهُ عَلَـى رَاسِيَاتٍ لَمْ تُزِلْها الزَّلازِلُ

دَعُوا الجُبْنَ يَا أَهْلَ العِراقِ فإِنَّمَا يُبَـاحُ وَيُشْرَى سَبْيُ مَنْ لا يُقَاتِلُ

لَقَدْ جَرَّدَ الحَجَّاجُ بالحَقِّ سَيْفَهُ لكُـمْ فاسْتَقِيْمُوا لا يَمِيْلَنَّ مَائِلُ[١]

فَمَا يَسْتَوِي داعِي الضَّلالَةِ والْهُدَى وَلا حُجَّـةُ الخَصْمَيْنِ حَقٌّ وبَاطِلُ

وَأَصْبَـحَ كَالبَازِيْ يُقَلِّبُ طَرْفَهُ عَلَـىٰ مَرْبَأٍ وَالطَّيْرُ مِنْهُ دَوَاحِلُ[٢]

وَخَافُوكَ حَتَّى القَوْمُ تَنْزو قُلوبُهُـمْ نُزَاءَ القَطَا التَفَّتْ عَلَيْهِ الحَبائِلُ[٣]

ومَازِلْتَ حَتَّى أُسْهِلَتْ، مِنْ مَخَافَةٍ إِلَيْكَ اللَّواتِيْ فِي الشُّعوفِ العَواقِلُ[٤]

وثِنْتَانِ فِي الحَجَّاجِ لا تَرْكُ ظَالِمٍ سَوِيـاً، وَلا عِنْدَ المُراشاةِ نائِلُ[٥]

وَمَـنْ غَلَّ مَالَ اللهِ غُلَّتْ يَمِينُه إذا قِيْـلَ: أَدُّوا لا يَغُلَّنَّ عَامِلُ!

وَمَا نَـفَـعَ المسْتَعْمِلِينَ غُلُوْ لُهُمْ، وَمَا نَفَـعَـتْ أَهْلَ العُصَاةِ الجعائِلُ

قَدِمْتَ عَلَى أَهْلِ العِراقِ وَمِنْهُـمُ مُخَالِفُ دِينِ المُسْلِمينَ وَخاذِلُ

فَكُنْتَ لِمَنْ لا يُبْرِىءُ الدّيْنُ قَلْبَهُ شِفَـاءً، وَخَـفَّ المُدْهِنُ المُتَثَاقِلُ

---

(١) لكم: يخاطب أهل العراق.

(٢) المربأ: المرتفع يقف عليه المراقب. دواحل: أي تدخل الدحل مستترة وفي رواية أخرى: دواخلُ.

(٣) تنزوا قلوبهم: تضطرب، ترتجف. القطا، أو القطاة: طائرٌ في حجم الحمام.

(٤) أُسهلت: نزلت الى السهل، الشعوف: جمع الشعفة: اعلى الجبل. العواقل: جمع عاقل: الوعل الممتنع المتحرز في اعلى الجبل.

(٥) المراشاة: المصانعة، من الرشوة: إعطاء المال لإبطال حق او احقاق باطل. النائل: العطية.

وَاصبَحْتَ تَرْضى كُلُّ حُكْم حَكَمْتَهُ   نِزارٌ، وتُعْطِي مَا سَأَلْتَ المَقاوِلُ
صبَحْتَ عُمَانَ الخَيْلِ رَهْواً كأنّما   قَطاً هَاجَ مِنْ فَوْقِ السَّمَاوَةِ نَاهِلُ(١)
يُسناهِيْنَ غِيْطَانَ الرِّفاقِ، وَتَرْتَدي   نِقَالاً، إذا مَا اسْتَعْرَضَتْهَا الجراوِلُ(٢)

وبعد أن يسترسل جرير في وصفه الهيبة المخيفة لأهل الشر التي يتمتع بها الحجاج، ويذكر ما فعله بمن شق عصا الطاعة على الدولة، وكيف جعله يذعن للسلطة ذليلاً مدحوراً، يستطرد الى ذكر السفينة في شعره، ليأتي بها تشبيهاً متماثلاً لواقعه فيقول:

سَلَكْتَ لأَهْـلِ البرِّ براً فَنِلْتَهُـمْ   وَفي اليَمِّ، يَأْتَمُّ السَّفِيْنُ الجَوَافِلُ(٣)
تَرَىْ كُلَّ مِرْزاب يُضمِّنُ بَهْوُهَا   ثَمـانِينَ أَلْفاً، زايَلَتهَا المَنَازِلُ(٤)
جَفُولٍ تَرَىْ المِسْمَارَ فَيْهَا كَأَنّـهُ   إذا اهتَزَّ، جِذْعٌ مِنْ سُمَيْحَةَ ذَابِلُ(٥)
إذا اعْتَرَكَ الكَلأُ والماءُ لَمْ تُقَـدْ   بـأمْراسِهَا حَتّى تَثُوبَ القَنَابِلُ(٦)
تَـخَالُ جِبَالَ الثَّلْجِ لَمَّا تَرَفَّعَتْ   أَجِلَّتَهَا، والكَيْدُ فِيْهِنَّ كَامِلُ(٧)

---

(١) الرَّهو: السير اسهل المتابع. السماوة: اسم موضع. الناهل: العطشان.
(٢) الغطيان: جمع الغوط والغوطة: المطمئن من الارض. ترتدي: تسرع. نقالاً: مصدر ناقل الفرس: أسرع في نقل القوائم متقياً الحجارة في عدوه. الجراول: الحجارة.
(٣) يأتم: يقصد الجوافل : جمع الجافلة: السرعة، النافرة.
(٤) المرزاب: السفينة الضخمة. زايلتها المنازل: أي تركوا بيوتهم.
(٥) المسمار: الصاري. سميحة: اسم موضع.
(٦) الكلأ: من كلأ السفينة: أدناها من الشاطىء. والكلأ أيضاً: مرفأ السفن، شاطىء النهر القنابل: جمع القنبلة: الجماعة. أي لا تضبط السفينة فتقاد الى الشاطىء الا بتعاون جماعة.
(٧) الاجلة:جمع الجل: شراع السفينة. الكيد: الحرب، القتال.

تَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ عَنْ واسِقاتِـهِ وتَغْرِسُ حُوتَ البَحْرِ مِنْها الكلا كِلِ[1]

لَقَدْ جَهَدَ الحَجَّاجُ في الدِّينِ واجتبى جِباً لَمْ تَخُنْهُ في الحِياضِ الغَوَائِلُ

وَمَا نامَ إِذْ بَاتَ الحَواضِنُ دُلَّهـاً وَهـُـنَّ سَبَايا، للصُدُوْرِ بلابِلُ[3]

أَطِيعوا! فَلا الحَجَّاجُ مُبْقٍ عَلَيْكُمُ، وَلا جِبـْرَئِيْلُ ذُو الجِناحَيْنِ غَافِلُ

وعندما نصل الى هذا البيت، ونشاهد الولاء الكامل من الشاعر للحجاج. نعجب كيف يقرن اسم الحجاج في الشطر الاول بالقائد الحازم الذي لا يبقي على عاص، بذكر جبراءيل في الشطر الثاني وهو الملك المخصص بالوحي على نبينا محمد ﷺ ويتبادر الى اذهاننا، ان هناك مبالغةً تصل الى حد الشطط، ان في الشطر الاول من حيث تعظيم الحجاج، او في الشطر الثاني، من حيث ذكر جبرائيل مع السَّفَاح الذي قال عنه المؤرخون إنه لم يكن يعرف الرحمة أو العاطفة الانسانية، وفي هذا المجال يقول شوقي ضيف في كتابه: التطور والتجديد في الشعر الاموي «ومن يقرأ شعره – اي شعر جرير – في الحجاج يكبر من شخصيته، والحق ان الحجاج شوهه الرواة في العصر العباسي إرضاءً للعلويين والعباسيين جميعاً، وطبعاً كانت فيه قسوة، ولكنها كانت قسوة ضرورية، وان من يقرأ وصف جرير له ليعرف انه كان يتبع سياسة حازمة رشيدة»[4].

ونكمل استماعنا لجرير في مدح الحجاج حيث يقول:

أَلا رُبَّ جَبَّارٍ حَمَلتَ عَلَى العَصَا وَبَابُ استِهِ عَنْ مِنبَرِ المُلْكِ زَائِلُ

(١) الواسقات: الحمول.

(٢) اجتبى: اختار، اصطفى، جمع الجبا: في الاصل: الحوض الذي يجر فيه الماء.

(٣) الحواضن: جمع الحاضنة: التي لها صغير تربيه.

(٤) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الاموي: ص: ١٤٥.

تَمَنَّى شَبِيبٌ مُنيَةً سَفَلَتْ بِهِ وَذُو قَطَرِيٍّ لَفَّهُ مِنْكَ وَابِلُ(1)

تقول فلا تُـلْقَي لقولك نبـوةٌ وتفعَلُ ما انبأتَ أنتَ فاعِـلُ

ونحن نعلم ان الحجاز ظلَّ يتقلب عليه ولاة الامويين في عهد عبد الملك حتى كان آخرهم هشام بن اسماعيل (... - بعد ٧٨ هـ /... - بعد ٧٠٦ م) الذي عزل ليحل محله عمر بن العزيز، قبل استخلافه. وما كاد يستقر في ولايته حتى قصده جرير، ومدحه في قصيدة يقول فيها:

أَبَتْ عَيْنَاكَ بـالحَسَنِ الرقـادا وَأَنْكَرْتَ الأَصَادِقَ والبِلاَدَا(2)

لَعَمْـرُكَ إِنَّ نَفْعَ سُعَـادَ عَنِّـيْ لَمَصـرُوفٌ وَنَفْعِي عَنْ سُعَادا

فَـلادِيَةٌ، سُقِيَـتِ وَدَيْتِ أَهْلِـيْ وَلا قَوَداً بِقَـتْـلِيْ مُسْتَفَادَا(3)

أَلِمَّـا صَاحِبَـيَّ نَـزُرْ سُعَادا لِقُـرْبِ مَـزَارِها وَذَرَا البِعَادا

فَتَوَشِكَ أَنْ تَشُطَّ بنـا قَـذوفٌ تُكِلّ نِياطُها القُلُصُ الجِيَادَا(4)

وبعد هذه التوطئة الغزلية التي كانت مطلعاً تقليدياً لا يُستغنى عنه لدى استفتاح القصيدة يتوجه الى عمر بقوله:

إِلَيْكَ شَمَاتَةَ الأَعْدَاءِ أَشْكُو وَهَـجْراً، كانَ أَوَّلُـهُ بِعَـادا

فَكَيْفَ إِذَا نَأَتْ وَنَأَيْتَ عَنْـهَا أُعَـزِّيْ النَّفْسَ أَوْ أُزْعُ الفؤادا(5)

---

(1) شبيب وقطري، من زعماء الخوارج، وذو زائدة.

(2) الحسن: موقع لبني ضبّة كثير الشجر.

(3) القَوَد: الثأر.

(4) شط: ابتعد. القذوف: النوايا. النياط: صعوبة المسلك. القلص: صفة للنياق الجيدة.

(5) أزع: أغري.

أتِيحَ لَكَ الضَّغَائِنُ مِنْ مُرَادٍ ... وَمَا خَطْبٌ أتاحَ لَنا مُرَادا[1]

إلَيْكَ رَحَلْتُ يَا عُمَرَ بنَ لَيْلَى ... عَلَى ثِقَةٍ أزُورُكَ وَاعْتِمَادا[2]

تَعَوَّدَ صَالِحَ الاعمَالِ، إنِّي ... رَأيتُ المَرْءَ يَلْزَمُ مَا استَعَادا[3]

أقُولُ إذَا أتَيْنَ على قَرَوْرَى ... وَآلُ البِيدِ يَطَّرِدُ اطِّرَادَا[4]

عَلَيْكُمْ ذَا النَّدَى عُمَرَ بنَ لَيْلى ... جَوَاداً سَابِقاً، وَرِثَ الجِيَادا

الى الفَارُوقِ يَنْتَسِبُ ابنُ لَيْلى ... وَمَرْوَانَ الّذي رَفَعَ العِمَادا[5]

تَزَوَّدَ مِثْلَ زَادَ أبِيكَ فِينَا ... فَنِعْمَ الزَّادُ زَادُ أبِيكَ زادا؛

فَمَا كَعْبُ بنُ مَامَةَ وابنُ سَعْدَى ... بِأجْوَدَ مِنْكَ يَا عُمَرَ الجوادا[6]

هَنِيئاً لِلْمَدِينَةِ إذْ أهَلَّتْ ... بِأهْلِ المُلْكِ، أبْداً ثُمَّ عادا

يعُودُ الحِلْمُ مِنكَ عَلَى قُرَيْشٍ ... وَتَفرِجُ عَنْهُمُ الكُرَبَ الشِّدادا[7]

وَقَدْ لَيَّنْتَ وَحْشَهُمُ بِرِفْقٍ ... وَتُعْيِي النَّاسَ وَحْشَكَ أن تُصادا

وَتَبْنِي المجْدَ يَا عُمَرَ بن لَيْلَى ... وَتُكفِي المُمْحِلَ السَّنَةَ الجَمَادا[8]

---

(١) مراد: ابن مالك المذحجي.

(٢) ليلى: جدة عمر بن عبد العزيز لأبيه.

(٣) استعاد الشيء: جعله عادةً لنفسه.

(٤) قرورى: اسم موضع. الآل: ما يُرى كالسراب من اضطراب الهواء والحر.

(٥) الفاروق: عمر بن الخطاب الخليفة الراشدي الثاني. وليلى: كانت حفيدة الفاروق ومروان: هو مروان بن الحكم.

(٦) كعب بن مامة الايادي. وابن سعدى أوس بن حارثة الطائي من اجود العرب القدماء.

(٧) الكرب: المصائب.

(٨) تعيي: تعجز.

وَتَدْعُو اللهَ مُجْتَهِداً لِيَرْضَى   وَتَذْكُرُ في رَعِيَّتِكَ المَعَادا[1]
وَنِعْمَ أَخُو الحُرُوبِ إِذَا تَرَدَّى   عَلَى الزَّغْفِ المُضاعَفَةِ النجّادا[2]
وَأَنْتَ لِبنُ الخَضَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ   هُمُ نَصَرُوا النُّبُوَّةَ والجهادا[3]
وَقَادُوا المُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُعَوَّدْ   غدَاةَ الرَّوْعِ خَيْلُهُمُ القِيادا[4]
إِذا فَاضَلْتَ مَدَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ   بُحُورٌ غَمٌّ زاخِرُهَا الثمادا[5]
وَإِنْ تَنْدُبْ خُؤُولَةَ آلِ سَعْدٍ   تُلاقِ العِزَّ في السَّلَفِ الجعادا[6]
لَهُمْ يَوْمَ الكُلابِ وَيَوْمَ قَيْسٍ   هَرَاقَ على مُسَلَّحَةَ المَزَادا[7]

وبعد ان بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة (٩٩ - ١٠٢ هـ / ٧١٧ - ٧٢٠م) قصده جرير مادحاً في قصيدةٍ مليئةٍ بالتكسب، يشكو فيها الفقر والجدب، ويظهر استجداءه كعادته. وقد أضاف الى مدح عمر، مدح أبيه، ووصفه بالتقوى والشجاعة. ويبدأ القصيدة باستهلالية الغزل التقليدية حيث يقول:

---

(١) المعاد: اليوم الآخر: يوم الحشر.
(٢) الزعف: الدروع اللينة المحكمة. النجاد: حمائل السيف.
(٣) الخضارم: جمع الخضرم. السيد الكريم، الحمول للفطائم.
(٤) الرَّوع: الخوف.
(٥) زاخر: طمى. الثماد: جمع الثمد الحفرة يجبها ماء المطر! وقيل: الماء الملح القليل.
(٦) آل سعد: قصد قيس بن عاصم ومالك بن كعب بن سعد.الجعاد: جمع : الجعد: الكريم والبخيل (ضدٌ) والمقصود الأول.
(٧) أيام قيس ومسلحة والكلاب، مواقع لتنصر بها خؤولة سعد على البكريين.

لَجّتْ أُمَامَةُ فِي كَوْمِي وَمَا عَلِمَتْ
عَرْضَ السَّمَاوَةِ رَوْحَاتي وَلا بُكَرِي[1]

وَلا تَقَعْقُعَ أَلْحِي العِيْسِ قَارِبَةً
بَيْنَ المِرَاجِ ورَعْني رِحْلَتِي بَقَرِ[2]

مَا هَوَّمَ القَوْمُ مُذْ شَدوُّا رِحَالَهم
إلاَّ غِشَاشاً لَدَى أَعْضَائِها اليُسُرِ[3]

يَصْرَخْنَ صَرْخاً حَصى المَعْزاء إذْ وقَدَتْ
شَمْسُ النَّهارِ وَعَادَ الظِّلُّ للقِصَرِ[4]

يَوْماً يُصادِي المَهَارى الخُوص تَحْسبها
عُورَ العُيونِ وَمَا فيهنَّ من عَوَرِ[5]

ويعد ان ينهي مطلعه الغزلي التقليدي، يبدأ بمدح الخليفة، حيث يقول:

قَد طَالَ قَوْلِي، إذَا مَا قُمْتُ مُبْتَهِلاً:
يَا رَبِّ أَصْلِحْ قِوامَ الدِّينِ والبَشَرِ[6]

---

(١) السماوة: صحراء السماوة.
(٢) تقعقع: اضطرب، تحرك. المراج ورعني ورحلتي بقر: أسماء مواقع.
(٣) هوم: نام قليلاً. الغشاش: السرعة.
(٤) المعزاء: الارض الكثيرة الحصى.
(٥) يصادي: يقابل.
(٦) يقول هذا بعد ان مدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك، بولاية العهد (راجع الديوان (٣٥ – ٣٦).

خَلِيْفَةُ اللهِ، ثُمَّ اللهُ يَحْفَظُهُ،

واللهُ يصْحبُكَ الرحمنُ في السَّفَرِ

إنّا لنرجو، إذا ما الغَيْثُ أخلَفَنا

مِنَ الخَلِيْفَةِ مَا نَرْجو مِنْ المَطَرِ

يَا رُبَّ سَجْلٍ مُغيثٍ قَدْ نَفَحْتَ بِهِ

مِنْ نَائِلٍ غَيْرِ مَنْزُوحٍ وَلا كَدَرِ[1]

أأذْكُرُ الجَهْدَ والبَلْوَى التي نَزَلَتْ

أمْ قَدْ كَفَانِي الَّذِي بُلِّغْتَ من خَبَري

مَا زِلْتُ بَعْدَكَ فِي دارٍ تُعَرِّقُنـي

قَدْ عَيَّ بالحَيِّ إصْعادي وَمُنْحَدَري[2]

لا يَنْفَعُ الحَاضِرُ المَجْهُودُ بَادِيَهُ

وَلا يَعُوْدُ لَنَا بادٍ عَلَى حَضَرِ

كَمْ بِالمَوَاسِمِ مِنْ شَعْثَاءَ أرْمَلَةٍ

وَمِنْ يَتِيمٍ ضَعيفِ الصَّوْتِ وَالنَّظَرِ[3]

يَدْعُوْكَ دَعْوَةَ مَلْهُوْفٍ،كأنَّ بِهِ

خَبْلاً مِنَ الجِنِّ أوْ مَسّاً مِنَ النُّشَرِ[4]

---

(١) السجل: الدلو العظيمة فيها ماء، العطاء. منزوح: من نزحَتْ البِّر: نفد ماؤها.

(٢) تعرقني: تأكل لحمي عن عظمي. عيَّ : عجز.

(٣) المواسم: جمع الموسم: مجتمع النّاس، أراد بها موسم الحجّ شعثاء: موّنث أشعث: مغبر الشعر، منتشره.

مِمَّن يَعُدُّكَ تَكْفِي فَقْدَ والِدِهِ
كَالْفَرْخِ في العُشِّ لَمْ يَدْرُجْ وَلَمْ يَطِرِ

يَرْجُوكَ مِثْلَ رَجَاءِ الغَيْثِ تَجرُهُمُ
بُورِكْتَ جَابِرَ عَظْمِ هِيضَ مُنْكَسِرِ(١)

فإنْ تَدَعْهم فَمَنْ يَرْجُونَ بَعْدَكُمُ،
أو تُنْجِ مِنْهَا، فَقَدْ أُنْجِيْتَ مِنْ ضَرَرِا

خَلِيفَةَ اللهِ، مَاذَا تَنْتَظِرُونَ بِنَا؟
لَسْنَا إِلَيْكُمْ، وَلا في دَارِ مُنْتَظَرِ(٢)

أنتَ المُبَارِكُ، وَالمَهْدِيُّ سِيْرَتُهُ
تَعْصِي الهَوَى، وَتَقُومُ اللَّيْلَ بالسُّوَرِ(٣)

أصبَحْتَ لِلْمَنْبَرِ المعمورِ مَجْلِسُهُ
زَيْناً وَزَيْنَ قِبَابِ المُلْكِ والحَجَرِ،

نَالَ الخِلافَةَ إِذْ كَانَتْ لَهُ قَدَراً
كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسى عَلَى قَدَرِ

فَلَنْ نَزَالَ لِهَذا الدِّينِ مَا عَمِرُوا،
مِنْكُمْ عَمَارَةُ مُلْكٍ وَاضِحِ الغُرَرِا

---

(١) الخبل: الفساد، اضطراب العقل. النشر: جمع النشرة: الرقية.
(١) الهيض: الكسر بعد الجبور.
(٢) لسنا اليكم: أي لسنا قريبين اليكم فنعيش عندكم ولا في دار إقامة.
(٣) بالسُّوار: سور القرآن الكريم.

هُمْ ماهُمُ القَوْمُ مَا سَاروا ومَا نَزِلوا

إلاَّ يسُوسُوْنَ مُلْكاً عَالِيَ الخَطَرِ

ما صاح من حَيَّـةٍ يَنمـي الى جبَل

إلا صدَعَتْ صَفَاةَ الحيَّةِ الذَّكَرِ

أَخوَالُكَ الشُّمُّ مِنْ قَيسٍ إذا فَزِعُوا

لا يَعْصِمُوْنَ حِذارَ المَوْتِ بالعذَرِ

كَمْ قَد دَعَوْتُكَ مِنْ دَعْوَى محُلَّلَةٍ

لـمَّا رَأَيْتُ زَمَانَ النَّاس في دَبَرٍ[1]

لَتَنْعَشَ اليَوْمَ رِيْشي ثُمَّ تَنهضني

وَتُنْزِلَ اليُسْرَ مِني مَوْضعَ العُسُرِ

فَمَا وَجَدْتُ لَكُمْ نِداً يُعَادِلُكُمْ،

وَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ في الناسِ مِنْ خطَرِ

إنّي سَأَشكُرُما أُوْلَيْتَ مِنْ حَسَنٍ

وَخَيْرُ مَنْ نِلْتَ مَعْرُوْفاً ذَوو الشكرِ

وعندما تولى هشام بن عبد الملك الخلافة (١٠٥ - ١٢٦ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م) كان لا بُدَّ لجريرٍ من أن يقصده، وينال رضاه بمديحةٍ تكون سبباً في إغداق العطايا والجوائز. وقد مدحه ببضع

(١) دبر: عودة الى الوراء.

قصائد يذكر في بعضها انه قصده الى الرّصافة ويصف شقّه الأنهر من الفرات وما نشأ عليها من الجنائن والمزروعات. ونحن نراه يبدأ القصيدة بالغزل كعادته، فيقول فيها:

عَفَا النَّسرانِ بَعْدَكَ والوَحِيْدُ   وَلا يَبْقَى لِجِدَّتِهِ جَدِيْدُ(١)
وَحَيَّيْتُ الدِّيَارَ بِصُلْبِ رَهْبَى   وَقَدْ كَادَتْ مَعَارِفُهَا تَبِيْدُ(٢)
أَلَمْ يَكُ في ثلاث سِنِين هَجْرٌ   فَقَدْ طَالَ التَّجَنُّبُ والصُّدُوْدُ(٣)
لَعَزَّ عَلَيَّ مَا جَهلوا وقَالُوا: أَفِي تَسْلِيمةٍ وَجَبَ الوَعِيْدُ
وَلَمْ يَكُ لَوْ رَجَعْتَ لَنَا سَلاماً   مَقَالٌ في السَّلام وَلا حُدُوْدُ
أَمِنْ خَوْفٍ تُراقِبُ مَنْ يَلِيْنَا   كَأَنَّكَ ضَامِنٌ بِدَمٍ طَرِيدُ
تَصِيدنَّ القُلُوْبَ بِنُبْلِ جِنٍّ   وَتَرْمِي بَعْضَهُنَّ فَلا نَصِيْدُ
بِأَوْدٍ وَالأَيَادِ لَنَا صَدِيْقٌ   نَأى عَنْكَ الإِيَادُ وَأَيْنَ أَوْدُ(٤)
نَظَرْنَا نَارَ جَعْدَةَ هَلْ نَرَاهَا   أَبُعْدٌ غَالَ ضَوْءَكَ أَمْ هُمُوْدُ(٥)
لِحبِّ الوَافِدانِ إِليَّ مُوْسَى   وَجَعْدَةُ لَوْ أَضَاءَهُمَا الوَقُود

وبعد هذه الابيات الغزلية التقليدية، ينتقل الى ذكر السفر، فيقول في ذلك:

---

(١) النسران: كثيبا رمل لبني ضبة كانا يدعيان بالانقاء.
(٢) تبيد: تمحي.
(٣) الصدود: التباعد والجفاء.
(٤) اود: اقامة بني يربوع.
(٥) الهمود: الفتور.

تَعَرَّضَتِ الهُمُومُ لَنَا فَقَالَتْ   جُعَادَةُ: أيُّ مُرْتَحَلٍ تُرِيدُ
فقلت لَهَا الخَلِيفَةُ غَيْرَ شكٍّ   هُوَ المَهْدِيُّ، وَالحَكَمُ الرَّشِيدُ(١)
قَطَعْنَ الدَوَ وَالأُدْمَى إلَيْكُمْ   وَمَطْلَبُكُمْ مِنَ الأُدْمَى بَعِيدُ(٢)
نَظَرْتُ مِنَ الرُّصَافَةِ أيْنَ حَجْرٌ   وَرَمْلٌ بَيْنَ أَهْلِيهِمَا وَبِيدُ(٣)
بِهَا النِيرَانُ تَحْسَبُ حِينَ تُضْحِيْ   مَرَازِبَةً لَهَا بِهَرَاةَ عِيْدُ(٤)
كأنَّ المُنْعَلاتِ وَهُنَّ حَدْبٌ   عِصِيُّ الضَّالِ يخْبُطُهُ الجَلِيْدُ(٥)
وَقَدْ لَحِقَ الثَمَائِلُ بَعْدُ بُدْنٍ   وَقَدْ أفْنَى عَرَائِكَها الوُخُوْدُ(٦)
تُقَيْمُ لَهَا النَّهارَ، إذا دَلَجْنا،   وَتَسْرَيْ وَالقَطَا خُرُدٌ هُجُودُ(٧)
وَكَمْ كُلِّفْنَ دُوْنَكَ مِنْ سهوبٍ   تَكِلُّ بِهِ المُواشِكَةُ الوَخُوْدُ(٨)
إذا بَلَغُوا المَنَازِلَ لَمْ تُقَيَّدْ   وَفِي طُولِ الكَلام لَهَا قُيُودُ

---

(١) الخليفة: هشام بن عبد الملك.

(٢) الدَوّ: المفازة، ارض لبني تميم بين البصرة واليمامة. الأُدْمَى: من ديار بني يربوع –.

(٣) الرُّصافة: هي رصافة هشام: مدينة سرجيو بوليس القديمة جنوبي غربي الرقة، على نحو ٤٠ كيلومتراً من الفرات، رفع هشام اسوارها وجعلها من بواديه.

(٤) مرازبة: جمع مرزبان: الرئيس الوالي عند الفرس. هراة: مدينة في افغانستان شبه النيران في تلاعبها بتلك القفار، بمرازبة المجوس في عيدهم.

(٥) المنعلات: النياق التي انتعلت اخفافها، شبهها في احديدابها وهزالها، بعيدان شجر الضال التي خبط الجليد ورقها أي اسقطها.

(٦) الثمائل: جمع الثميلة: الثمالة: بقية الشيء. العرائك: جمع العريكة: أصل السنام. الوخود: جمع الوخد: نوع من السير.

(٧) خُرُد: ساكت. هجود: نائم.

(٨) سهوب: أرض واسعة. المواشكة: السريعة . الوخود: السائرة الوَخْد.

وهذه الابيات المتعلقة بالسفر، ما هي إلاّ تقليد أيضاً - للهيكلية الشعرية التي كانت متبعة في العصر الجاهلي، إذ ينتقل الشاعر من المطلع الغزلي الى ذكر المشاق اللتي تعتريه في سفره، والهموم التي يصادفها ثم ينتقل الى غرضه وهذا ما فعله شاعرنا الذي انتقل الى مدح الخليفة، وذكر فضله وكرم اصله حيث يقول:

وَأعْلَــمُ أنَّ إذنَــكُـمُ نَجَاحٌ   وَأنّي إنْ بَـلَغْـتُكُـمُ سَعِيْدُ!
وَتَبْدَأُ مِـنْكُمُ نِعَـمٌ عَلَـيْنَـا   وَإنْ عُـدْنَـا فَمُنْعِكُمْ مُعِيدُ
تُـرِيْــدُونَ الحَيـَاةَ إليَّ حُبــاً   وَذِكْرٌ مِنْ حِبائكُمُ حَمِيدُ
لَوْ أنَّ الـلّهَ فضَّلَ سَعْيَ قَـوْمٍ   صَفَتْ لكُمْ الخِلافَةُ والعُهُودُ(١)
عَلَىْ مَهَلٍ تَمَكَّـنَ في قُـرَيْشٍ   لَكُمْ عِظَمُ الدَّسَائعِ والرُّفُودُ(٢)
هِشَامُ المُلْـكِ وَالحَكَـمُ المُصَـفَّى   يَطِيْبُ، إذَا نَزَلْتَ بِهِ، الصَّعِيْـدُ
يَـعُـمُّ عَـلَى البَـرِيَّةِ مِنْكَ فَضْـلٌ   وَتُـطْرَقُ مِنْ مَخَافَتِكَ الأُسُوْدُ
وَإنْ أهْلُ الـضَّلالَةِ خَالفُوكُـمْ   أصَـابَهُـمُ كَمَا لَقِيتْ تمودُ(٣)
وَأمَّا مَنْ أطَــاعَكُـمُ فيرضَـى   وَذُو الاضْغَانِ يَخْضَعُ مُسْتَفِيْدُ(٤)

---

(١) يريد: لولا ان الله فضل سعي قوم ما خالفكم احد ولم ينازعكم احد فيشفى بكم.

(٢) الدسائع: جمع الدسيعة: الجفنة الكبيرة. العطية الكثيرة. الرفود جمع الرفد: القدح الضخم العطاء.

(٣) ثمود: قوم كذبوا الانبياء، فغضب الله عليهم وانزل بهم أشد العقاب.

(٤) مستفيد: اراد: وهو مستفيد.

وَتَأْخُذُ بِالْوَثِيقَةِ ثُمَّ تَمْضِي إذا ازْدَحَمَتْ لَدَى الحَرْبِ الجُنُودُ(١)
لَكُمْ عِنْدِيْ مُشَايَعَةٌ وَشُكْرٌ إلى مَدْحٍ يُرَاحُ لَهُ النَّشِيْدُ(٢)
بَنِيْ مَرْوَان بَيْتُكَ فِي المَعَالِيْ وَعَائِشَةُ المُبَارَكَةُ الوَلُودُ(٣)
وَاوْرَثَكَ المَكَارِمَ فِيْ قُرَيْشٍ هِشَامٌ، وَالمُغِيرَةُ، وَالوَلِيْدُ(٤)

وابتداءً من هذه الابيات الخمسة الاخيرة، حتى نهاية القصيدة يذكر جرير بأعمال هشام. ويتابع شاعرنا ما ذكرناه فيقول:

وَفِيْ آلِ المُغِيْرَةِ كَانَ قِدْماً وَفِي الاعْيَاصِ مَكْرُمَةٌ وَجُوْدُ(٥)
وَمِنْ ذُبْيَانَ تَمَّ لَكُمْ بِنَاءٌ عَلَى عَلْيَاء ذُوْ شَرَفٍ نَشِيْدُ
وَإنْ حَلَبَتْ سَوَابِقُ كُلِّ حَيٍّ سَبَقْتَ وَأَنْتَ ذُو الخَصْلِ المُعِيْدُ(٦)
فَزادَ اللهُ مُلْكَكُمُ تَمَاماً مِنَ اللهِ الكَرامَةُ والمَزِيْدُا
فَيَا ابْنَ الأَكْرَمِيْنَ إذا نُسِبْتُمْ وَفِيْ الأَثْرَيْنَ إنْ حُسِبَ العَدِيْدُ(٧)

---

(١) الوثيقة: الاحكام في الامر.
(٢) المشايعة: المتابعة والموالاة، او النصرة والتأييد. يُراحُ: يطرب ويهتز لفعل المعروف.
(٣) عائشة: بنت معاوية بن المغيرة بن ابي العاص، جدة هشام لأبيه.
(٤) هشام: يقصد به هشام بن الوليد بن المغيرة.
(٥) الأعياص: هم خمسة: العاصي، وابو العاصي، والعيص، وابو العيص، والعويص.
(٦) حلب: حضر السباق والرهان في الحلبة.
(٧) الأثرين: الوافري العدد.

شقَقْتَ مِنَ الفُراتِ مُبَارَكاتٍ جَوَارِيَ قَدْ بَلَغْنَ كَمَا تُرِيْدُ[1]
وَسَخَّرْتَ الجِبَالَ وَكُنَّ حُرْساً يُقَطِّعُ فِيْ مَنَاكِبِهَا الحَدِيْدُ
بَلَغْتَ مِنَ الهَنيءِ فَقُلْتَ: شُكْراً هُنَاكَ وَسُهِّلَ الجَبَلُ الصَّلُودُ[2]
بِهَا الزَّيْتُونُ فِي غَلَلٍ وَمَالَتْ عَنَاقِيْدُ الكُرُومِ فَهُنَّ سُوْدُ[3]
فَتَمَّتْ فِي الهَنيءِ جِنَانُ دُنْيَا فَقَالَ الحَاسِدُونَ هِيَ الخُلُودُ!
يَعَضُّونَ الأَنَامِلَ إِنْ رَأَوْهَا بَسَاتِيْناً، يوازِرُهَا الحَصِيْدُ[4]
وَمِنْ أَزْوَاجِ فَاكِهَةٍ وَنَخْلٍ يَكُونُ بِحَمْلِهِ طَلْعٌ نَضِيْدُ[5]
تَهَنَّا لِلْخَلِيْفَةِ كُلُّ نَصرٍ وَعَافِيَةٍ، يجيءُ بِهَا البَرِيْدُ
رَضِيْنَا أَنَّ سَيْبَكَ ذُو فُضُوْلٍ وَأَنَّكَ عَنْ مَحَارِمِنَا تَذُوْدُ
وَأَنَّكُمُ الحُمَاةُ بِكُلِّ ثَغْرٍ إِذَا ابْتَلَّتْ مِنَ العَرَقِ اللُّبُوْدُ[6]

وفي قصيدة مَدَح بها معاوية بن هشام، نشاهد فيها المطلع الغزلي التقليدي الذي يقول فيه:

---

(١) الجواري: السواقي الجارية.
(٢) الصلود: الصلب، اليابس.
(٣) الغلل: الماء الجاري تحت الشجر على وجه الارض. وقد وردت الهنيء: الهناء في بعض الكتب.
(٤) وازره في الأمر: عاونه وقواه. الحصيد: الزرع المحصود، المزرعة الأنهار تحصد.
(٥) الطلع من النخل: شيءٌ يخرج كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما مقصود والطرف محدد. نضد المتاع: ضم بعضه الى بعض منسقاً مركوماً.
(٦) العرق: الجبل الغليظ لا يرتقي لصعوبته اللبود: جمع اللِّبدة: الشعر المجتمع بين كتفي الأسد. وفي رواية: إذا نبتت من العرق اللبودُ.

قَدْ قَـرَّبَ الحَيُّ إذْ هاجوا لإصْعَـادِ   بُـزْلاً مُخَيَّسَةً أرمَـامَ أقْيَادِ[1]

صُهْباً كَـأَنَّ عَصِيْـمَ الوَرْسِ خَالَطَهَا   مِمَّا تُصرِّفُ مِنْ خَطْرٍ وإبْلَادِ[2]

يَحْدُو بِهِمْ زَجِلٌ لِلْبَـيْنِ مُعْـتَرِفٌ   قَدْ كُنْتُ ذَا حَاجَةٍ لو يَرْبَعُ الحَادِ[3]

ألا تَـرَى العَيْنَ يَوْمَ البيْنِ إذْ ذَرَفَتْ

هَـاجَـتْ عَـلَيْكَ ذَوِي ضَغْـنٍ وَأحْقَادِ

حَـلأْتِنَا عَـنْ قَـرَاحِ المُزْنِ في رَصَفٍ

لَوْ شِئْتِ رَوّى غَلِيْلَ الهَائِمِ الصَّادي[4]

كَمْ دُوْنَ بَابِكَ مِنْ قَـوْمٍ نُحَاذِرُهُـمْ   يَـا أُمَّ عَـمْـرٍو وَحَـدَّادٍ وَحَـدادِ

هَلْ مِنْ نَوالٍ لِمَوْعُـودٍ بَخِلْتِ بِـهِ   وَللرَّهِيْنِ الَّذي اسْتَغْلَقْتِ من فَادي[5]

لَوْ كُنْتِ كَذَّبْتِ إذْ كَمْ نُوْتَ فَاحِشَـةً   قَوْماً يَلجّونَ في جَوْرٍ وإفْنَادِ[6]

فَقَدْ سَمِعْتُ حَدِيْثاً بَعْدَ مَوْثِقِنَـا   مِمَّا ذَكَرْتِ إلى زَيْدٍ وَشَدَّادِ[7]

حَيِّ المَنَازِلَ بالبُرْدَيْنِ قَـدْ بَلِيَـتْ   للحَيِّ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَـيْرُ إبلادِ[8]

---

(١) بزلاً: صفة للجمال مخيّسة مروضة. أرمام مفردها رمة. وهي القطعة من الجبل.

(٢) عصيم الورس: أثر اللون الأحمر.

(٣) الزجل: قائد العسكر.

(٤) حلأتنا: أبعدتنا عن الماء. قراح المزن: الماء العذب. الصادي: الظمآن

(٥) استغلق الرهن: عجز عن دفعه.

(٦) الجور: الظلم. الافناد: الكذب.

(٧) شداد وزيد: أفشيا السر.

(٨) الإبلاد: المعالم.

مَا كِدْتَ تَعْرِفُ هَذَا الرَّبْعَ غَيَّرَه   مَرُّ السِّنِيْنَ كَمَا غَيَّرْنَ أَجْلادِي[1]

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا أُخْبِرْتُ مِنْ أَحَدٍ   أَنَّ الهَوَى بِنَقَى يَبْرِيْنَ مُعْتَادِي

وبعد المطلع الغزلي، ينتقل جرير الى مدح هشام، وذكر والده بما كان عليه من صفات عالية، وهمّة علية. ثم يذكر بطشه وظفره على أعدائه من الخوارج. وبني الأشعث، وابناء المهلّب، حيث يقول:

اللّهُ دَمَّرَ عَبَّاداً وَشِيعَتَهُ؛   عَادَاتُ رَبِّكَ فِي أَمْثَالِ عَبَّادِ[2]

قَدْ كَانَ قَالَ أَميرُ المُؤْمِنِينَ لَهُمْ   مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ صِدْقٍ وَإِجْهَادِ[3]

مَنْ يَهْدِهِ اللهُ يَهْتَدْ لا مُضِلَّ لَهُ   وَمَنْ أَضَلَّ فَمَا يَهْدِيْهِ مِنْ هَادِي[4]

لَقَدْ تَبَيَّنَ، إِذْ غَبَّتْ أُمُورُهُمُ   قَوْمُ الجُحَافِيِّ لَمْراً غَبَّهُ بادي[5]

لاقُوا بُعُوثَ أَمِيْرِ المُؤْمِنِينَ لَهُم   كَالرِّيحِ إِذْ بُعِثَتْ نَحْساً عَلَى عَادِ[6]

فِيهِمْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَن، مَا لَهُمُ   سِوى التوكُّلِ والتَّسْبِيْحِ مِنْ زادِ

أَنْصَارُ حَقٍّ عَلَى بُلْقٍ مُسَوَّمَةٍ   أَمْدادُ رَبِّكَ كَانُوا خَيْرَ أَمْدَادِ[7]

---

(١) الإجلاد: الجسد.

(٢) عبّاد: هو عبّاد الجُحافي من خوارج اليمن. وقد قتله يوسف بن عمر الثقفي.

(٣) امير المؤمنين: يقصد هشام بن عبد الملك. إجهاد: مصدر أجهد الحق: ظهر الاجهاد أيضاً: الاحتياط.

(٤) في هذا البيت محاكاة للآية الكريمة: «من يضلل الله فلا هادي له» من سورة الأعراف الآية رقم: ١٨٥.

(٥) الجحافي: عبّاد الذي يتناوله في القصيدة. الغبّ: الفساد.

(٦) عاد: التي عصت امر الانبياء فأرسل الله عليهم ريحاً حاصباً جزاء لهم عما فعلوه.

(٧) بلق مسومة: الخيول التي يزين سوادها البياض.

لاقَتْ جُحافٌ هَوَاناً في حَيَاتِهِمُ   وَمَـا تُقْبَلَ مِنْهُمْ رُوحُ أجْسَادِ

إنَّ الوِبَارَ الّتي في الغَارِ مِنْ سَبَأٍ   لَنْ تستطيعَ عَرِيْنَ المُخْدِرِ العَادي[١]

لَمَّا أضَلَّهُمْ الشَيْطَانُ قَالَ لَـهُم   أخلَفْتُـمُ عِنْدَ أمْرِ اللهِ ميْعَـادي

مَا كانَ أحْلامُ قَوْمٍ زِدْتُهُمْ خَبَلاً   إلاّ كَحِلْمِ فَراشِ الهَبْوَةِ الغَادِي[٢]

إذْ قُلْتَ: عُمَّالُ كَلْبٍ ظالمونَ لَنَا   ماذا تَـقَرَّبْتَ مِنْ ظُلْمٍ وَإفْسادِ

ذُوْقُوا، وَقَدْ كُنْتُمْ عَنْهَا بِمُعْتَزِلٍ   حَرْباً تَحرِّقُ مِنْ حمي وَإيْقَـادِ[٣]

لا بَـارَكَ اللهُ فِيْ قَـوْمٍ يَغُـرُّهُـمُ   قَـوْلُ اليَهُودِ الّذي حَفَّيْنَ برَّادَ[٤]

أبْصِرْ فَـإنَّ أمِيْـرَ المـؤمِنـينَ لَـهُ

أعْلَى الفُرُوْعِ، وَحَيْثُ اسْتَجْمَعَ الوادي

تَلْقَى جِبَالَ بَنِيْ مَرْوَانَ خَالِدَةً   ثُمَّ الرَّواسي وَتبني صَخْرَةَ الرادي[٥]

إنَّا حَمِدْنَا الّذي يَشْفِيْ خَلِيفَتَهُ   مِنْ مُرْجَفِينَ ذَوِيْ صِغْفٍ وَحُسَّادِ[٦]

لاقى بنو الأشعثِ الكِنْديُّ إذْ نَكَثُوا   وَابْنُ المُهَلّبِ حَرْباً ذاتَ عُصْوادِ[٧]

---

(١) الوبار: جمع الوبر: دويبة كالسنّور. شبه بها خوارج سبأ من بلاد اليمن. المخدر: الأسد في خدره: عرينه: العادي: المستعدي: المهاجم.

(٢) الخبل: الفساد. الفراشي: الرجل الطيّاش، الخفيف الرأس. الهبوة: الغبار.

(٣) الحمي: النار القوية.

(٤) براد: اسم يهودي، كان عمله الدّس بين الناس.
تبني: مخففة من تنبيء يقال انبأ الشيء دفعه عنه وأخرجه من أرض الى أرض

(٥) الرادي: الرامي.

(٦) حلوم: عقول المرجفين: من أرجف أي خاض في الاخبار السيئة والفتن قصد ان يهيج الناس.

(٧) الحرب العصواد: الحرب الشديدة بكل ما فيها من جلبة في الغرب ومن خصومة.

إنَّ العَلُوَّ إذا رامُـوا قَـنَاتَكُمُ   يَلْقَوْنَ مِنْهَا صَمِيماً غَيْرَمُنْآدِ(١)
شَرَفْتَ بُنْيَانَ أَمْلاكٍ بَنَوْا لَكُمُ   عادِيَّةً فِي حُصُونٍ بَيْنَ أَطْوادِ

وينتهي جرير في هذا البيت من ذكر بطش هشام وابنه معاوية وظفرهما على الاعداء من الخوارج، وذكر هذا دليل ثابت على ان شاعرنا عني في مدائحه للأمويين بأن يدعو لهم على نحو ما يدعو شعراء الاحزاب لأئمتهم. وشعره من هذه الناحية يلم إلماماً كاملاً أنه يكشف لنا عن الاساليب المتَّبعة عند أرباب السلطة ضد خصومهم إذ هم يلجأون مرةً الى نشر الافكار الداعية للخضوع الى أولي الامر والخلفاء، وهم الذين أوصى الله الناس بعدم القتل حياة للآخرين. ويكشف لنا جرير بالإضافة الى ما تقدم عن الصفات القدسية التي كان يصف بها الشعراء ممدوحيهم من بني آمية وهي الصفات ذاتها التي كان يسبغها الشيعة على آئمتهم(٢).

ومن هذا المنطلق، نشاهد الشاعر ينبسط في شرف المروانيين وانتصارهم حيث يقول:

إنَّ الكِـرامَ إذَا عَدُّوا مَسَاعِيَكُمْ   قِدْماً فَـضَـلْـتَ بآباءٍ وَأَجْدادِ
بالأَعْظَمِيْـنَ إذَا مَـا خَاطَروا خَطَراً   وَالْمُطعِمِيْنَ إذا هَبَّتْ بَصُرَّادِ(٣)
آلُ الْمُغِيْرَةِ وَالأَعْيَاصُ في مَهَـلٍ   مَدُّوا عَلَيْكَ بُحُوراً غَيْرَ أَثْمَادِ(٤)

---

(١) الصميم من كل شيء: خالصه ومحضه ويستعمل للواحد والجمع. فتقول: رجل صميم، ورجال صميم. إنآد: انحنى وتثنى. والمنآد: المعوج غير المستقيم.
(٢) ضيف:شوقي: التطورر والتجديد في الشعر الاموي:ص: ١٥٨.
(٣) الصُرَّاد: الغيم الرَّقيق لا ماء فيه.
(٤) الاثماد: جمع الثمد: الماء القليل الذي لا مادة له. الحارث هو الحارث بن مرة بن عوف الغطفاني. أورى الزند: اخرج ناره، صلد الزند وأصلد: صوت ولم يور وناقة.

وَالحَارِثُ الخَيْرُ قَدْ أوْرَى فَمَا خَمَدَتْ   نِيْرَانُ مَجْدٍ بِزَنْدٍ غَيْرِ مِصْلادِ(١)

مَا البَحْرُ مُغْلَوْلِباً تَسْمُو غَوَارِبُهُ   يَعْلُو السَّفِيْنَ بِآذِيٍّ وَإِزْبَادِ(٢)

يَوْماً بِأوْسَعَ سَيْباً مِنْ سِجَالِكُمُ   عِنْدَ العُنَاةِ وَعِنْدَ المُعْتَفِي الجَادِي(٣)

إلى مُعَاوِيَـةَ المَنْصُورِ، إنَّ لَهُ   دِيْناً وَثِيْقاً، وَقَلْباً غَيْرَ حَيَّادِ

مِنْ آلِ مَرْوَانَ مَا ارْتَدَّتْ بَصَائِرُهُمْ   مِنْ خَوْفِ قَوْمٍ، وَلاهَمُّوا بِإلْحَادِ

حَتَّى أتَتْكَ مُلُوكُ الرُّومِ صَاغِرَةً   مُقَرَّنِيْنَ بِأغْلالٍ وَأصْفَادِ(٤)

يَوْمٌ أذَلَّ رِقَابَ الرُّومِ وَقْعَتُهُ   بُشْرَى لِمَنْ كَانَ فِيْ غَوْرٍ وَأنْجَادِ(٥)

يَارُبَّ مَا ارْتَادَكُمْ رَكْبٌ لِرَغْبَتِهِمْ   فَأحْمَدوا الغَيْثَ وَانْقَادوا لِرُوَّادِ(٦)

سَارُوْا عَلَى طُرُقٍ تَهْدِيْ مَنَاهِجُها   إلَىْ خَضَارِمَ خُضْرِ اللُّجِّ أعْدادِ(٧)

سَارُوا مِنَ الأدَمَى وَالدَّامِ مُتْعَلَةً   قُوْداً سَوَالفها فِي مَوْرِ أعْدادِ(٨)

---

(١) مصلاد: التي تنتج وليس لها لبن.

(٢) اغلولب: تكاثف. الغوارب: أعالي الموج. الآذيّ: الموج.

(٣) السّجال: جمع السَّجل: الدلو، أراد به المعروف. العُنَاة: جمع العاني: الأسير. إعْتَفى فلان: أتاه يطلب معروفه. الجادي: السائل.

(٤) قرنه: جمعه وشدده. الاغلال: جمع الغل: طوق من حديد وجلد يجعل في اليد أو العنق. الاصفاد: جمع الصفد: الوثاق.

(٥) الغور: المكان المنخفض. النجد: المكان المرتفع.

(٦) ارتاد الشيء: طلبه. أحمد الشيء: وجده حميداً. الروّاد: جمع الرائد: وهو الرسول الذي ارسله القوم لينظر لهم مكاناً ينزلون فيه.

(٧) اللّج: جانب الوادي، معظم الماء. الأعداد: المياه الغزيرة.

(٨) القود: الطويلة الأعناق. المور: سيلان الدم.

سِيْرُوا. فإنَّ أُمِيْرَ المُؤمِنِيْنَ لَكُـمْ غَيْثٌ مُغيثٌ بنَبّتٍ غَيْرِ مجْحادِ[1]

وينهي جريرٌ قصيدته بالاستجداء الذي جعله لازمةً لكلّ قصيدة. وهو لعمري ما أحَبُّ مادحاً إلاَّ في سبيل هذا الغرض الذي يسعى إليه، هو وأمثاله من الشعراء. فالأمويون حين أُغرَقُوا وأكثروا العطاء وشَرَّعوا أبوابهم لم يكن لهم رائدٌ سوى تهافت الشعراء لأخذ النّوال، ومن التحدث بجودهم وكرمهم. وفي هذا السبيل يقول جرير:

مَاذَا تَرَى في عِيَالٍ قَدْ بَرِمْتُ بِهِـمْ لَمْ تُحْصَى عِدَّتُهُمْ إلاَّ بعَدَّادِ[2]

كَانوا ثمَـانِين أوْ زَادُوا ثمَـانِيَـةً لَوْلا رَجَاؤكَ قَدْ قَتَّلْتُ أوْلادي

إنه الختام الذي لا يحسد عليه، لما فيه من اسعاف وإذلال. فأيُّ أبٍ هذا الذي يسأم ويضجر من اولاده. إنه يجعلهم لكثرتهم موضع ازدراءٍ وكره. فلقد ضاق بهم ذرعاً ولم يعد يَقْوَ عَلَى تعدادهم الكامن بين الثمانين، أو الثمانية والثمانين ولداً. وتسوء الصورة منظراً، وتنحدر به الى مهاوي الاحتقار حين يصارح الممدوح بأنه لولا الرجاء الذي ينتظره منه لقتل جميع أولاده، إنه الإبتزاز الذي ينحدر به الى مهاوي الاستجداء الرخيص. وهو صورة توضح حالة العصر، وتهافت الشعراء فيه على ابواب الحاكمين. وعلى هذا المنوال يسير بقصائده في المديح. ولعله تبدو صوراً مكررة لا يتغير فيها سوى الأسماء أمّا الهدف والغرض، فهو هو: تعظيم الخليفة، وإعلاء شأن بني أُمَيّة ونيل العطاء.

---

(١) مجحاد: من جحد النبت: لم يطل: أي نبتٌ طويلٌ. والمجحاد: تأتي أيضاً القليل العطاء.

(٢) برم: سئم وضجر.

الهجاء:

كان جرير لا يبالي غير سلامته، فهو لا يهجو إلاّ من تعرَّض له من الشعراء ولا يعرض لنقد الولاة والعمّال أو مهاجمة سياستهم. وهو لا يرتزق بالهجاء، لأن ذلك قد يعرّضه للشرّ، ولكنّه يعوّل على المدح، وفي سبيل ذلك يسوم نفسه أقبح الذلّ من أجل الحصول على المال. وقد أفردنا للمدح قصائد بكاملها -كما سبق وقدمنا - لأن المدح كان أساس شعره، وهدف حياته من أجل الارتزاق وما دمنا بصدد الهجاء فنقول بأنّه إذا هجا، كانت ألفاظه، مشحونة بالسخرية والإستهزاء، تستعجل القارىء بالضحك، قبل أن يفهم ما تضمَّنَتْ من معنى. يقول للفرزدق:

عَدُّوا خَضَافِ إذا الفُحولُ تُنُجِّبَتْ ... والجَيْثَلُوطَ ونَخْبَةً خَوَّارا(١)

وَإذا فَخَرْتَ بِأُمَّهَاتِ مُجَاشِعٍ ... فافْخَرْ بِقَبْقَبَ وَاذْكُرِ النُّخْوارا(٢)

عَيْدَانُكُمْ عُشَرٌ وَلَمْ يكُ عُودُكُم ... نبعاً ولا سَيطَ الفُرُوعِ نَضارا(٣)

قَدْ شانَ فَخرَ مُجاشِعٍ أنْ لَمْ تكُنْ ... عِنْدَ الحَقَائقِ تُدْرِكِ الأَوْتارا(٤)

وَلَقَدْ نَزَلْتَ فَكُنْتَ أخبثَ نازِلٍ ... وَظَعَنْتَ لا جَذلاً وَلا مُخْتَارا(٥)

إنَّ الفرَزْدَقَ يَا مُجَاشِعُ لم يَجِدْ ... بالأَجْرَعَيْنِ لِمُنْكِرٍ إنْكَارا

---

(١) الجيثلوط: صفة إهانة تطلق على النساء ولا معنى لها في كتب العرب وربما نحتت من لفظتي جلط وثلط. والنخبة الجبانة.

(٢) قبقب والنخوار: من نساء مجاشع.

(٣) النضار: الشجر الأخضر الطويل الاغصان.

(٤) شان: حقَّرَ وَخزيَ.

(٥) الجذل: المسرور.

مَاذا يُرِيبُكَ إذْ تَعُوذُ بِتَغْلِبٍ   مِنّي وَدَمْعُكَ بَسادِرٌ إدْرار
خِرِّبَانِ صَيْفٍ نَقَّشتْ أعْرَافَهَا   عايَنَّ أسْفَعَ مُلْحَماً مِبْكَار(١)
تُبْقِي المَذَلَّةُ يَا فَرَزْدَقُ والقَذَى   والمُخْرِيَاتُ بِعَيْنِكَ العُوَارا
وَعرَفْتَ مَنْزِلَةَ الذَّلِيلِ فلم تَجِدْ   إلاَّ التَّلَهُّفَ تُمْسِ الإقْرارا

وترانا نقف – دون أن نشعر – أمام تلك الألفاظ بألقابها العجيبة وبغرابتها المضحكة، في الجيشلوط، وهو لفظ مخترع مركّبٌ من جلط وجشط. وكذلك الحال مع قبقب والنخْوار. ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ من الأهاجي الغريبة المضحكة، بل يسترسل في اختراع الألفاظ التي تزيد من الهزء والسخرية بمهجوه. ومن امثال ذلك مخاطبته الفرزدق في قصيدة هجاء أخرى يقول فيها:

إنَّ الفَرَزْدَقَ قَدْ تَبَيَّنَ لُؤْمُهُ   حيْثُ التَقَتْ حُشَشَاوُهُ وَالأَخْدَعُ(٢)
حُوْقُ الحِمار أبُوكَ فاعْلَمْ عِلْمَهُ   وَنَفَاكَ صَعْصَعَةُ الدَّعِيُّ المُسْبَعُ(٣)
وَزَعَمْتَ أمُّكُمُ حَصَاناً حُرَّةً   كَذِباً، قُفَيرَةُ أمُّكُمْ والقَوْبَعُ(٤)
وَبَنُو قُفَيرَةَ قَدْ أجَابُوا نَهْشَلاً   باسم العُبُودة قَبلَ أنْ يَتَصَعْصَعُوا(٥)
هذي الصَّحيفَةُ مِنْ قُفَيرَةَ فَاقْرَأُوا   عُنْوَانَها، وَبِشَرْطِهِنَّ تُطَبَّعُ

---

(١) الخِرِّبان: الجبناء الأسفع: الصقر من الطيور الجارحة. الملحم الكثير اللحم.
(٢) الأخدَع: عرق في صفحة العنق حُشَشَاوُه: عظم بارزوراء الأذن.
(٣) صعصعة: علي بن يربوع.
(٤) القوبع: قلنسوة تختمرها العجائز.
(٥) يتصعصعوا: يتفرقوا.

كانَتْ قُفَيْرَةُ بالقَعُودِ مُرِبَّةً تَبْكي إذَا أخذَ الفَصيلَ الرُّوَيع(١)

بِئسَ الفَوارِسُ يا نَوَارُ مُجَاشِعٌ خُورٌ إذا أكَلوا خزيراً ضَفْدَعُوا(٢)

يَغْدُونَ قَدْ نَفَخَ الخزيرُ بُطُونَهُمْ رَغْداً. وَضَيْفُ بني عِقَالٍ يُخْفَعُ(٣)

أيْنَ الّذينَ بِسَيْفِ عَمْرو قُتّلُوا، أمْ أيْنَ أسْعَدُ فيكُمُ المُسْتَرْضَعُ

حَرَّبْتُمُ عُمْراً فَلَمّا اسْتَوْقَدَتْ نَارُ الحُرُوبِ بِغُرَّبٍ لَمْ تَمْنَعُوا(٤)

وَبِأبْرقَيْ ضَحيّانَ لاقُوا خِزْيَةً تِلْكَ المَذَلّةُ، والرِّقابُ الخُضّعُ

خُوْرٌ لهم زَبَدٌ إذا ما أُستأمَنُوا وَإذا تَتَابَعَ في الزّمانِ الأمْرَعُ(٥)

وما أن تمرّ تحت ناظريك هذه الألفاظ: حُشْشاوُه، الأخدع، القَوَيْعُ، الرُّوَيع. حتى ترى السخرية الشديدة التي حشر لها جرير مثل تلك الكلمات، المغرقة في التقعير والغرابة. ولا تستطيع أن تمنع عنك الضحك حين تصل إلى قوله «ضفدعوا» أي أخرجوا ريحاً تحدث صوتاً قوياً، لما حشوا به بطونهم من «الخزير» وهي اكلة للعرب. وتستمر حال جرير في هجو الفرزدق بمثل هذه الألفاظ الغريبة النابية، حتى وصل إلى قصيدة ثالثة، يخاطبه من خلالها بقوله في ميمّيّه:

قُفَيرَةُ وَهْيَ ألأمُ أُمِّ قَوْمٍ تَوُفّي، في الفَرَزْدَقِ سَبْعَ آمٍ(٦)

---

(١) الرُّوَيع: داء يصيب الإبل.
(٢) ضفدعوا: أصابهم ريحٌ في أمعائهم فأخرجوا صوتاً.
(٣) خفع: أصابه دوار.
(٤) غرّب: إسم موقعة.
(٥) الأمرع: الخطيب.
(٦) قُفيرة: جدّة الفرزدق. آم: جمع أمة: وهي العبدة.

بــدَا شِــبْــهُ الــزُّبَــابَــةِ فِي بَنِيْهَا وَعِرْقٌ مِنْ قُفَيْرَةَ غَيْرُ نَامِي[1]

فَــإنَّ مُــجَــاشِــعــاً، فَــتَــعَــرَّ فُوهُمْ بنُو جَوْخَى وخَجْخَجَ والقَذامِ[2]

وقد وُهب جرير، مع هذا الحسّ اللفظي الممتاز، عيناً نقادة تقع على العيوب، ووجوه النقص من أول نظرة، وتهتدي إلى مواضع السخرية، إهتداء المغناطيس إلى دقائق الحديد المنتشر، ومن وراء هذه الملاحظة الدقيقة النقادة خيال خصب وذكاء نقّاد، يمدّه بالصور الغريبة في الافتنان، البارعة اللاّذعة، يتناقلها النّاس متندّرين. فمن أمثلة هذا الهجاء الذي يعتمد على الصور، قوله يصف بني مجاشع بالسجن والترمّل، مع قلّة الغناء في الحروب[3]:

مَتَى تَغْمِزْ ذِرَاعَ مجاشعيٌّ تجد لَحْماً وليس على عِظَام

فَمَا صَدَقَ اللِّقَاءَ مُجَاشعيٌّ وَمَا جَمَعَ القَنَاةَ مَعَ اللّجام

تــولُّونَ الظُّهُورَ إذا لُقِيتُم وَتَــدْنُونَ الصُّدُورَ مِن الطَّعام

ونلاحظ أنّ جريراً لا يرتوي من إيراد هذه الألفاظ وأمثالها بل يغرق في تداولها بين قصائده، حتى نراه يقول:

تَلْقَى ضِفَنٌ مِجَاشِعٍ ذَا لِحْيَةٍ وَلَهُ إذَا وَضَعَ الإزَار حِرَانِ[4]

---

(١) الزّبابة: فأرة كثيرة الشعر في وجهها.

(٢) بنو جَوْخى، وخجخج، والقذام: هي أسماء بعض من كان يشتغل بالحدادة من رقيقهم. ويتهم نساء مجاشع بهم ويقول: هؤلاً القيون هم آباؤهم.

(٣) محمد حسين: محمد: الهجاء والهجاؤون في صدر الاسلام: دار النهضة العربية: بيروت (١٩٧٠) ص: ١٩٤.

(٤) الضفن: القصير المكتنز الحرِ: موضع العورة في المرأة.

مِنْ كُلِّ مُنْتَفِخِ الوَرِيْدِ كأنَّهُ بَغْلٌ تَقَاعَسَ فَوْقَهُ خُرجَانِ

ولم يترك جريرٌ لفظةً حفظتها ذاكرته، وتصل به إلى الإيلام إلاّ وخصَّ بها شعره فهو حريص على أن يجمع اللؤم كلّه في هجائه، حتّى يقول الناس، لقد أقذع جرير. ومن امثال ذلك هجاؤه للتيم في قوله:

يَا تَيْمُ! ما القارُونَ في شِدَّةِ القِرَى بِتيمٍ وَلاَ الحَامُوْنَ عِنْدَ الحَقَائِقِ
وَتَيْمٌ تَماشيْها الكلابُ إذا غَدَوْا وَلَمْ تَمْشِ تَيمٌ في ظِلالِ الخوافِقِ
وَتَيْمٌ بِأبْوابِ الزُّرُوبِ أذِلَّةٌ وَمَا تَهْتَدِي تَيْمٌ لِبَابِ السُّرادِقِ
وَمَا أحْسَنَ التَّيْميُّ في جَاهِلِيَّةٍ مُنَادَمَةَ الجَبَّارِ فَوْقَ النَّمَارِقِ(١)
تَعَادَى على الثَّغْرِ المَخُوْفِ جيَادُنَا وَتَيْمٌ تَحَاسَى جُنْحاً في المَعَالِقِ(٢)
وَمَا أنْتُمُ يَا تَيْمُ قَدْ تَعْلَمُوْنَهُ بفُرْسَانِ غَارَاتِ الصَّبَاحِ الدَّوَالِقِ

هذه المهاجي الواضحة في شعر جرير تدلُّ دلالةً أكيدةً على الحشد الذي أشرنا إليه في أسلوبه المرتكز على إنهاك المهجوّ بكثرة الألفاظ اللاذعة القارصة، ولا ينفك عنه، إلاّ وقد تركه غارقاً في بحران الذلّ والهوان. وإذا راجعنا الأبيات التي بين أيدينا نشاهد تراكم كلمة «تيم» فيها، حتى أنّه لا يخلو بيت واحدٌ من ذكرها وهذا على مَ يدل؟؟ إنه يدلُّ على التركيز الذي أشرنا إليه، والذي يصرّ على جعل السمع يضج بذكر «التيم» الفضيحة التي تملأ الكون لكثرة ما تتردّد على

(١) النمارق: الوسادات.
(٢) تحاسى: تشرب الحساء. المعالق: واحدها معلق وهو وعاء يحمله الفارس.

ألسنة الناس، إنّه الإعلام الذي ابتكره جرير في عصره وجعل خصمه ضحية الشائعة المروّجة على لسان الشاعر والتي لا يستطيع منها فكاكاً.

ولمّا كان النّيل من المرأة يمسُّ شرف القبيلة عند العرب ولمّا كان العصر الأمويّ توارث هذا التقليد في مجتمعه، فقد عمد جرير إلى الأخذ بتلك العادة المتبعة، وأدخلها صلب الهجو في شعره، حيث يخاطب الفرزدق هاجياً:

إذا أَسْفَرَتْ يَوْماً نِسَاءُ مُجَاشِعٍ   بَدَتْ سَوْءَةٌ مِمَّا تُجِنّ البَرَاقِعُ
مَنَاخِرُ شَانَتْهَا القُيُونُ كأنّها   أُنُوفُ خَنَازِيْرِ السّوادِ القَوَابعُ[1]
مَبَاشِيْمُ عَنْ عِبِّ الخَزِيْرِ كأنَّمَا   تُصَوِّتُ في أَعْفَاجِهِنَّ الضَّفَادِعُ[2]
وَقَـدْ قَوَّسَتْ أُمُّ البعيثِ وَأَكْرَهَتْ
عَلَى الزَّفْرِ حَتَّى شَنَّجَتْها الأَخادِعُ[3]

ورغم الزراية التي كان عليها نسبه من ناحية جدّه وأبيه، فلم يتورّع عن ذمّ نسب الآخرين، وإلحاق كلّ ذميمة بعرضهم ونسب عائلتهم. ولقد لاحظنا الضّعة التي كان عليها والده في الرّعي، وامتصاص ثدي الماعز لرضع الحليب، ورغم ذلك فهو يعيّر الفرزدق بمهنة ينسبها إليه، ويقول فيها:

---

(١) القوابع: أصوات الخنازير.
(٢) المباشم: الذي يأكل بنهم حتى التخمة. الخزير والخزيرة: دقيق يخلط بالماء ويوضع على النار حتى يتماسك قوامه. وقد يوضع فيه لحم أو هو مرقة تتخذ من بلالة النخالة. الأعفاج: الأمعاء. وغب كل شيء: عاقبته.
(٣) الأخادع: عرقان في صفحة العنق.

وَأَوْصَــى جُـبَيْرٌ إِلَـى غَـالبٍ   وَصِيَّةَ ذِي الرَّحِـمِ المُـجْهَدِ
فَقَالَ: ارْفُقَنْ بِلَيِّ الكَتِيْفِ   وَحَكِّ المَشاعِبِ بِالمِبْرَدِ[1]
وَجَعْشَنْ حَطَّ بِها المَنْقَرِيُّ   كَرَجْعِ يَدِ الفَالِجِ الأَمْرَدِ[2]
تَشَاءَبُ مِنْ طُول مَـا أُبْرِكَتْ   تَـشَاؤُبَ ذي الرُّقْيَةِ الأَدْرَدِ[3]
فَـهلاً ثَـأَرْتَ بِبِنْتِ القُيـونِ   وتـترك شوقاً إلى مَهْرَدِ[4]
وَهَلاً ثَـأَرْتَ بِحَـلِّ النِّطَـاقِ   وَدَقِّ الخلاخِيْلِ والمِعْضَدِ[5]
فَأَصْبَحْتَ تـقـفـر آثـارَهُـم   ضُحىً مِشْيَةَ الحاذِقِ الأَعْقَدِ[6]
كَلِيلاً وَجَدْتُـم بَنِيْ مِنْقَرٍ   سِلاحَ قُتَيْلِكُمُ المُسْنَدِ[7]
تَقُولُ نوارُ فَضَحْتَ القُيُـونَ   فَـلَـيْتَ الـفَرَزْدَقَ لم يُـوْلَـدِ
وَقَالَتْ بذي حَوْمَل والرِّمَـاحِ   شَـهِدْتَ وَلَيْتَـكَ لَمْ تَشْهَدِ
وَفَازَ الـفَرَزْدَق بِالْكَلْبَتَيْنِ   وَعِدْلٍ مِنَ الحُـمَـمِ الأَسْوَدِ

---

(١) الكتيف: ضباب الحديد. والواحدة كتيفة. وهي حديدة عريضة يغلق بها الباب. المشاعب: جمع مثقب. وهو المثقب الذي يثقب به. وقوله: لي الكتيف: أي طيّ الحديد.
(٢) المنقري: عمران بن مرة. الفالج: الإبل ذات السنامين.
(٣) المقصود في هذا البيت: أن من عليه رقية يتاءَب عند الرقي والدرد : من خلا فمه من الاسنان.
(٤) المقصود بينت القيون: نوار.
(٥) أراد بهذا البيت: الدعوة إلى الثأر وهل نطاق الإبل استعداداً للمواجهة.
(٦) الحاذق الأعقد: صفات قبيحة تطلق على الكلاب.
(٧) كليلاً: بعد كثير من الجهد المسند: الذي ينتسب إلى القوم وهو غريب عنهم.

فَرَقِّعْ لِجِلْدِكَ أَكْبارَهُ وأَصْلِحْ مَتاعَكَ لا تُفْسِدِ(١)

وَأَدْنِ العَلاةَ وأَدْنِ القَدُومَ وَوَسِّعْ لِكِيرِكَ فِي المَقْعَدِ(٢)

ولا يكتفي بهذا القدر من الإهانة والتحقير، ووضع الفرزدق موضع المهنة الحقيرة حتى يتهم جدَّته بعبدها جُبَيْر، ويقول إنها ولدت ابنها غالباً (والد الفرزدق) منه. ويتقصد أن يبدو في شعره وكأنه يمرُّ بذلك مرور من يُلقي الخبر وكأنه حقيقة مفروغ من صحتها لا تحتاج إلى إثبات، حيث يقول:

وَجَدْنَا جُبَيْراً أَبا غَالِبٍ بَعِيدَ القَرابةِ مِنْ مَعْبَدِ(٣)

أَتجْعَلُ ذا الكِيرِ مِنْ مَالِكٍ؟ وَأَيْنَ سُهَيْلٌ مِنَ الفَرْقَدِ(٤)

وَشَرُّ الغلاء ابنُ حُوْقِ الحِمَارِ وَتَلْقَى قُفَيْرَةَ بِالمِرْصَدِ(٥)

وَعِرْقُ الفَرَزْدَقِ شرُّ العُرُوقِ خَبِيثُ الثرى كَابِيُ الأَزْنَدِ(٦)

وعند جرير قُدْرَةٌ فائقةٌ، في ضم القبائل بعضها إلى بعض ضمن تحاليل مخبريّة ذهنية، تعتمد العرق والأصل لإعلاء من يودُّ رفعَ قدره، وإسفال من يريد له السفالة والمهانة، كمثل تهكمه في هجاء التَّيم بقوله:

---

(١) الأكيار: الصمامات.

(٢) العلاة: السندان.

(٣) جبير: خادم كان عند جدّ الفرزدق. معبد: إبن زرارة بن عدس الدراميّ.

(٤) الكير: زق ينفخ فيه. سهيل، والفرقد: من الكواكب.

(٥) قفيرة: أم الفرزدق وقد أشرنا إلى ذلك.

(٦) الثر: التراب والمعنى مجازي يقصد به أصل الفرزدق. الكابي الأزند: الذي لا يُرجى منه خيراً.

لَقَدْ عَجِبَتْ قَيْسٌ وَبَكْرُ بنُ وَائلٍ وَقَالَتْ تَمِيْمٌ فِيْمَ تَيْمٌ مِنَ الفَخْرِ
فَلَوْ غَيْرُ تَيْمَ يفْخَرُونَ عَذَرْتُـهُمْ أتيمُ، لمِنَ تيم اللُّؤْمِ يا سَوْأَةَ الدهر
أَتفْخَرُ تَيْمٌ بالضَلالِ وَلَمْ يَكُـنْ لَهُمْ حَسَبٌ ذاكٍ وَلا عَدَدٌ مُثْرِ

وبدءاً بهذا البيت، ينزل المهانة على قبيلة تَيْم من ناحية التبذّل الأخلاقي، وتكرار المعاني، التي جاءت نتيجة طبيعية الإكثار، حتى لا يسكت عن الهجو فيكون مقلوباً. ثم يستمر في الحطّ من قدر تيم فيقول:

فَما فَخَرَتْ تَيْمٌ بِيَوْمٍ عَظِيْمَةٍ وَلا قَبَضُوا إلاَّ بِخَالِفَةٍ صِفْرِ(١)
بَني التَّيْم ما للّؤْمَ مَعْدىً وَرَاءَ كُمْ وَلا عَنكُمُ يا تَيْمُ لِلُّؤْمِ مِنْ قَصْرٍ
كَسَا اللُّؤْمُ تَيْماً خُضْرَةً في وُجُوهها فَيَا خزيَ تَيْمٍ من سَرَابِيْلِها الخُضْرِ(٢)
وَلَوْ تَسْتَعِفُ التَيْمُ أَوْ تُحْسِنُ القِرى وَلَكِـنُ تَيْماً لا تَعِفُ ولا تَقْرِي(٣)
فَمَنْ يَكُ يَسْتَغْنِي وَيُغْبَطُ بالغِنَى فَمَا لابن تَيْمٍ مِنْ فَعالٍ وَلا وَفْرِ

وجريرٌ بارعٌ في انتزاع الضحك من النّاس استهزاءً بمن يهجوه، ومن أمثله ذلك، هذا الهجاء الذي يكمل به قصيدته في التيم، والذي يعتمد على النكتة المضحكة في قوله:

وَلَوْ يُدْفَنُ التَّيْمِيُّ، ثُـمَّ دَعَـوْتَـهُ إلى فَضْلِ زادٍ جَاءَ يَسْعَى مِنَ القَبْرِ

---

(١) الخالفة: التي لا يُرجى منها الخير.
(٢) السرابيل: مفردها سربال وهو القميص.
(٣) تقري: تطعم الضيف.

وَلَو شَفَتُ غمَّ التَيْمي عَمْروٌ ومَالكٌ وَطَمّ عَلَيْهِمْ قُمقُمانٌ مِنَ البَحْرِ[(١)]

ويصل بنا إلى حدّ الإغراق في الضحك حين يقول:

وآية لُؤْم التَيْـم أَنْ لَوْ عَدَدْتُمُ أَصَابِعَ تيميٍّ نقَصْنَ مِنَ العَشْرِ

وكان لابدّ لجرير من الإكثار اللاذع في هجائه، ليدلّل على مقدرته الشعرية، والتهديد بما يصيب الخصم من نكال وعار وهجاؤه يصور منافسة فنية تدعونا إلى متابعة هجائه في «تيم» حيث يقول فيهم في قصيدة أُخرى تطفح بالسخرية المضحكة:

يَا تَيْمُ إِنَّ بُيُوتَكُمْ تَيْمِيَّةٌ قُبُدُ العِمَادِ قَصِيرَةُ الأَطْنَابِ[(٢)]

يَا تَيْمُ دَلْوَكُمُ التي يُدْلَى بِهَا خَلَقُ الرِّشاءِ، ضَعِيفَةُ الأَكْرَابِ[(٣)]

أَعْرَابُكُمْ عَارٌ عَلى حُضَّارِكُمْ والحَاضِرونَ خَزايَةُ الأَعْرابِ

ثم يصل إلى منتهى الدعابة المزرية، ساعة يجعلهم أحطّ خلق الله مهانةً وأسفلها درجةً للقذارة حين يقول:

قَوْمٌ إذا حَضَرَ المُلُوكَ وُفُودُهُمْ نُتِفَتْ شَوارِبُهُمْ عَلَى الأَبوابِ

إِنّي وَجَدْتُ أَبَاكَ إذا أَتْعَبْتُهُ عَبْداً يَـنُـوءُ بِأَلأَمِ الأَنْسَابِ

أَلْفَيْتُهُ لَمّا جَرَى بِكَ شَأْوُنَا حَطِمَ اليَدَيْنِ مُكَسَّرَ الأَصْلابِ

وَمَضَى عَلَيْكَ مُصَدَّرٌ ذُو مَيْعَةٍ رَبِذُ اليَدَيْنِ يَفُوزُ بالأَقْصَابِ[(٤)]

---

(١) القمقمان: الماء الكثير.
(٢) قفد: مترهلة. الأطناب: الحبال.
(٣) خلَق: بالية. الاكراب: الحبال.
(٤) ميعة: فتوة. ربذ: خفيف. الأقصاب: القصب.

يَا تَيْمُ مَا خَطَبَ المُلوكُ بَنَاتِكُمْ رِيحُ الخَنَافِسِ فِي مُسُوكِ ضِبَابِ[1]

ثم ينتقل من هذا التشنيع. إلى لئيم الصفات، حيث التمادي بلصق السمات البشعة في وجوه التَّيْم، فيقول:

يـا تَـيْمُ إنَّ وُجُوهكُمُ فتـقَـنَّعوا طُبِعَتْ بِـألأَمِ خَـاتَمٍ وكِتَابِ
لا تَخطُبُـنَّ إلى عَـدِيٍّ إنَّكُـمْ شَرُّ الفُحُولِ وألأَمُ الخُـطَّابِ
يا تَيْمُ ها تُوا مِثْلَ أُسْرَةِ قَعْنَبٍ أوْ مِثْلَ بَيْتِ الحَارِثِ بنِ شِهَابِ

وإذا تصدَّى جرير للفرزدق، فإنَّما يتصدَّى له بخبثٍ مُغْرِقٍ في السخرية، فهو يُولِّد من اتخاذ أجداد الفرزدق الحدادة شتَّى الصُّوَر. فهو مرَّةً يتصور جدَّ الفرزدق في قبره، وقد دُفِنَتْ معه آلات الحدادة وأدواتها، من كتيف وكلبتين ومنشار، ثم يتصوَّر الناس، وقد انكسر لأحدهم قِدْر أو مِرْجل، فيتذكره لأنه كان يصلحها:

سُنُيِرُ قَيْنَكُمُ وَلا يُـوفى بِـهـا قَيْنٌ بِقَـارِعَةِ المِقَرِّ مَثَارُ[2]
وُجِدَ الكَتيفُ ذَخيرَةً في قَـبْـرِهِ وَالكَلْبَتَـانِ جُمْعِنَ والمِنْشارُ[3]
يَبْكِيْ صَدَاهُ إذا تَهزَّمَ مِـرْجَـلٌ أوْ إنْ تَـثَـلَّمَ بُـرْمَـةٌ أَعْـشَارُ[4]

ومرَّةً يتصور حذراء زوج الفرزدق، وقد أنكرت ريحه وما علا جسمه القصير من صدأ الحديد، ويتصور الفرزدق إذ يطلب إليها

---

(١) مسوك: جلود.
(٢) المقر: جبل في منطقة كاظمة بالعراق فيه دفن والد الفرزدق غالب.
(٣) الكتيف والكلبتان والمنشار: من آلات الحدادة. وقد مرّ ذكرها سابقاً.
(٤) تهزم: تصدع. تثلم: تشقق. رمة أعشار: قدر مهشمة.

أن تصلح ما فسد من الأكيار بترقيعه، فتقول له إنها لا تجيد ذلك ولا تعرفه، لأنّ أجدادها من أشراف العرب، وليسوا كأجداده، أصحاب حدادة. وهي تدعو الله أن يخلّصها من هذا البلاء الذي ألقاها أهلها فيه، مستعيذة به من شرّ هذا الصهر المشؤوم، ومن جوار هذا الحداد المنتن الرائحة[١] وفي ذلك يقول:

حَذْرَاءُ أنكَرَتِ القُيُوْنَ وَرِيْحَهُمْ وَالحُرُّ يَمْنَعُ ضَيْمَهُ الإنكارُ
لَمَّا رَأَت صَدَأَ الحَدِيْدِ بِجِلْدِهِ فَاللَّونُ أَوْرَقَ وَالبنانُ قِصَارُ[٢]
قَالَ الفرزْدَقُ رَقِّعِيْ أكْيَارَنَا قَالَتْ: وَكَيْفَ تُرَقِّعُ الأكيارُ
رَقِّعْ مَتَاعَكَ إنّ جَدِّيْ خَالِدٌ وَالقَيْنُ جَدُّكَ، لَمْ تَلِدْكَ نِزارُ
وسَمِعْتها اتَّصَلَتْ بِذُهْلٍ إنَّهُمْ ظلمو بصهرهم القيونَ وجاروا[٣]
دَعَتْ المُصَوِّرَ دَعْوَةً مَسْمُوْعَةً وَمَعَ الدُّعَاءِ تَضَرُّعٌ وَحِذَارُ
عَاذَتْ بِرَبِّكَ أنْ يَكُوْنَ قَرِيْنُها قَيْناً أحَمَّ لِقَسْوِهِ إعْصَارُ[٤]

وفي تتبعنا للأهاجي التي يلاحق بها جرير الفرزدق، نجد فيها خروجاً عن الآداب في شتائمه، وشذوذاً عن الذوق المهذّب والخلق السليم. والذي يعنينا في هذا الصدد، تلك الألفاظ العاميّة المتبذلة، التي تنقل السّباب من أفواه الدّهماء كما هو، لا عمل فيه للخيال،

---

(١) محمد حسين: محمد: الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام: ص:١٦٧.
(٢) الأوراق: لون الرماد.
(٣) ذهل بن شيبان: بطن من بطون بكر، وهم قوم حوراء زوج الفرزدق اتصلت بذهل، أي نادت مستجيرة بهم: يالذهل.
(٤) الأحم: الأسود. الاعصار: الريح الشديدة.

فهبط بمستوى الصناعة الشعرية عمّا ينبض به من ترفّع فنّي. وجرير نال من الأخطل كما نال من الفرزدق في هجائه المقذع القارص الذي يقول فيه:

يا ابنَ الخَبيثةِ رِيحاً مَنْ عَدَلْتَ بِنَا ... أَمْ مَنْ جَعَلْتَ إلى قَيْسٍ إذا ذَخَرُوا[(١)]

قَيْسٌ وَخِنْدِفُ أَهْلُ المَجْدِ قَبْلكُمُ ... لَسْتُمْ إلَيْهِمْ وَلا أَنْتُمْ لَهُمْ خَطَرُ[(٢)]

مُوتُوا مِنَ الغَيْظِ غَمّاً في جَزِيرَتِكُمْ ... لَمْ يَقْطَعُوا بَطْنَ وَادٍ دُونَهُ مُضَرُ

وَمَا لِتَغْلِبَ إنْ عَدَّتْ مَسَاعِيهَا ... نجمٌ يُضيءُ وَلا شَمْسٌ ولا قَمَرُ

وَالتَّغْلِبِيُّ لَئِيمٌ حِينَ تَجْهَرُهُ ... والتَّغْلِبِيُّ لَئِيمٌ حِينَ يُخْتَبَرُ[(٣)]

مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللهِ دِينَهُمُ ... وَالطَّيِّبانِ أَبُو بَكْرٍ وَلا عُمَرُ

جَاءَ الرَّسُوْلُ بِدِينِ الحَقِّ فَانْتَكَثُوا ... وَهَلْ يَضِيرُ رَسُولَ اللهِ إنْ كفروا

يَا خُزْرَ تَغْلِبَ إنَّ اللُّؤْمَ حَالَفَكُمْ ... مَا دامَ في مَارِدِينَ الزَّيْتُ يُعْتَصَرُ[(٤)]

وقد غلب على جرير في هجائه، مرحه ودعابته. فكان مذهبه في الهجاء قوله «إذا هجوتَ فأضحك». وكان أسهل من الفرزدق والأخطل، وأكثر منهما حظاً عند الناس. ولم يكن يتكلف في شعره ما يتكلف صاحباه من العناء.

فهو يكتفي بما وهبه الله من طبع شعري خصب، ومن حسٍّ

(١) عدل فلاناً بفلان: سوّى بينهما. قيس: أي قيس عيلان.
(٢) الخطر: المثل والعديل.
(٣) جهر الرجل: رآه بلا حجاب بينه وبينه.
(٤) ماردين: بلدة قرب حلب.

فنيٌّ دقيق رقيق، ويأخذ فيض هذه المواهب، دون أن يلح في استنزافها. أو استخلاص أقصى ما تحتمله من إجهاد. ولذلك بدا في شعره عامة، وفي هجائه خاصة، وكأنه يتكلم في غير قصد إلى الشعر فإذا هو يقول شعراً. وقد أحسن قدماء النقاد وأصابوا، إذ وصفوه بأنّه يغرف من بحر. وقد أتاحت له هذه السهولة قدرة عجيبة على الإطالة، لم يكد يجاريه فيها إلا الفرزدق، وجعلت هجاءه أكثر ذيوعاً على ألسنة العامة[1] والواقع أنَّ القصد إلى الهجاء لم يكن هو الدافع الأوّل إلى إنشاء هذه المجموعة الضخمة من النقائض لدى الشعراء الثلاثة. فلم يكن همُّ جرير أن ينال من خصمه فحسب، ولكن كان همّه الأوّل أن يجيد ويبدع ويتفوّق في فنّه، من مثال ذلك قوله في هجاء الأخطل:

عَبَدُوا الصَّلِيْبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِجِبْرَئيلَ وَكَذَّبُوا مِيْكَالا
أَنَسِيْتَ يَوْمَكَ بالجَزِيْرَةِ بَعْدَمَا كَانَتْ عَوَاقِبُهُ عَلَيْكَ وَبَالا
حَمَلَتْ عَلَيْكَ حُمَاةُ قَيْسٍ خَيْلَها شُعْثاً عَوَابِسَ تَحْمِلُ الأبطالا
زُفَرُ الرَّئِيسُ أَبُو الهُذَيْلِ أَبَادَكُمْ فَسَبَى النِّساءَ وَأَحْرَزَ الأَمْوالا[2]
قَالَ الأُخَيْطِلُ إِذْ رَأَى رَايَاتِهِمْ يَا مَارَ سَرْجِسَ لا نُرِيْدُ قِتَالا
هلاَّ سَأَلْتَ غُثَاءَ دِجْلَةَ عَنْكُمُ والخَامِعَاتُ تُجَمِّعُ الأَوْصَالا[3]
تَرَكَ الأُخَيْطِلُ أُمَّهُ وكأنّها مُنْحَاةُ سَانِيَةٍ تُدِيْرُ مَحَالا

---

(١) محمد حسين محمد: الهجاء والهجاؤون في صدر الاسلام: ص: ١٦٠.
(٢) زفر: ابن الحارث. ويتحدث جرير هنا عن يوم الكحيل.
(٣) والخامعات: الضباع.

وَرَجَا الأُخَيْطِلُ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ   مَا لَـمْ يَكُـنْ وَأَبٌ لَهُ لِيَنَـالا
خـلِّ الطَّرِيقَ فَقَدْ رأَيْتَ قُرُومَنَا   تَنْفِي القُرُومَ تَخَمُّطاً وَصِيالا[1]
تَمَّتْ تميمي يَا أُخَيْطِل فَاحْتَجِزْ   حَزِيَ الأُخَيْطِلُ حِينَ قُلْتَ وقالا

وهكذا، فقد كان يكلّف نفسه أن يجيب على خصمه بقصيدة من نفس البحر والرويّ. وهو تكليف يضيّق على النّاقض السبيل، ويظهره بمظهر المتحدّي الذي يترك لخصمه اختيار نوع السّلاح الذي يريدان يبارز به. وهذا التنافس يعلّل لنا ما نجد في النقائض من فخر كثير بالبراعة في الشعر، وشدّة وقعه، وذيوعه على أُلسن النّاس وتكرار هذا الفخر في كل مكان بأسلوب متشابه يضيقُ به القاريء في كثير من الاحيان ومن أُمثله ذلك فائية الفرزدق المشهورة التي يقول فيها:

عَرَفْتَ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تَعْرِفُ   وَأَنْكَرْت من حَدْراءَ مَا كُنْتَ تعرف

فقد أنشأها يجيب على شاعر الأنصار، الذي تحداه أن يقول مثل قول حسان (لنا الحفينات الغُرُّ يلمعن بالصخر) وهي قصيدة طويلة تزيد على مائة بيت. ولم يعرض فيها لجرير كلّها فخر بنفسه وبقومه. ولكن جريراً نقضها عليه بفائيته التي يبدأها بقوله:

أَلا أَيُّها القَلْبُ الطَّرُوبُ المُكَلَّفُ   أَفِقْ رُبَّما يَنْـأَىْ هَوَاكَ ويُسْعَفُ[2]

ثم ينتقل إلى الهجو بقوله:

(١) التخمط: الهدير. الصيال: من صال في المكان.
(٢) يسعف: يقترب.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَخْزَى مُجَاشِعاً إِذَا ضَمَّ أَفْواجَ الحَجِيجِ الْمُعَرَّفِ
وَيَوْمَ مِنًى نَادَتْ قُرَيْشٌ بِغَدْرِهِمْ وَيَوْمَ الهَدَايَا في المشاعِرِ عُكَّفِ[1]
وَيُبْغِضُ سِتْرُ البيتِ آلَ مُجَاشِعٍ إذا انْحَدَرُوا مِنْ نَخْلَتَيْنِ وَأَرْجَفُوا

وبعد سماع الفرزدق نقيضة جرير، اضطرَّ أن يلحق بقصيدته أبياتاً لا تزيد على العشرين، يردُّ بها على جرير. ولم يكن الهجاء هو الغرض الأساسي في كل القصائد التي اشتملت عليها النقائض. فقد كان الشاعر ينشىء قصيدته في بعض الأحيان لغرض آخر غير الهجاء فلا يلبث خصمه أن ينقضها. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها لامية الأخطل التي يقول فيها:

عَفَا وَاسِطٌ مِنْ آلِ رَضْوَى فَنَبْتَلُ فَمُجْتَمَعُ الحُرَّيْنِ فَالصَّبْرُ أَجْمَلُ

فهو لم يذكر فيها جريراً ولم يعرض له. وإنما أنشأها في مدح خالد ابن عبد الله بن أسيد. بدأها بالوقوف على الأطلال، وشبَّه نفسه في ذهوله بالثمل، وانتهز هذه الفرصة، فتخلص إلى الخمر، وأطال ثم انتقل إلى وصف الصحراء، ووحشتها، وقسوتها على المسافر فيها، وما لقيت ناقته من تعب، وما تعرض له معها من أهوال في سبيل الوصول إلى ممدوحه. فلم يصل إليه إلاَّ وقد فرغ من نصف قصيدته غزلاً وخمراً ووصفاً. ثم صرف بقية قصيدته في الإشادة بممدوحه، ولم يكد يخرج من ذلك عمَّا ألف العرب في مدح السادة والقوّاد. وقد كان يمكن أن تمر القصيدة بسلام من غير أن تسترعي إنتباه جرير، لولا أنَّ الأخطل قد عرض في نهايتها لوقعة الجحّاف

(١) يوم منى: يوم النحر. يوم الهدايا: يوم الوقوف على جبل عرفات.

بني تغلب في يوم «البِشْر» وعاتب بني مروان في ذلك عتاباً عنيفاً، وحملهم جريرة هذا اللصّ الخارج على القانون وألزمهم ما ضاع من دماء قومه. وكاد يصفهم بأشنع ما يوصم به عربيّ من انتهاك جواره[1] ملوحاً بقوة قومه، بما يشبه التهديد الذي يقول فيه:

فسائل بَنِي مَرْوَانَ مَا بَالُ ذِمَّةٍ وَحَبْلٍ ضَعِيفٍ مَا يَزَالُ يُوَصَّلُ
بِنَزْوَةِ لِصٍّ بَعْدَ ما مَرَّ مُصْعَبٌ بِأَشْعَثَ لا يُفْلَى ولا هو يُغْسَلُ[2]

وهكذا يستمر الأخطل في تعريضه وعتابه في بقية الأبيات التي نبّهتْ جريراً، فنقض عليه قصيدته، متشمّتاً بما لقي التغلبيون على يد الجحاف معيراً الأخطل بأثره، وضعفه عن الإنتصار بغير قريش، الذي هم في حقيقة الأمر أبناء عمومة القيسية، لأنّهم مضرية. ويقول في ذلك:

بَكَى دَوْبَلٌ لا يُرْقِىءِ اللهُ دَمْعَهُ ألا إنّما يَبْكِيْ من الذُّلِّ دَوْبَلُ[3]
جَزِعْتَ ابْنَ ذاتِ الفَلْسِ لَمَّا تَدارَكَتْ مِنَ الحَرْبِ أنْيابٌ عَلَيْكَ وكَلْكَلُ[4]
فإنْ لا تَعَلَّقْ مِنْ قُرَيشٍ بِذِمَّةٍ فَلَيْسَ عَلَى أَسْيَاقِ قَيْسٍ مُعَوَّلُ
لَنَا الفَضْلُ في الدُّنْيا وأنْفُكَ رَاغِمٌ وَنَحْنُ لَكُمْ يومَ القيامةِ أفْضَلُ

---

(١) محمد حسين محمد: الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام: ص: ١٥٥-١٥٤.

(٢) بأشعث: يعني ابن زياد. وكان مصعب قد قتله. فلما كانت وقعة دير الجاثليق، اجتث عبيد الله بن زياد رأس مصعب.

(٣) رقأ الدمع: انقطع. يدعو عليه فيقول: لاجفف الله دمعك. دوبل: لقب للأخطل في صغره. ومعناه الحمار.

(٤) الفَلْس: ورقة الجزية. كانت تختم ويعلقها الذميّ في عنقه دلالة على أنّه أدّى الجزية

وجرير بعد كل هذا، ساخر من خصمه. متهكّم به، لا تراه غاضباً أبداً وقد جعل هذا الهدوء لسخريته لذعاً كأنّه السيّاط. ومن أمثلة ذلك قوله في تعيير بني مجاشع بلقيط بن زُرارة، الذي قتل في بعض الحروب:

وَخَوْرُ مُجَاشِعٍ تَرَكُوا القيطاً وقَالُوا حِنْوَ عَيْنِكَ والغرابا[1]

جعلهم يتحدثون إلى الميت، ويطلبون إليه أن يحافظ على عينه من الغراب. ونحن إذا تتبعنا شعره في الهجاء، نجد أنه يلزمنا دراسة مستقلة، تنحصر في فن الهجاء عند جرير وحده. وهي التي كفلت لشعره السيرورة والذيوع. وجعلت منه أبرع هجاء عرفه الأدب العربي في مهاجمة الأفراد. فلم يعرف الأدب العربيّ شاعراً تعرّض له مثلُ هذا العدد الضخم من الشعراء الذين تعرضوا لجرير، فكان لا يَمَلّ الرد عليهم، ولا يضيق بهم. وكأن مواهب هذا الرجل الشعرية لم تكن تسخو وتجود إلاّ على الهجاء[2] ونحن لا نستطيع أن نزعم أنّ هذا الغنى الهجائي في هذه النقائض ممتاز، يبلغ حدّ الرّفعة. وقد يكون من الظلم للنقائض وللعصر الذي انشئت فيه، أن تقارن بغيرها من الوان الهجاء في الأمم الأخرى، أو تقارن بالشعر الهجائي العباسيّ، كهجاء ابن الرومي والمتنبي والمعري. إنما من العدل أن تقاس هذه النقائض بعصرها، وظروفها التي أحاطت بها. فهي أولاً شعرٌ بدويّ لا يتذوقه القارىء المعاصر في سهولة ويسر،

---

(١) حنو العين: عظم الحاجب المنحني على العين. يهزأ به فيقول: إحفظ الغراب بعينيك، فإن انصرفت عن مراقبته سقط عليها فأكلها.

(٢) محمد حسين: محمد: الهجاء والهجاؤون في صدر الاسلام: ص: ٢٠٢.

لأنه لا يترك في نفسه صدى، ولم يقصد به أصحابه أن يخاطبوه، وإنما خاطبوا به قومهم، ممن هم على شاكلتهم في البداوة. وعلى طريقتهم في الحسّ والذّوق. فالقارىء لا يستطيع أن يحس جماله، إلاّ بعد أن يقاسي كثيراً من الملل والسأم. ويتجلّد لما تضيق به نفسه في أول الأمر حتى إذا أوغل في القراءة ومضى في الدراسة غمره جو هذا الشعر ونقله إلى قلب البادية. والى صميم الحياة البدائية الخشنة. وعند ذلك فقط يستطيع أن يتذوق شعرهم لأنه تعرّف على أصحابه، وصحبهم صحبة طويلة تخلق في نفسه شيأ من الإلفة لهذه الحياة ولهؤلاء الشعراء في هجائهم، بحكم الظروف التي أحاطت به، والتي دعت إلى إنشائه[1].

الرّثاء:

وكما تفوق جرير على صَاحِبَيْهِ الفرزدق والأخطل في الهجاء، كذلك تفوق عليهما في الرثاء، لأنَّ الرثاء يحتاج وفرةً في الشعور، وصدقةً في الإحساس، فإذا اتفق أنّه يصدر من نفسٍ محزونة، كان ذلك عاملاً آخر في إحسانه والبراعة فيه. وقد سبق وقلنا، إن الأخطل كان متكلفاً في شعره، لا يصدر فيه عن طَبْعٍ، ولا ما يشبه الطبع، فطبيعيّ أن لا يتفوق في هذا الفن. وكذلك كان الفرزدق غليظاً جافياً، فيه صلابة، وفيه خشونة، فكان من الطبيعي أيضاً أن لا يتفوق فيه. إنّما يتفوّق فيه جرير، الذي رقّق مشاعره الإسلام، والذي طبع بؤسُ أسرته نفسه بطابع حزين نلمحه في رثاءِ زوجته أم حرزة، حين قال في مطلع قصيدته الرائية:

---

(١) محمد حسين محمد: الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام ص: ٢٠٣.

لوْلا الحيـاءُ لعادَني اُستِعْبـارُ ولَزُرْتُ بَيْتَكِ والحبيبُ يُزار[١]

ولَقَدْ نَظَرْتُ، وَما تمتُّعُ نـظْرَةً في اللَّحدِ حَيْثُ تمكَّنَ المِحْفار[٢]

أرْعَى النُّجومَ، وقَدْ مَضَتْ غَوْرِيَّةً عُصَبُ النُّجومِ كأنَّهُنَّ صُوار[٣]

نِعْمَ القَرينُ، وَكُنْتِ عِلْقَ مَضِنَّةٍ وَأرى بِنَعْفِ بُلَيَّةَ الأحجار[٤]

عَمِرَتْ مُكَرَّمة المَسَاكِ وفارقـتْ مـا مسَّها صَـلَفٌ وَلا إقْتار[٥]

فَسَقى صَدَى جَدَثٍ، بِبُرْقَةِ ضاحِكٍ هَـزِمٌ أجَـشُّ وديـمَـةٌ مِدْرار[٦]

هَـزِمٌ أجَـشُّ إذا اُسْتَحارَ بِبَلْدَةٍ فـكـأنَّـما بِـجِوَائِها الأنهار[٧]

مُتَراكِمٌ زَجِلٌ يُضيءُ ومـيْضُـهُ كالبُلْقِ تَحْتَ بُطونِها الأمْهار[٨]

---

(١) استعبر: جرت عبرته، بكى، حزن. بيتك: هي الرواية الصحيحة، وكان العرب القدماء يسمون القبر «بيتاً» ويكرمونه. إكرامهم للبيوت. وقد استبدل باللفظة في الديوان لفظة «القبر».

(٢) المحفار: آلة الحفر.

(٣) الغوريَّة: التي تأخذ الغور للغروب والسقوط. العصب: جمع العصبة: الجماعة. الصُّوار: قطيع بقر الوحش.

(٤) العِلق: النفيس من كل شيء. المضنَّة: ما يُضنُّ به: يحصر عليه. النعف: اسفل الجبل و أعلى الوادي. بلية: إسم موضع.

(٥) الصلف: نعض الزوج. الاقتار: العسر، البخل.

(٦) الصدى: كان الجاهليون يعتقدون بأنه يخرج من رأس القتيل هامة أو بومة يسمونها «صدى» تظل عطش تصيح «اسقوني» حتى يؤخذ بثأره. وقد بقي هذا الإعتقاد حتى العصر الأموي. الهزِم: السحاب الراعد، الاجش: الغليظ الصوت من الرعد. برقة ضاحك: اسم موضع.

(٧) الجوار: جمع الجور: الناحية، الجهة.

(٨) زجل: ذو صوت وجلبة. الوميض: لمع البرق. البلق: جمع الأبلق: ما كان في لونه سواد و بياض.

كانت مُكَرَّمَةَ العَشيرِ وَلَمْ يَكُنْ ... يَخْشى غَوائِلَ أُمِّ حَزْرَةَ جارُ(١)
وَلَقَدْ أراكِ كُسيتِ أَجْمَلَ مَنْظَرٍ ... وَمَعَ الجمالِ سَكينَةٌ وَوَقارُ
وَ الريحُ طَيِّبةٌ إذا اسْتَقْبَلْتِها ... وَالعِرْضُ لا دَنِسٌ وَلا خوّارُ(٢)
وَإذا سَرَيْتُ، رأيتُ نارَكِ نَوَّرَتْ ... وَجْهاً أَغَرَّ يَزينُهُ الإسفارُ
صلّى الملائكةُ الَّذينَ تُخُيِّروا ... والصالحونَ عليكِ والأبرارُ
وَعليْكِ مِنْ صَلَواتِ رَبِّكَ كُلَّما ... نَصِبَ الحجيجُ مُلَبِّدينَ وغاروا(٣)
يا نظرَةً لكَ يَومَ هاجَتْ عَبْرَةً ... مِنْ أُمِّ حَزْرَةَ بالنُّمَيْرَةِ دارُ
تُحْيي الرَّوامسُ رَبْعَها فَتُجِدُّهُ ... بَعْدَ البِلى، وتُميتُهُ الأمطارُ(٤)
وكأنَّ مَنْزِلَةً لها بِجُلاجِلٍ ... وَحْيُ الزَّبورِ تُجِدُّهُ الأحبارُ(٥)
لا تُكْثِرَنَّ إذا جَعَلْتَ تَلومُني ... لا يَذْهَبَنَّ بِحِلمِكَ الإكثارُ
كانَ الخليطُ هُمُ الخليطَ فَأَصْبَحوا ... مُتَبَدِّلينَ، وَ بالدِّيارِ دِيارُ(٦)
لا يَلْبَثُ القُرَناءُ أنْ يَتَفَرَّقوا ... لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمُ وَنَهارُ

وهي قصيدة طويلة، تقارب التسعين بيتاً، و تسير على هذا النهج

---

(١) العشير: الصاحب والصديق. الغوائل: جمع الغائلة: الشر، الداهية.
(٢) الخوار: الضعيف، الرخو. فرس خوّار العنان: سهل الإنقياد.
(٣) نصب الحجيج: نصبوا وجوهم لله، ورفعوا أيديهم بالدعاء. ونصب: تعب وأعيا. ملبّدين: من لبد المكان: أقام فيه. غار الرجل: نام في نصف النهار. غارت الشمس: غربت.
(٤) الروامس: الرّياح. والرّوامس: الفاني من الآثار.
(٥) الزبور: المزامير. تجدّه: تكتبه فتحكمه. الأحبار: علماء اليهود.
(٦) الخليط: القوم الذين أمرهم واحد.

من الرّقة والمشاعر الوجدانية. وهناك دراسات جعلت القصيدة تقارب المائة والأربعة عشر بيتاً. وأوردتها في باب النقائض لأنها تقسم الى قسمين متباينين، خصّ القسم الأول منهما بزفرة يرثي بها إمرأته خالدة أمّ حَزرة. من (١) الى (٢١) والثاني بهجاء الفرزدق وقومه. ونحن نعلم أنّ رثاء الزوجة نادرٌ في الأدب العربي. ومن هذا المنطلق نَقَضَ الفرزدق هذه القصيدة، وردَّ على جرير رداً شائناً بذيئاً، مُعَيِّراً إيّاه حزنه على زوجته. والحقيقة أنّ وجدانيّة جرير الحقة، والتي خلا منها ضمير الفرزدق هي التي أملت عليه هذا الرثاء الرقيق. وهو رثاء يفيض أسىً وحزناً ولوعةً وحسرة على زوجته التي كان يتغزّل فيها غزلاً عذباً. فلما توفيت أخذ يرثيها رثاء حاراً. ولعلَّ رثاءهُ في ابنه سَوادة أشدُّ حرارةً، فقد كان يبكيه بكاء مرّاً يقول فيه وَ قد مات في الشام:

قَالُوا نصِيبَكَ في أجرٍ فقُلْتُ لَهُـمْ ... مَنْ لِلْعَرينِ، إذا فارَقْتُ أشْبالي[(١)]

لَكِنْ سَوادَةُ يَجلُو مُقْلَتيْ لَحِمٍ ... بازٍ يُصرْصِرِ فوقَ المَرْقَبِ العالي[(٢)]

قدْ كنتُ أعْرِفُهُ مِنّيْ إذا غَلِقَتْ ... رُهْنُ الجيادِ ومَدَّ الغايةَ الغالي[(٣)]

إلاَّ تَكُـنْ لَكَ بـالدّيْرِ بـاكيَـةٌ ... فَرُبَّ بـاكيَةٍ بالرَّملِ مِعْوالِ[(٤)]

كأُمِّ بَوٍّ عجـولٍ، عِندَ مَعْهَدِهِ ... حَنَّتْ إلى جَلَدٍ مِنهُ وأوْصالِ[(٥)]

---

(١) ورد الشطر الثاني في رواية: كَيْفَ العزاء وَقَدْ فارقْتُ أشْبالي؟

(٢) بازٍ لحمٍ: يأكل اللحم أو يشتهيه. صرصر البازي: صات، صرخ. المرقب: الموضع المشرف يعلوه الرقيب. وفي رواية: المربأ: وهي بالمعنى نفسه.

(٣) غلق الرهن: صار ملك المرتهن.

(٤) المعوال: الباكية.

(٥) البوّ: ولد الناقة، إذا مات يُحشى جلده تبناً فيقرّب من أمّه، فتخدع وتعطف عليه وتدرّ الحليب. الجَلَد: الجلد.

تَرْتَعُ ما نَسِيَتْ حتى إذا ذَكَرَتْ

رَدَّتْ هَماهِمَ، حرَّى الجونِ مِثْكَالِ[1]

زِدْنا على وَجْدِها وَجْداً وَإنْ رَجَعَتْ

في القَلْبِ مِنْها خُطُوبٌ ذاتُ بَلْبالِ[2]

فارَقْتِني حِينَ كفَّ الدَّهرُ مِنْ بَصَرِي

وَحينَ صِرْتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ البالي[3]

إنَّ الثَّويَ بِذي الزَّيْتُونِ فاحْتَسِبِي

قَدْ أَسْرَعَ اليَومَ في عَقلِيْ وَفي حالي[4]

فنفسه تتساقط أنفساً على فلذة كبده وسويداء فؤاده. فهو ينوح عليه نواحاً لا ينقطع، ويُعزيه الناس، ويذكرونه ثواب الصبر، فلا يزيده ذلك إلاّ نواحاً وحزناً. ونحن لا نستطيع أن نجد عند الفرزدق مثل هذا الرثاء، لأن نفسه لم تكن مفطورة على الحزن أو مهيأة له. فهي نفس غليظة جافة ويتندر الرواة عليه، فيقولون إنه حين توفيت زوجه النوار، لم يجد الناحة شعراً له، ينوحون به عليها، فناحوا بشعر جرير في رثاء زوجه[5] فشعر جرير كان أكثر سيرورة وانتشاراً

---

(١) ترتع: تهيم في هدوء وراحة بال. الهماهم: جمع الهمهمة: صوت معه بحح. المثكال: الكثير الثكل.

(٢) البلبال: البرحاء في الصدر، وهو الهمّ والوسوسة.

(٣) الرمّة: ما بلي من العظام.

(٤) الثوي: المقيم: الميِّت.

(٥) المرزباني: محمد بن عمران بن موسى: أبو عبد الله (٢٩٧-٣٨٤هـ /٩١٠-٩٩٤م) الموشح. ط. دار النهضة. مصر. القاهرة. ص: ١١٦.

من شعر صاحبيه بشهادتهما، وشهادة النقاد لسبب بسيط، وهو أنه أقرب إلى نفوس معاصريه، إذ اندمج في الحياة الجديدة، بأكثر مما اندمج زميلاه فكان طبيعياً أن تصبح أساليبه أكثر ذيوعاً وأكثر إلفةً للنّاس[1] وهذا ما نراه مثلاً، في رثائه لولده سوادة، حيث نرى ألفاظه تقطر حزناً وكمداً في قوله:

قالوا نَصيبُكَ مِنْ أجْرٍ فَقُلْتُ لَهُمْ ... كيفَ العزاءُ وقد فارقتُ أشبالي
فارَقْتِنِي حِيْنَ كَفَّ الْدهرُ مِنْ بَصَرِيْ ... وَحينَ صِرْتُ كَعَظْمِ الرُّمَّةِ البالي
إنَّ الثويَّ بذي الزّيتون فاحْتَسِبِيْ ... قدْ أسْرَعَ اليَوْمَ في عقلي وفي حالي

وفي زيادة من الشواهد التي تثبت ذيوع شعره في الرثاء، وإلفته للنّاس، نثبت رثاءهُ لعبد العزيز بن الوليد الذي يقول فيه:

نَعَوا عَبْدَ العزيزِ، فقلتُ: هَـذا ... جَليلُ الرُّزْء، والحَدَثُ الكَبيرُ[2]
فَبِتْنا لا نَقَرُّ بِطَعْمِ نَوْمٍ ... ولا لَيْلٌ، تُكابِدُهُ، قَصِيرُ
فَهَدَّ الأرْضَ مَصْرَعُهُ، فبادَتْ ... رَواسِيها، وَنُضِّبَتْ البُحورُ.
وأظْلَمَتِ البِلادُ عَلَيْهِ حُزْناً ... وَقُلْتُ: أفارَقَ القمرُ المُنيرُ
وَكُلُّ بَنِي الوَلِيْدِ أَسَرَّ حُزْناً ... وَكلُّ القَوْم مُحْتَسِبٌ صَبورُ[3]
وَكيفَ الصبْرُ إذْ نَظَروا إليهِ ... يُرَدُّ على سَقائِفِهِ الحفيرُ[4]

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص:٢١٦.
(٢) الرزء: المصيبة.
(٣) احتسب الرّجل ولداً له: فقده كبيرا.
(٤) السقائق: أي ألواح القبر. الحفير: التراب.

تَـزُوْرُ بَنـاتُهُ جَدَثاً مُقيْماً، بِـنَفْـسـيْ ذَلِكَ الحَدَثُ المُزْوَرُ
بَكيْ اهْلُ العِراقِ، وأَهْلُ نَجْـدٍ على عَبْدِ العزيزِ، وَمَنْ يَغُورُ[1]
وَأَهْـلُ الشَّامِ قَدْ وجَدُوا عَـلَيْهِ وَأَحْزَنَـهُمْ، وزُلْـزِلَتَ القُصورُ

والحديث عن جرير، لابد أن تستدعي الحديث عن الفرزدق، وخاصةً في الرثاء. فهما صنوان لا يفترقان. وربَطت بينهما الأقدار في النشأة، فكان مولدهما في عامين متقاربين، سبق إليه الفرزدق ببضع سنوات. وربطت بينهما في الوفاة، فماتا في عام واحد. ويتفق الذين أرَّخوا لهما أنهما ماتا في عام واحد، ثم يختلفون في تحديده بما لا يسبق عام (١١٠هـ / ٧٢٩م)، ولا يتأخر عن (١١٤هـ/ ٧٣٣م)[2]. ولَمَّا أدرك جريراً نعي الفرزدق، قال: مات الفرزدق، بعد ما جدعته، ليت الفرزدق ، كان عاش قليلاً. فَلِيْمَ على ذلك، وقيل له: كان الأجدر بك ان ترثيه. ففكَّر، ثم رثاه بثلاث مقطوعات، وقد اخترنا أطول مرثاةٍ منها، والتي فيها يقول:

لَعَمْرِيْ لَقَدْ أَشجَىْ تَمِيْماً وَهَدَّها على نَكَباتِ الدَّهْرِ مَوْتُ الفرزدقِ
عَشيَّةَ راحوا لِلْفِراقِ بِنَعْشِـهِ إلى جَدَثٍ في هُوَّةِالأرضِ مُعْمَقِ
لَقَدْ غادَروا، في اللَّحدِ مَنْ كانَ يَنتَميْ
إلى كـلِّ نَـجْـمٍ في الـسَّماءِ مُحَلِّقِ
ثَوَى حامِلُ الأثقالِ عَنْ كُلِّ مُغْرَمٍ وَدامِغُ شَيْطانِ الغَشومِ السَّمَلَّقِ[3]

---

(١) يغور: يأتي الغور.
(٢) ابن عبد ربه: أحمد بن محمد: العقد الفريد: ج ٦: ص: ٢٢٢.
(٣) الغشوم: الظالم – السملّق: الشامخ الطويل.

عِمادُ تميمٍ كُلِّها، وَلِسانُها وَناطِقُها البَذّاخُ في كُلِّ مَنْطِقِ[1]

فَمَنْ لِذَوِي الأَرْحامِ، بَعْدَ ابنِ غالبٍ

لِجارٍ، وعانٍ في السَّلاسِلِ مُوثَقِ؟

وَمَنْ لِيَتيمٍ، بَعْدَ مَوْتِ ابنِ غالِبٍ وَأُمِّ عِيالٍ ساغِبِينَ ودَرْدَقِ[2]

وَمَنْ يُطْلِقُ الأَسرَى، وَمَنْ يَحْقُنُ الدِّما

بِداهُ، وَيَشْفِي صَدْرَ حَرّانَ مُحْنَقِ؟

وَكَمْ مِنْ دَمٍ غالٍ تَحَمَّلَ ثِقْلَهُ وكانَ حَمُولاً في وَفاءٍ وَمَصْدَقِ

وَكَمْ حِصْنِ جَبّارٍ هُمامٍ، وسوقةٍ إذا ما أَتَى أَبْوابَهُ لَمْ تُغلَقِ

تُفَتَّحُ أبوابُ المُلُوكِ لِوَجْهِهِ بِغَيْرِ حِجابٍ دُونَهُ أو تَمَلُّقِ

لِتَبْكِ عليهِ الإِنسُ وَالجِنُّ إذْ ثَوىْ فَتى مُضَرٍ في كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ

فتى عاشَ يَبْنِي المَجْدَ، تِسعينَ حِجَّةً وَكانَ إلى الخَيْراتِ والمجدِ يَرْتَقِيْ

فَما ماتَ حتّى لَمْ يُخَلِّفْ وَراءَهُ بِحَيَّةِ وادٍ صَوْلَةً غَيْرَ مُصْعَقِ

ووراء هذه الأبيات، عاطفةٌ جيّاشة بفيض الذكريات المختزنة في نفس جرير، وقد عاشها مع الفرزدق بحُلوِّها ومُرِّها، وبقي منها نقشٌ على ورقٍ طبعها الشاعر بكلماته الصادقة، التي يصوِّر بها لوعتهُ من فراق صنوٍ كان رفيقاً له في نقائضه، التي لم تصوِّر عداوة، بل تصوِّر تاريخاً طويلاً من التنافس على أولويَّة الشعر.

---

(١) البذّاخ: المفخور، المتكبِّر.

(٢) الدَّردق: الأطفال.

ومن مصداقية هذه العاطفة، قوله - أيضاً - في رثاء الفرزدق:

فُجِعْنا بِحمّالِ الديّاتِ ابن غالبٍ وَحامي تَميْمٍ عِرْضَها، والمُراجِمِ
بَكَيْناكَ حِدْثانَ الفِراقِ، وإنّما بَكَيْناكَ إذْ نابَتْ أُمورُ العظائِمِ
فَلا حمَلَتْ بَعْدَ ابْنِ لَيْلى مَهيْرَةٌ ولا شَدَّ أنساعُ المطيِّ الرَّواسم

ومن أمثال هذا الرثاء الفيّاض بعاطفة الشاعر الوجدانية، نذكر رثاءهُ في جبيرٍ بن عياض الكليبي، الذي يقول فيه:

لَعَمْري، لَئِنْ خلَّى جُبَيْرٌ مَكانَهُ لَقَدْ كان شَعْشاعَ العَشِيَّةِ شَيْظَما(١)
أشمُّ، طُوَالَ السَّاعِدَيْن، ترى لَهُ إذا القَوْمُ هابوا القَوْمَ أنْ يَتَقَدَّما
لَعَمْري، لَقَدْ عالى على النَّعْشِ مُحْرِزٌ فتىً نالَ قِدْماً عِفَّةً وَتَكَرُّما
فتىً كانَ أحْيى مِنْ فَتاةٍ حَيِيَّةٍ وَأشْجَعَ مِنْ لَيْثٍ بخَفَّانٍ، مُقْدِما(٢)
إذا اللَّحْمُ كان الزَّادَ، لَمْ يُلْفَ لَحْمُهُ جميعاً، ولكنْ شاعَ في الحيِّ الْحُما
إذا الأمْرُ نابَ الحيَّ لَمْ يُقْضَ دونَهُ وإنْ طَرَقَ الأضيافُ لَيْلاً تَبَسَّمَا

وإذا تبعنا رثاءهُ في باقي قصائده، نجد أنَّ السهولة هي الغالبة على شعره، لأنها تصوِّر طباعهُ السمحة، ونفسه الرقيقة المطمئنة. ولقد اتفق المؤرخون، عالى أنَّ جريراً، كان رجلاً مؤمناً، شديد التمسك بدينه. ولذا فهو في الرثاء - مع نظيره الفرزدق - غيره في النقائض لأنَّه في الرِّثاء يصوِّر عاطفته الصادقة، لا مباراته الشعرية.

---

(١) الشعشاع: المشوق، الطويل، اللبق، الخفيف. الشيظم: الطويل كذلك.
(٢) خفان: اسم موضع مشهور بكثرة أسوده، قريب من الكوفة.

وكان على هذه الحال في جميع مراتبه مع مَنْ عرفهم وعاش معهم. فهو وفيٌّ أمينٌ على العهد، في لحظة يلاقي المرء ربَّهُ، ويخرج من دنياه، حيث يؤدّي للمتوفّى واجب الرثاء المنسجم وطبيعة الأخلاق التي سعى أن يكون متلبِّساً قيمها الرفيعة.

الغزل:

إن الغزل المرويّ عن جرير، يمثل سماته الخلقية التي عاش عليها في مجتمعه، ويمثل واقع النساء والفتيات اللائي تغزل بهن. فلم يكن مجتمعه ماجناً كسائر مجتمعات الخمرة والخلاعة، حيث كان بعض الشعراء في عصره، يفحشون في الغزل، ويقولون فيه الأشعار البعيدة عن واقع شعر جرير. وفرق بين أن يكون المجتمع حرّاً، وأن يكون ماجناً، فالذي لا ريب فيه ، أن المرأة نالت في العصر الأموي، حرّيّةً واسعةً، لم تكن جدتها أو أمها تنالها في صدر الإسلام. أو وقت الرسالة النبويّة. وإنّ طبيعة الحياة نفسها، وما كان فيها، من مزاحمة الجواري الأجنبيات، من فارسيات وروميات لها، جعلها تخرج من حجابها القديم، وتطلب الرجل وتغازله. ولكن الرواة وسعوا الصورة، وكادوا يجعلونا عبثاً خالصاً، وفرق بين العبث والحرية. ولذلك كنّا نجد نساء فضليات، في عصر جرير، كالسيدة سكينة بنت الحسين، تشوش صورتها في الأغاني، كما تشوّش صورة الفتاة الأولى في عهد عمر بن ابي ربيعة وهي الثريا[١] بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس[٢] ونثبت هذا لنقول،

(١) الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين. الأغاني: ح١، ص: ٢٢٨.
(٢) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الأدب الأموي: ص: ٢٢٣.

إن المرأة التي كان يتغزل بها جرير كانت تختلف اختلافاً تاماً عن تلك التي تغزل بها سائر الشعراء. فلو أخذنا قصيدته الغزلية «بان الخليط» نجد ان هذه القصيدة هي قصيدة هجاء للأخطل، الا انَّهُ اطال في الغزل، حتّى لم يبق للهجاء إلاَّ الأبيات القليلة؛ فإذا بالقصيدة أجدر بباب الغزل، منها بباب الهجاء. وفيها يقول:

بانَ الخليطُ، وَلَوْ طُوّعتُ ما بانا ... وَقَطَّعوا من حِبالِ الوَصْلِ أقرانا[1]

حَيِّ المَنازِلَ! إذْ لا نَبْتَغي بَدَلاً ... بالدّارِ داراً، وَلا الجيرانِ جيرانا!

قَدْ كُنْتُ في أثَرِ الأظْعانِ ذا طَرَبٍ ... مُرَوَّعاً مِنْ حِذارِ البَيْنِ مِحزانا[2]

يا رُبَّ مُكْتَئِبٍ لَوْ قَدْ نُعِيتُ لَهُ ... باكٍ، وَآخَرَ مَسرورٍ بِمَنْعانا!

لَوْ تَعْلَمِينَ الّذي نَلقىْ، أوَيْتِ لَنا ... أوْ تَسْمَعِينَ إلى ذِي العَرْشِ شَكْوانا،

كَصاحِبِ المَوْجِ، إذْ مالت سفينتُهُ ... يَدْعو إلى اللهِ إسْراراً وَ إعلانا.

يا أيّها الرّاكِبُ المُزْجي مَطِيَّتَهُ ... بَلِّغْ تَحِيَّتَنا، لُقِّيتَ حُمْلانا[3]

بَلِّغْ رَسائلَ عَنّا خَفَّ مَحْمَلُها ... على قَلائِصَ لم يَحْمِلْنَ حِيرانا[4]

كَيْما نَقولُ إذا بَلَّغْتَ حَاجَتَنا ... أنْتَ الأمينُ، إذا مُسْتَأمَنٌ خانا

---

(١) الأقران: جمع اقترن: حبل يجمع بين البعيرين.

(٢) الطَّرَب: الإهتزاز والإضطراب للفرح أو للحزن، والمقصود هنا المعنى الثاني. المحزان: الكثير الحزن.

(٣) الحُملان: ما يحمل عليه من الدواب في الهبة (الهدية) خاصةً.

(٤) القلائص: جمع القلوص: وهي من الإبل الطويلة القوائم، الشابة. الحيران: جمع الحوار: ولد الناقة: يريد أنّهنّ شابات، لا أولاد لهنّ.

تُهْدِيْ السَّلامَ لأَهْلِ الغَوْرِ مِنْ مَلَـحٍ   هَيْهات مِنْ مَلَحٍ بالغَوْرِ مُهْدانا[1]

أَحـبِـبْ إليَّ بِـذلكَ الـجـزْعِ مَنْزِلَةً
بالـطَّـلْـحِ طَلْحاً وبالأَعْطانِ أَعْطانا[2]

يا لَيْتَ ذا القلبَ لاقى مَنْ يُعَلِّلُهُ   أَوْ سـاقِياً فَسَقاهُ اليَوْمَ سُلْوانا[3]

أَوْ لَيْتَها لَمْ تُعَلِّقنا عَلاقتها،   وَلَمْ يَكُنْ داخِلَ الحُبُّ الذي كانا[4]

هلاَّ تَحرَّجْتِ مِمَّا تَفعَلِيْنَ بِنـا؟   يا أَطيَبَ النَّاسِ، يَوْمَ الدَّجْنِ أَرْدانا[5]

قالتْ: أَلِمَّ بنا، إنْ كُنْتَ مُنطَلِقاً،   ولا إخالُكَ، بَعْدَ اليوْمِ تَلْقانا

يا طَيْبَ! هَلْ مِنْ مَتاعٍ تُمَتِّعِيْنَ بِهِ
ضَيْفاً لكُمْ باكراً، يا طِيْبَ عَجْلانا[6]

مـا كُنْتُ أَوَّلَ مُشْتـاقٍ أَخا طَرَبٍ   هاجَتْ لَهُ غَدَواتُ البَيْنِ أَحْزانا

يا أُمَّ عَمْرٍو! جَزاكِ اللهُ مَغْفِرَةً   رُدِّي عَلَيَّ فُؤادي كالَّذي كانا

أَلَسْتِ أَحْسَنَ مَنْ يَمْشي على قَدَمٍ   يـا أَمْلَحَ النَّاس كلَّ النَّاس إنْسانا

---

(١) الغور: ما انحدر واطمأنَّ من الأرض. وهنا أسم مكان بعَيْنِه، وكذلك ملح.

(٢) الجزع: محلة القوم الطلح: شجر خفيف ترعاه الإبل. الأعطان: جمع العطن: المناخ حول الورد، مربض الغنم حول الماء.

(٣) السلوان: مصدر سلا الشيء: طابت نفسه عنه وذهل عن ذكره وهجره؛ شراب يسلِّي الشارب، على زعم العرب، أي يُنسيه همَّه.

(٤) العلاقة: الحب، الصداقة، الارتباط.

(٥) تحرَّج: تجنب الحرج: الإثم. الدَّجن: الغيم المطبق المظلم. الأردان: جمع الرُّدن. أصل الكم، طرفه الواسع.

(٦) طيبَ: ترخيم طيبة: اسم التي يشبب بها.

يَلْقَى غَرِيمُكُمُ من غَيْرِ عُسْرَتِكُمْ بالبَذْلِ نُجْلاً و بالإحسانِ حِرْمانا

لا تَأْمَنَنَّ، فإنّي غَيْرُ آمِنِهِ غَدْرَ الخَليلِ، إذا ما كانَ أَلْوانا

قَدْ خُنْتِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَخْشَى خيانَتكُمْ

ما كُنْتِ أوَّلَ موثوقٍ بِهِ خانا

لَقَدْ كَتَمْتُ الهوى حتّى تَهيَّمَني لا أستطيعُ لِهذا الحُبِّ كِتْمانا

كادَ الهَوى يومَ سَلْمانَيْنِ، يَقْتُلُني وكادَ يَقْتُلُني يَوْماً بِبَيْدانا[1]

وكاد يَوْمَ لِوى حوّاء يَقْتُلُني لَوْ كُنْتُ مِنْ زَفَراتِ البَيْنِ قُرْحانا[2]

لا بارَكَ اللهُ فِيمَنْ كانَ يَحْسِبُكُمْ إلاّ على العَهْدِ حتّى كان ما كانا

مِنْ حُبِّكُمْ؛ فَأعْلَمي لِلْحُبِّ مَنْزِلَةً نَهْوَى أميرَكُمُ، لَوْ كانَ يَهْوانا

لا بارَكَ اللهُ في الدُّنيا إذا انْقَطَعَتْ أسبابُ دُنياكِ مِنْ أسبابِ دُنيانا

يا أُمَّ عُثْمانَ إنَّ الحُبَّ عَنْ عَرَضٍ يُصْبي الحكيمَ وَيُبْكي العَيْنَ أحيانا

ضَنَّتْ بِمَوْرِدَةٍ كانَتْ لَنا شَرَعاً

تَشْفي صَدَى مُسْتَهامِ القَلْبِ صَدْيانا[3]

كَيْفَ التَّلاقي وَلا بالقَيْظِ مَحْضَرُكُمْ

مِنّا قَريبٌ، وَلا مَبْداكِ مَبْدانا؟

---

(١) سلمانين وبيدان: موضعان – وبيدان: ماء لبني جعفر.

(٢) لوى حوّاء: موضع في اليمامة. القُرحان: من مسّه القروح.

(٣) الموردة: مأتاة الماء والطريق إليه. الصدى: العطش الشديد.

نـهْوَىٰ ثرى العِرْقِ إذْ لَمْ نَلْقَ بَعْدَكُمُ

كالعِرْقِ عِرْقاً ولا السُّلاّنِ سُلاّنا[١]

مـا أحْدَثَ الدَّهرُ مِمّا تَعْلَمِيْنَ لَكُمْ   للحَبْلِ صَرْماً وَلا لِلعَهْدِ نِسْيانا

أَبُدِّلَ الَّليْلُ، لا تـسْرِيْ كَواكِبُهُ،   أَمْ طالَ حتّى حَسِبْتُ النَّجْمَ حَيْرانا

وفي هذا البيت الأخير نجد جريراً يعود بنا إلى العصر الجاهلي، حيث نجد أمرىء القيس(٨٠ قبل الهجرة/٥٦٥م) يصف الليل الطويل الذي يتتابه بقوله:

فَيا لَـكَ مِنْ لَـيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ   بِكُلِّ مَغارِ الفَتْلِ شدَّتْ بِيَذْبُلِ

كأنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَـتْ في مَصامِها   بِـأمْراسِ كتَّانٍ إلى صمِّ جَنْدَلِ

ومن هذا القول القديم بنى شاعرنا في غزليته النونيّة بيتاً يلخص بيتيْ امرىء القيس، ليرينا طول ليله، وهو بعيدٌ عن حبيبته يقاسي أنواع العذاب والوحشة، ثم يتابع وصف حاله بقوله:

يا رُبَّ عائِذَةٍ بالغَـوْرِ لَـوْ شَهِدَتْ   عَزَّتْ عَلَيْها بِدَيْرِ الَّلجِّ شَكْوانا[٢]

إنَّ العُيُونَ الَّتي في طَـرْفِها حَوَرٌ   قَتَلْـنَنا ثمَّ لَمْ يُحْيِيْنَ قَتْلانا[٣]

يَصْرَعْنَ ذا الُّبِّ حَتّـى لا حِراكَ بِهِ   وَهُـنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكانا

وهذان البيتان الأخيران يعدان من أعذب الأبيات الغزلية رِقَّةً وشفافيَّة ولا يخطر ببال قارىءٍ، غير مسبوقٍ بواقع حال إنشاد هذه

(١) العِرقْ: وادٍ بني حنظلة. السُّلاّن: وادٍ لبني عمر وبني تميم.
(٢) دير اللّج: موضع قريب من الحيرة
(٣) الحور: اشتداد سواد المقلة في شدّة بياضها، في شدّة بياض الجسد.

القصيدة أنّها قيلت في معرض الهجاء، وأنّ صاحبها قدّم للهجاء بمثل هذا الشعر الموضوع عادةً للعشق أو التشبيب. ويكمل جرير قصيدته مستطرداً بقوله:

يا رُبَّ غابِطِنا، لوْ كانَ يَطْلُبُكُم، لاقـىٰ مُباعَدَةً مِنْكُمْ وَحِرْمانا،

أَرَيْنَهُ المَوْتَ، حَتّىٰ لا حَياةَ بِهِ قَدْ كُنَّ دِنَّكَ، قَبْلَ اليَوْمَ أَدْيانا[1]

طارَ الفُؤادُ مَـعَ الخَوْدِ الّتي طَرَقَتْ في النَّوْمِ طَيِّبَةَ الأَعْطافِ مِبْدانا.[2]

مَثْلُوجَةَ الرِّيقِ بَعْدَ النَّوْمِ واضِعَةً عَنْ ذِي مَثانٍ تَمُجُّ المِسْكَ وَالبانا[3]

وهذا البيت الأخير يطابق تطابقاً واضحاً، مع بيت امرىء القيس في قصيدته اللامية، حيث يقول:

وَتُضْحى فَتِيتُ المِسْكِ فَوْقَ فِراشِها نَؤُومُ الضُّحى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

وفِعلُ تُضْحى هنا، فعلٌ تام، لأنَّ المعنى أنّها تكون وقت الضحى، ومعاني امرىء القيس مهرها جرير في قوله «مثلوجة الريق» وأضاف اليها بأسلوبه الرّقيق، ما يتناسب وواقع عصره. ولكنه لم يستطع أن ينفي عنه تأثّره التام بالقديم من الشعر الجاهلي، رغم ما بسط على هذا الشعر من حداثة و تجديد. ويستأنف المعاني التي أشرنا إليها فيقول مكملاً قصيدته:

---

(١) دِنّك: من دان فلاناً ديناً: حكم عليه، حاسبه، جازاه، أخضعه.

(٢) الخود: المرأة الشابة الحسناء. المبدان: السمينة، الجسيمة، وهذه من الصفات المحببة لدى المرأة يومها.

(٣) البان: نوع من الشجر يستخرج من حبّه دهن طيب. المثاني: جدائل الشعر مثنية بعضها على بعض.

تَسْتافُ بِالعَنْبَرِ الهِنْدِيِّ قاطِعَةٌ هَمَّ الضجيجِ، فلا دنيا كدنيانا
بِتْنا نَراها كأنَّا مالِكُونَ لنا يا لَيْتَها صَدَقَتْ بالحقِّ رُؤْيانا
قالتْ: تَعَزَّ، فإنَّ القوْمَ قَدْ جَعَلُوا دونَ الزِّيارَةِ أبْوابا وَخُزّانا
لَمَّا تَبَيَّنْتُ أنْ قَدْ حِيلَ دُونَهُمُ ظَلَّتْ عساكِرُ مِثْلُ المَوْتِ تَغْشانا

ويهمنا من هذا الذي أوردنا، الوقوف على حياة المرأة التي كان يتغزل بها جرير، فهي منعمة، وهي مخدومة بالجواري كتلك التي كانت في عصر امرىء القيس، حيث المترفات من النساء اللواتي يعشن في طبقة ميسورة غنيّة. ومن هنا كانت الظاهرة في تجديد شعر جرير ضمن الدولة الأموية، بإضفاء اللون المعاصر له، من انعكاسات العصور المتقدِّمة، فيرينا المرأة متحضِّرةً مبالغةً في تحضُّرها، وقد أصابت ضرباً من الحريّة، تحت تأثير الحياة الإجتماعيّة الحديثة. ثم يستأنف شاعرنا قصيدته بغزله الذي يقول فيه:

ماذا لَقِيتُ مِنَ الأَظْعانِ يَوْمَ قِنًى يَتْبَعْنَ مُغْتَرِباً بِالبَيْنِ ظَعَّانا،
أَتْبَعْتُهُمْ مُقْلَةً، إنْسانُها غَرِقٌ هَلْ يا تُرَى تارِكٌ لِلْعَيْنِ إنْسانا؟
كأنَّ أحداجَهُمْ تُحْدِيْ مُقَفِّيَةً نَخْلٌ بِمَلْهَمَ، أَوْ نَخْلٌ بقرّانا(١)
يا أُمَّ عُثْمانَ! ما تَلْقَىْ رَوَاحِلُنا لَوْ قِسْتِ مُصْبَحَنا مِنْ حَيْثُ مُمْسانا
تَخْدِيْ بِنا نُجُبٌ دَمَّى مَناسِمَها نَقْلُ الحَزابِيِّ حِزّاناً فَحِزّانا(٢)

---

(١) ملهم وقران: موضعان.
(٢) الحزابي: الغليظ الضخم من الرجال.

تَرْمي بِأعْيُـنِـها نَجْداً وَقَدْ قَـطَعَـتْ ... بَيْنَ السُّلَوْطَحِ والرَّوْحانِ صُوّانا[1]

يـا حَبَّذا جَـبَـلُ الرَّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ ... وحَبَّذا ساكِنُ الرَّيَّانِ مَنْ كانا!

وحَبَّـذا نَـفَـحـاتٌ مِـنْ يَـمانِيَةٍ ... تَأْتِيْكَ مِنْ قِبَلِ الرَّيَّانِ أَحْيانا[2]

هَبَّتْ شَمالاً فَذِكْرَى مـا ذَكَـرْتُكُمُ ... عِنْدَ الصَّفاةِ التي شَرْقِيَّ حَوْرانا؛

هَلْ يَرْجِعَنَّ، وَلَيْسَ الـدَّهـرُ مُرْتجِعاً ... عَيْشٌ بِهـا طالَ ما احْلَوْلى ومالانا

أَزْمانَ يَدْعُونَنِيْ الـشَّـيْـطانَ مِنْ غَزَلي ... وَكُنَّ يَهْوِيْنَنِيْ إِذْ كـنـتُ شيـطانا

مَــنْ ذا الَّذي ظَلَّ يَغْلِيْ أنْ أزُوْرَكُمُ ... أمْسَى عَلَيْهِ مَلِيْكُ النَّاسِ غَضْبانا

وَهكذا يقدّم لهجائه بهذه المقدّمة الغزلية الطويلة التي يبقي منها لهجاء الأخطل أربعة عشر بيتاً فقط. والغرابة تتأتّى عن سبب هذه الإطالة في أبيات الغزل، طالما أن الغرض ينحصر في الهجاء. ولكن الذي يتعرّف إلى نفسية جرير، يجده إنساناً يختلف عن بقية شعراء عصره، بدقّة وجدانيّته التي تأبى عليه بمخالفة واقعه الشعوري. فلعله هو يرمي إلى هجاء الأخطل، خطرت بباله بارقة رقّة نفسيه ترنو إلى عاطفةٍ إنسانيّة، فلم يتركها تمرّ دون الإتيان على ذكرها ضمن غزلٍ يتناسب وتمهيد القصيدة لغرضها. ولعلَّ الشاعر أراد بهذا التمهيد تذكيرنا بالرّقة التي تختزنها أريحيته الشاعريّة، والتّي هي عنده مخزون إيمان وتقى، وخصوبة خلق كريم. ولذا، فالهجاء عنده ليس غرضاً يسعى إليه، بل هو فنٌ يُخشى إتقانه، ويتفنّن بإيراده ضمن متطلبات

---

(١) السلوطح والروحان: أقصر بلاد بني سعد. الصوّان جمع الصوّة: المَظْلَم في الطريق.

(٢) اليمانية: رياح الجنوب.

العادات المتّبعة. وكلّما تتبعنا أثر الفن الغزليّ في شعره، نجده يقودنا إلى تحليل واقع العصر، وتناسبه مع كلّ حداثة أو تجديد يتماشى مع فطرة جرير المطبوعة على التفوق المتأتي من حسن إبداعه الشعريّ. ويبقى حديث ما كان يعقد بين شعر جرير، وبين قلوب النّاس، فهو أكثر ممّا كان يعقد بين شعر منافسيه وقلوبهم. فذلك أنّه كما يقول ابن قتيبة: «كان أحسن النّاس تشبيبا»[1] فشعبية جرير في قسط كبير منه، راجعة إلى أنّ جريرا كان يذهب فيه مذهباً عاطفياً. أيّ أنّه كان يفارق فيه بعض المفارقة مذهب «المدرسة العراقية» ويقارب فيه «المدرسة العاطفية الشعبية الحجازية» وهي المدرسة التي ظل زماناً ينكر على أصحابها أنهم بلغوا مبلغ الشعراء. ولم يكن الشعراء الآخرون أقلّ منه معالجةً للشعر العاطفي، ولم يكونوا يتعمدون إلى تجنب الغزل في استفتاح القصائد. ولكن جريراً كان أرق منهم نسيباً، وأخلص فيه طبعاً، وأقدر عليه، مع أنه كما تقول الرواية المنسوبة إليه، قال عن نفسه «ما عشقت قطّ، ولو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكي على ما فاتها من شبابها»[2] والكثيرون من الدارسين والمحققين لا يصدقون هذه الرواية، ولا يظنونها إلاّ من قبيل الغلوّ في تصوير قدرة الشاعر على معالجة هذا الفنّ، أو أنّ ذلك أدّعيَ على جرير جرياً مع روح التزمت، التي كانت عند بعض نقّاد

---

(١) ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم: الشعر و الشعراء: ص: ١٠٩. وقد قال ابن قتيبة في هذا الصدد: «حدثني سهل بن محمد عن الأصمعي قال: سمعت الحيّ يتحدثون عن جرير أنّه قال: لولا ما شغلني عن هذه الكلاب لشببت تشبيباً تحنّ منه العجوز إلى شبابها حنين الناقة إلى سقبها».

(٢) الأصبهاني: علي بن الحسين: الأغاني: ج٧: ص: ٥٢.

ذلك العصر وعلمائه في العراق، ممن كانوا يعتبرون غزل الشاعر مرآة تعكس مجونه العمليّ في الحياة، وجرير كان حريصاً على أن يؤخذ شعره مآخذ الأقوال التي لا تصوّر المجون فيه خلقية ثابتة. فقد «كان يختم مجلسه بالتسبيح فيطيل. فقال له رجل: ما يغني عنك التسبيح مع قذفك للمحصنات؟ فتبسم وقال:يا ابن أخي خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم، إنهم والله يبدأوني ثم لا أحلم»[1].

هذا المعنى، هو الذي كان يحمل جريراً على التبروء من أن يكون لغزله أصل عمليّ في الحياة مطلقاً، حتّى ولو كان غزلاً عفيفاً. ثم إنّه كان شاعراً هجاء، وكان غزله استفتاحاً لهجائه. فلو أجرى قوله في المرأة مجرى الحقيقة في شعره الهجائي، لكان ذلك منه قذفاً للمحصنات يأخذه السلطان والقانون، وليس يصحّ عند أحدٍ أن لا يكون شاعر كجرير عشق قط. كانت قوة العاطفة في شعر جرير بالقياس إلى شعر شعراء العراق، سبباً في قربه إلى النفوس. وكانت أقوى ما تبدو في ذلك اللون الذي يتناول عاطفة مشتركة بين الناس كالغزل[2].

الفخر:

يُعدُّ عصر بني أُميّة، من العصور التي عززت اندلاع نار العصبيات بين القبائل، حيث أدّى اشتعال هذه النّار، إلى بروز شعر المفاخرة، الذي يوشك قارىء الشعر الأمويّ أن يظنّ أنّه كان أهمّ موضوع،

(١) الأصبهاني: علي بن الحسين: أبو الفرج: الأغاني: ج٧٠ ص:٥٢.
(٢) البهبيتي: نجيب محمد: تاريخ الشعر العربي: ص: ٢٨٨.

يجذب إليه الشعراء، وخاصةً في العراق، حيث تكتّل القبائل في البصرة والكوفة، وتقابل القبائل اليمنيّة مع القبائل المضريّة، ونظر كلٌ قبيلة في نفسها، وفيما كان بينها وبين غيرها قديماً من أيّام وحروب، واستحالة ذلك كله شعراً. وبمجيء العصر الأمويّ، واستقرار القبائل في مدينتي البصرة والكوفة، وعودة العصبيات، عاد تجمّع وحشد هذه القبائل، في المِرْبَد وفي الكُنَاسة، حول الشعراء، يستمعون منهم إلى ما ينشدونه من مفاخرهم، وكأنهم يجدون في ذلك لهواً لهم وتسلية. وأظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن الفخر تحول تحت تأثير هذا التطور في حياة العرب إلى فنٍّ جديد، وهو فنّ لا نشك في أنَّ له بذوراً قديمة، ولكنه أصبح الآن شيئاً آخر. أمَّا من حيث الغاية، فقد أصبح يُراد به الى اللّهو، لا الى الجدّ، كما كان الشأن في القديم، وأمَّا من حيث الصورة، فقد أخذ يختلف وجوهاً كثيرة من الاختلاف، اذ اصبح ينشد يوميا، واصبح الشعراء يحترفونه احترافاً[1] وهذا أهم فرق بين الفخر في القديم وفي الحديث، أو في العصر الجاهلي والعصر الأموي، فالشاعر الجاهلي لم يكن يفخر ليطرب الجمهور بفخره، وليقطع له أوقات فراغه، ولم يكن يحترف الفخر على هذا النحو الذي نجده في عصر بني أمية. وخير مثل يُصوِّر ذلك، جرير وصاحباه الأخطل والفرزدق، فإن الفخر تحول عندهم الى حرفة مباهاة، وخاصةً بين جرير والفرزدق، فإنّهما كانا يعيشان في البصرة، وكانا يختلفان الى المربد، فينشدان الناس هناك اهاجيهما ومفاخرهما، ويستثيران في أثناء ذلك حماس الجماهير، وما يزال كل منهما يحاول أن يبلغ من استثارتها كل مبلغ. ومن امثال

---

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي ص: ١٦٤.

مفاخرته على الفرزدق قوله:

أَقْصِرْ فَإِنَّكَ مَا لَمْ تُونِسُوا فَزَعاً ... عِنْدَ المِرَاءِ خَسِيْفَ النُوكِ قَبْقَابُ[1]

فَاسْأَلْ أَقَوْمُكَ أَمْ قَوْمِيْ هُمُ ضَرَبُوا ... هَـامَ المُلُوْكِ وَأَهْلُ الشِّرْكِ أَحْزَابُ

الضَّارِبِيْـنَ زُحُوفـاً يَـوْمَ ذِيْ نـجبٍ ... فِيهَا الدُّرُوْعُ وَفِيْهَا البَيْضُ والغَابُ[2]

مِنَّا عُتَيْبَةُ فَانظُرْ مَنْ تُعِدُّ لَهُ ... والحَارِثَانِ وَمِنَّا الرِّدْفُ عَتَّابُ[3]

مِنَّا فَوارِسُ يَوْمِ الصَّمْدِ كانَ لَهُـمْ ... قَتْلَى وَأَسْرَى وَأَسْلابٌ وأَسْلابُ

فَاسْأَلْ تَمِيْماً مَنْ الحَامُوْنَ ثَغْرَهُـمُ ... وَالوَالِجُوْنَ إِذَا مَا قُعْقِعَ البَابُ[4]

وليس هذا كلّ ما يلاحظ على فنّ الفخر لهذا العصر، فنحن نلاحظ أيضاً أنّ الشاعر لا يعبّر عن فخره بنفسه فحسب، وإنما يعبر – أيضاً – عن قبيلة يتحدث باسمها كما في قوله: «منّا فوارس يوم الصّمد». وكانت القبيلة تتخذ شاعراً يعبّر عنها، وليس من الضروري ان يكون منها، كما هو شأن جرير بالقياس الى قيس، لذلك كنّا نزعم أن مفاخر جرير والأخطل فنٌ جديدٌ لم يسبق إليه الشعراء في الجاهلية، إذ كان كلّ شاعر يتحدّث باسم قبيلة، أمّا في هذا العصر، فإنّ الشاعر قد يتحدث ويفاخر باسم قبيلة أخرى، ولا مانع – مطلقاً – من ان يضطره ذلك الى ان يقف ضد قومه وقبيلته

---

(١) المراء: الجدل – النوك: الحمقى – قبقاب: ثرثار.
(٢) الزحوف: الجيش العظيم – البيض: السيوف اللامعة – الغاب: الرماح.
(٣) عتيبة: ابن الحارث بن شهاب – الحارثان: سويد والحارث ابنا شهاب.
(٤) الوالجون: الداخلون – قعقع: أحدث صوتاً.

نفسها، كما حدث بين جرير والفرزدق. ومن المفاخر التي يفخر بها على الفرزدق قوله:

فــإنّــا أُنــاسٌ نُحِبُّ الوَفَاءَ   حِــذار الأحَادِيْــثَ في المَشْهَدِ
وَلاَ نَحْتَبِي عِنْدَ عَقْدِ الجوَارِ   بِغَيْــرِ السُّيُوْفِ وَلاَ نَرْتَدِيْ
وَيَــوْمــاً بِبَلْقَاْءَ يَا ابنَ العُــيونِ   شــهِدْنَا الطِّعَانَ وَلَمْ تَشْهَدِ[1]
فَصَبَّحْــنَ أَبــجَــرَ والحَوْفَزَانَ   بِــوَرْدٍ مُشِيــحٍ عَلَى الرُّوَّدِ[2]
وَيَــوْمَ البَــحِيْرَيْــنِ أَلحَقْنَنَا   لَــهُــنَّ أَحَــادِيْــدُ في القَرْدَدِ
نُــعِــضُّ السُّيُوْفَ بِهَام المُلُوْكِ   وَنَشْفِيْ الطِّمَاحَ مِنَ الأصْيَدِ[3]

إنها أبيات مفاخرة، يستعمل فيها كلمة (نا) ليدل بها على جماعة يتكلّم باسمهم، ويجعلهم شرفه ومنزلته بين الناس، ولكنه يستعمل غريباً من اللفظ معقداً،نحسب أنفسنا معه، وكأننا في عصرٍ جاهليٍّ متقدم. ولعل هذا يوصلنا الى أن نرى جريراً كان يرى العصبية الجاهلية البدوية، أثناء مفاخرته بشعره، فيجعل المناظرات التي مسّت كلَّ جانبٍ في الحياة الدينية والعقلية، صدىً لتلك العصبية في قصائده ويجعل انسياقه في مفاخراته مع الأخطل أو مع الفرزدق، وكأنه تقلد به علماء البصرة والكوفة، حين يأخذ واحد منهم في الدفاع عن

(١) في هذا البيت مفاخرة على الفرزدق لأنه لم يلتحق بموقعه «يوم بلقاء».
(٢) الجرد الحوفزان: اسماء مواقع – الورد: المكان المشرف على الحمى – مشيح: مطل.
(٣) الهام: الرأس من كل شيء، وتطلق على الجسد أيضاً – الطماح: السيوف – الأصيد: الشامخ المتكبر.

فكرة معينة، كفكرة الجبر، او القدر، أو الإرجاء. وكهذه المناقشات التي لا تنتهي في مسائل الفقه والتشريع، مما كان يراه جرير كل يوم في المسجد الجامع، وفي المربد وفي الطرقات، وفي مجالس الناس. ولعلنا بذلك، نستطيع أن نفهم، كيف أن جريراً التميمي، كان يأخذ صف قيس المخاصمة لقبيلته، وكيف كان يعيش للنضال عنها، فقد تحولت المسألة عنده الى فكرة، أو ما يشبه العقيدة، أو تسلية نفسه والجمهور من حوله بهذه المحاورة[1].

فالجوّ الذي شاعت فيه المفاخرة بين جرير وبين كلٍّ من الأخطل والفرزدق، كان جواً جديداً، فيه مناظرات العلماء ومناقشاتهم ومحاوراتهم. ومن أمثال تلك المناقشة التي يناقش من خلالها جرير الأخطل في المفاخرة، قوله له في مفاخرة قيس على تغلب ، ومفاخرته برسول الله:

كَذَلِكَ أَعْطَى اللهُ قَيْساً وخِنْدِفاً   خزَائنَ لَمْ يُفَتَّحْ لِتَغْلِبَ بـابُهَا

وَمِنَّا رَسُوْلُ اللهِ حقّاً وَلَمْ يَزَلْ   لَنَا بَطْنُ بَطْحَاوَي مِنًى وَقِبَابِهَا

وَإنَّ لَنَا نَجْداً وَغَوْرَ تِهَامَةٍ   نَسُوْقُ جِبَالَ العِزِّ شُمّاً هِضَابُهَا

والواقع أنّه تكوّنت في العقل العربيّ، في أثناء هذا العصر الأمويّ، قشرة من الثقافة، أتاحت لجرير، أنْ يتفوّق ضروباً من التفوّق، في كلِّ فن عالجه من فنون الشعر. وقد سعى شاعرنا الى غاية، يريد أن يلائم فيها بين الفخر وما أصاب العقل العربيّ من تطور ونهوض، من أمثال ذلك قوله مفاخراً في خطابه للأخطل:

---

(١) ضيف: شوقي: التطور والتجديد في الشعر الأموي ص: ١٧٠.

وَإِنَّا لَنَقْرِيْ حِيْن يُحْمَدُ بالقِرى   وَلَمْ يَتَوَنَقِيٍّ في سُلامى ولا صُلْبِ[1]

نُشَرِّفُ عَادِيًّا مِنَ الْمَجْدِ لَمْ تَزَلْ   عَلَاَلِيَّةٌ تُبْنَى عَلَى بَاذِخٍ صَعْبِ

فَـمَا لُمْـتُ قَوْمِيْ فِي البِنَاءِ الَّذي بَنَوْا

وَمَا كان عَنْهُمْ فِي ذِيَادِي مِن عتبِ[2]

إذا قَرَعَ الصَّاقورُ مَتْنَ صَفَاتِنَا   بَنَـا عن ذُرُوءٍ مِنْ حَزَابِيْهَا الحُدْبِ[3]

إذَا أنا جـَازَيْتُ القَرِيْنَ تَمَرَّسَتْ   جِبَالِي وَرَخَّى مِنْ عَلابِيَهُ جنْبِي[4]

وإذا رجعنا الى مفاخر جرير، نراه يحاول بكل ما يستطيع أن يتثقف بتاريخ قيس وتغلب، وأن يتصرّف الى كل ما لهما من أمجاد في الجاهلية، ليعرف كيف يحكم معانيه في مفاخرته، فتأتي سليمةً تعجب الناس، وتتفق مع تاريخ كل من القبيلتين.

ومن أمثال ذلك قوله مفاخراً في مخاطبته للفرزدق:

إنِّي ابنُ حَنْظَلَةَ الحِسَانِ وُجُوهُهُمْ   وَالأعْظَمِيْنَ مَسَاعِياً وَجُدُودَا

والأكْرَمِيْنَ مُرَكَّـباً، إذْ رُكِّبُوا   وَالأطْيَبِيْنَ مِنَ التُّرَابِ صَعِيْدا[5]

وَلَهُمْ مَجَالِسُ لاَ مَجَالِسَ مِثْلُهَا   حَسَـباً يُؤَثِّلُ طارِفاً وَتَلِيْدا[6]

---

(١) نقي: المخ – السُّلامي: العظام المجوفة.

(٢) ذيادي: حماي.

(٣) الصاقور: المعول – الدروء: الجوانب – الحزابي: الجوانب غير السليمة.

(٤) علابيه: عصبتا العنق.

(٥) الصعيد: وجه الأرض.

(٦) الأثل: التأصل في الحسب والشرف.

إنّا إذَا قَـرَعَ الـعَدُوُّ صِفَاتَنَا لأقُوا لَنَا حَجَراً أصَمَّ صَلودا

مَا مِثْلُ نَبْعَتِنَا أعزُّ مُرَكَّباً، وَأقَلُّ قَادِحَةً، وَأصْلَبُ عُوْدا

إنّا لَنَذْعَرُ، يَا قُفَيْرُ عَدُوَّنَا بِالخَيْلِ لاحِقَةَ الأيَاطِلِ قُودَا[١]

نَحْنُ المُلُوكُ إذَا أتَوْا في أهْلِهِمْ وَإذَا لَقِيْتَ بِنَا رَأيْتَ أسُوْدا

اللابِسِيْنَ لِكُلِّ يَوْمِ حَفِيْظَةٍ حَلَقاً يُدَاخِلُ شَمُّهُ مَسْرُوْدا

سَائِل ذَوِيْ يَمَنٍ وَسَائِلْهُمْ بِنَا في الأزْدِ إذْ نَدَبُوا لَنَا مَسْعُودا[٢]

إنا لَنَذْكُرُ مَا يُقَالُ ضُحَى غَدٍ عِنْدَ الحِفَاظِ وَنَقْتُلُ الصِّنْدِيْدا[٣]

وَنَكُرُّ مَحْمِيَةً، وَتَمْنَعُ سَرْحَنَا جُرْدٌ تَرَى لِمُغَارِهَا أخْدُوْدَا[٤]

نَبْنِيْ عَلَى سَنَنِ العَدُوِّ بُيُوتَنَا لاَ نَسْتَجِيرُ، وَلاَ نَحُلُّ خَرِيدا[٥]

مِنّا فَوَارِسُ مَنْعِجٍ وَفَوَارِسٌ شَدُّوا وِثَاقَ الحَوْفَزَانِ بَأوْدَا[٦]

فَلَرُبَّ جَبَّارٍ قَعَرْنَا عَنْوَةً مَلِكٌ يَجُرُّ سَلاسِلاً وَقُيُودا

وَلَقَدْ جَنَبْنَا الخَيْلَ وَهِيَ شَوَازِبٌ مُتَسَرْبِلِيْنَ مُضَاعَفاً مَسْرُوْدا

وَلَقَدْ جَرَيْتُ فَجِئْتُ أوَّلَ سَابِقٍ عِنْدَ المَوَاطِنِ مُبْدِياً وَمُعِيْدا

وَجَهَدْتَ جَهْدَكَ يَا فرزدقُ كُلَّهُ فَنَزَعْتَ لاَ ظَفِراً وَلاَ مَحْمُوْدَا

---

(١) الأياطل: الخواصر.

(٢) مسعود: هو سيد الأزد ويدعى مسعود بن عمر الفتكي.

(٣) الصنديد: البطل العظيم.

(٤) المغار: الكرّ والهجوم.

(٥) الخريد: كل قليل في كثير.

(٦) الحوفزان: الحارث بن شريك.

إنّا وإنْ رَغَمَتْ أنوفُ مُجَاشِعٍ خَيْرٌ فَوَارِسَ مِنْهُمُ وَوُفُوْدَا
نَسْرِيْ إذَا سَرَتِ النُّجُوْمُ وَشَبَّهَتْ بَقَراً بِبُرْقَةِ عَالِجٍ مَطْرُوْدَا[1]

وإنّا لنجد في شعر المفاخرة، أبياتاً لجرير في شعر الحرب، تفيض فروسيةً في وصف هجمة الخيل متلاحقة على العدو. واعتصام الفرسان بغاراتها، وضمورها طول الطراد. فكان جرير بأبياته هذه القلائل مصوراً للأفراس المعدة للحرب، وفي أربع صور متتالية وهي: عادية، جرداء، مقودة اللحم، مطوية المتون. وإنَّ في ثبات جرير لحرب هجاءٍ ومفاخرةٍ عوان، دامت أربعين عاماً، كان يشنها عليه من كل أمية، ومعهما ثمانون شاعراً فيهم السليطي والبعيث والأشيب بن رملة، لدليلاً على صلابة عوده، وقوّة نفسه وشجاعته، فلا غرابة إذا قال من شعره في الحرب، والمفاخرة، وأثرت له أبيات كثيرة في الحماسة[2] إنّه كان يفخر بلسانه، وكان يفخر بسيفه فيقول:

جَرِيءِ الجَنَانِ لاَ أُهَابُ مِنَ الرَّدَى إذَا مَا جَعَلْتُ السَّيْفَ قَبْضَ بَنَانِيَا
وَلَيْسَ لِسَيْفِي فِي العِظَامِ بَقِيَّةٌ وَلِلسَّيْفِ أشْوَى وَقْعَةً مِن لِسَانِيَا

ومن ها هنا علّم جرير أبا تمّام والمتنبي، كيف بفضلان السيف على القلم إذ كان جرير يقول (إن السيف أنجع من اللسان) وكان جرير يشهد الغزوة، ويكون في العسكر[3] وكانت نفسه تعلو به الى مشارف الفرسان الأبطال، وكأنّه كان يحسُّ في نفسه الحس الحربي المكبوت، وقد ظهر فيه هذا الشعور حين قال الحجاج للفرزدق

(١) نسري: نمشي ليلاً.
(٢) المحلسن: زكي: شعر الحرب في آدب العرب: ص: ١١٨.
(٣) الأصبهاني: ابو الفرج: علي بن الحسين: ج ٧: ص: ٧٠.

وجرير، وهو في قصر بالبصرة «ائتياني في لباس آبائكما في الجاهلية» فلبس الفرزدق الديباج والخز وقعد في قبّة. وشاور جرير دهاة بني يربوع فقالوا له: ما لباس آبائنا إلاّ الحديد، فلبس جرير درعاً، وتقلّد سيفاً، وأخذ رمحاً، وركب فرساً لعباد ابن الحصين، وأقبل في اربعين فارساً من بني يربوع، وجاء الفرزدق في هيئته تلك، فقال جرير في هذه الحادثة[1]:

لبست سلاحي والفرزدق لعبة   عليه وشاحاً كرّجٍ وخلاخِلُه[2]

أعدُّوا مَـعَ الخزِّ المَلاَءَ فإنّما   جريرٌ لكمْ بَعْلٌ وأنتمْ حلائِلُه

وكانت كوا من بطولته تظهر في ثنايا قصائده، فهو حين يمدح عبد العزيز بن الوليد، والحجاج وأولاد عبد الملك، كان يفاخر بفروسية قومه، وركوبهم للحرب فيقول:

لقد علم الحيُّ المُصبَّحُ أنَّنا   متَىْ مَا يُقَلْ يَا للفوارِسِ نَرْكَبِ

لَنَا فارِطاً حوْضِ الرَّسُوْلِ وَحَوضُنَا

بِنَعْمَانَ والأشْهَادُ لَيْسَ بُغيَّبِ[3]

وكان يذكر مواضي قومه في أيام العرب، ويبيّن انتصاراتهم ومآثر عزّهم التي تبعث فيه البطولة والفخر كمثل قوله:

وَيَوْمَ بَنِي رَبِيْعَةَ قَدْ لَحِقْنَا   وَذُدْنَا يَوْمَ ذِيْ نَجَبٍ كِلاَبَا[4]

---

(١) الأصبهاني: ابو الفرج: علي بن الحسين: الأغاني: ج ٧ ص: ٦٧.

(٢) الوشاح الكرجي: الوشاح المخنث والمحيط.

(٣) حوض الرسول: حوض النبي يوم القيامة، النعمان: حياض ماء بجبل عرفه.

وَيَوْمَ الخَوْفَزَانِ فَأَيْمَنَ تَيْمٌ   فَدْعَى يَوْمَ ذلِكَ أَوْ تُجَاهَا(١)

سَمَوْنَا بِالفَوَارِسِ مُلْجِمِيهَا   مِنَ الفَوْرَيْنِ تَطَّلِعُ النِّقَابَا(٢)

ولا يفتر خلال شعره كله عن ترديد فروسية قومه ومآثرهم السالفة كقوله:

أَلَيْسَ فَوَارِسُ الحَضَبَاتِ مِنَّا   إِذَا مَا الحَرْبُ هَاجَ لَهَا عَكُوبُ(٣)

وسار في شعره على غرار أصحابه أهل الهجاء، يمزج المدح بالفخر، والهجاء بوصف الحرب وذكر السلاح والأيام. ويظلُّ أبداً مولعاً بأوصاف الخيل، وتصوير الفروسية. وفي شعر جرير، أبيات كثيرة تشير الى حوادث سياسية، ووقائع حرب كان يتخذها وسيلة لغاية الفخر. ولم يكن ليترك حادثة سياسية كبرى إلاَّ سجَّلها في شعره(٤).

وهكذا كانت المفاخرة - عند جرير - تتألف من عناصر قديمة تتصل بهذا الحسّ التاريخي بكل ما للعرب في جاهليتهم من حروب ومآثر، كما تتألف من عناصر جديدة تتصل بهذا الحسّ الحاضر، بكل ما يتصل بالدولة الحديثة، من ظروف سياسية أو دينية. وكان شاعرنا ما يزال يَصْدُرُ عن هذين الحسّين،حتّى يثبت تفوقه، وأنّه السّابق

---

(٧) يوم بني ربيعة هو: يوم الرّغام: من أيام العرب، ذدنا: حمينا.

(١) الخوفزان: الحارث بن شريكة.

(٢) النقاب: مفردها نقب: وهو الطريق بين جبلين.

(٣) العكوب: الغبار.

(٤) الحاسن: زكي: شعر الحرب في أدب العرب: ص: ١١٨ - ١١٩.

المُجلّي في المناظرة. وكانت مفاخره تعود الى المفاخرات القديمة، وعلى رأسها الأيّام، وهي بجانب ذلك تتآلف من موادّ حديثة، تتصل بالظروف السياسية، وبعناصر الإسلام. ونرى أنّه بفخر ذلك، قد ولّد معاني كثيرة، كانت ثمرةً للرقي العقلي الذي أحرزه الفكر العربي في عصر بني أميّة.

الخصائص العامّة:

جرير من النفوس ذات المزاج العصبيّ، وذات الطّبع الناعم الرّقيق، ولئن جعلت رقّة الطبع شعره دون شعر الفرزدق فخامة، فقد جعلته يتفوّق في المواقف العاطفية، كالرثاء والنسيب. فالعاطفة هي منبع كل شيء في شعر جرير، وهي عنده تطغى على العقل والخيال، ولهذا ضعف تفكيره، كما ضعف خياله ووصفه، فجرى على توثب إحساسه الذي يثيره أقلّ تهويش، وتستفزّه كلُّ المؤثرات العاطفية. ولقد اجتمعت العاطفة عند جرير الى قريحة فيّاضة، فكان شعره يفيض من طبع غنيّ، وكأن الشاعر «يغرف من بحر» فلا يجهد في شعره، ولا يعمد الى الثقاف والتنقيح كالأخطل، ولا الى النحت كالفرزدق، بل يسير شعره سيلاناً في سهولة، تمتد بامتداد قصائده الطويلة، وفي خفّة ولباقة تعبير، وموسيقى لفظيّة أُخّاذة، ووضوح. ولكن هذه السهولة في النظم، وهذا الفيضان، عرّضاه للوقوع في الإسفاف أحياناً كثيرة، فهو دون الأخطل والفرزدق جزالة وقوّة. ولكن سهولته هي التي عملت على سيرورة شعره أكثر من غيره. وجرير، وإن كان شاعر الطبع والعاطفة المتدفقة، لم يسلم أحياناً من الصنعة، وتطلب التأثير بألوان من الأساليب الفنية اللفظية. وهكذا كان جرير، أقدر من الأخطل والفرزدق على نقض الكلام، وأشد فتنةً، وأقلّ صنعاً

للمتوجات البيانية، وأغنى قريحة، وأرق عاطفة ولفظاً، وأوضح كلاماً، وأوفر انسجاماً ونفحاً موسيقياً؟ إلاّ انه دون الأخطل والفرزوق خيالاً وتفكيراً وجزالة وجرير في مدائحه لبني أمية وولاتهم وعمالهم مستجد، وتكسبه صريح. وهذا التكسب، يُملي عليه أساليب المدح ومعانيه. فهو يعظّم شأن ممدوحيه ويثبت لهم الحق بالخلافة. فيصف قوة الخلفاء ومن يعملون في ظلهم، ويصف سطوتهم، كما يصف أعمالهم العمرانية، وإذا انتقل الى حقل الدين، أطال القول، حتى ليخيل للقارىء، ان المدح ديني[1]:

أكثر مما هو مدني، وحتّى كأنّ للخلافة شأناً دينياً لا شأناً مدنياً. فتنشر في مدائحه ألفاظ الخلافة، والقرآن، والأحكام،

والأمانة، والورع، والهدى، والبركة، وما الى ذلك مما يصدر عن نزعة جرير الدينية التي تتمثل في جميع أغراض شعره. والمدح يطول عند جرير، مفصّلاً صفات الممدوح، جاعلاً الكرم من أجلّ الصفات، وفي هذا المدح، يتضاءل ظلّ الشاعر، فلا يفخر، ولا يهجو، إنما يقف موقف المتسوّل، الذي لاينفخ في شعره المدحي نفس عالٍ، ولا يعصف به اندفاع شديد.

أمّا الرثاء عند جرير، فهو قسمان: قسم خصّ به أهل بيته، كامرأته، وابنه سوادة. وقسم خصّ به رجال الدولة وغيرهم: كالوليد، وابنه عبد العزيز. ولما كان جرير رجل العاطفة الشديدة التأثر، كان رثاؤه بمجمله عاطفياً، رقيقاً، يؤثر في القلب[2] وجرير كان صادقاً

(١) فاخوري: حنا: تاريخ الأدب العربي: ص: ٣٠٧.
(٢) الفاخوري: حنا، تاريخ الأدب العربي: ص: ٣٠١.

في لهفته، فكانت مراثيه شعر العاطفة المتألمة، تهيمن عليه النفحة الدينية، وتتدفق فيه الذكريات التي تبعث الأسف والأسى. وكان لجرير مقدرة عظيمة على الهجاء. فقد اجتمع له الشعور الحادّ الذي إذا احتدم، يكون كالبركان المائج، الذي يقذف الحمم، ولا يدرك ما يقول. والى هذا الشعور، وشدة التأثر، وسرعة الاندفاع كان جرير، ذا مقدرة غريبة على التهكم والسّخر، وذا بصرٍ نافذٍ في تتبع الصورات واختلافها. وكان فيّاض القريحة، لا يستعصي عليه جواب، وإذا ضرب، كانت ضربته خاطفة. أما طريقته في هجائه عموماً، فهي طريقة، جمعت الى أساليب خصومه، أسلوبه الخاص القائم على شدة اللذع والإيلام، مما لم يجتمع لأحدٍ منهم بقدر ما اجتمع له، فهو يعمد الى طريقة الفرزدق في الإفحاش والإقذاع، واستعمال كلمات الفجور والبذاءة بصراحة شنيعة. وهو يعمد الى طريقة الفرزدق والأخطل بالتعبير بالانكسارات والمذلّة[1].

إلاّ أنّ جريراً لا يقف عند هذا الحدّ، بل يتعدّاه الى أسلوب خاص، في اللّذع يقوم بتتبع حياة المهجر وحياة ذويه، وتعداد نقائضه، والكشف عن عوراته، واحدة فواحدة، ذاكراً تفاصيلها مبنياً كلّ ما من شأنه،ان يجعل المهجوّ موضوع احتقار النّاس، وهو يكثر من تعداد النقائض القومية والشخصية؛ الماضية والحاضرة، ويختلق الحوادث والقصص، ويُكثر من التكرار ليُثبت ما يقول في الأذهان، ويبالغ في الزراية والتحقير والتشبيه بالحقير القذر من الحيوانات، زائداً في القبائح ما تفيض به قريحته، ممزقاً أعراض الأمهات والأخوات

(١) المرجع نفسه: ص: ٣٠٢.

أشنع تمزيق مما يلذع أشدّ اللّذع؛ وهو يزيد على ذلك كلّه التهكم والسخرية. فيجعل المهجو من المضحكات، ويصوّره تصويراً «كاريكاتورياً» يبعث على الضحك، وهذا مما يزيد كلامه لذعاً. وكان جرير في هجائه موجعاً مراً، كثيراً ما يشمل عدة خصوم. وكان كثير الافتراء على الأبرياء، لا يبالي ان يقذف المحصنات العفيفات؛ وكان الى ذلك دَيّناً، كثيراً ما يستغفر الله من قذف المحصنات، ويقرُّ أمام الناس ببراءتهن، ويعتذر، ويدعي أنَّ أولياءهنَّ ظلموه، فجازاهم بما ظلموا.

أما الفخر، فهو شديد الصلة بالهجاء عند جرير. وكان إذا هجا افتخر، وجعل من الفخر وسيلة لتذليل خصمه. أمّا موضوع فخره، فنفسه وشاعريته ثم قومه، وإسلامه. فإذا هجا الفرزدق، اصطدم بأصل الفرزدق الذي هو أصله، فكلاهما من تميم، وهو أصل شريف. ولكن الفرع الذي كان ينتمي إليه الفرزدق، كان أشرف من فرع جرير، ولهذا لم يستطع أن يجعل فخره بآبائه موازياً لفخر الفرزدق. إلاّ أنه فخر ببعض ايام لبني يربوع قومه، كما أعين على الفرزدق بأيام خذل فيها بنو دارم قوم الفرزدق وبنو ضبة أخواله(١) وإذا عرضنا لخصائص الغزل في شعر جرير، فنجد أنها كانت فناً مستقلاً في قصائده الغزلية. ولم يخرج فيها عن الأسلوب والمعاني القديمة ولكنه مزج في غزله بين اسلوب الجاهليين، وأسلوب المتيمين العذريين. فهو يصف المرأة بما سبق إليه الشعراء من أوصاف، ثم ينتقل من تلك الأوصاف، الى داخل نفسه، ليحدثنا عن لوعته وألمه وحرمانه

---

(١) الفاخوري: حنا: تاريخ الأدب العربي ص: ٣٠٣ و ٣٠٤.

وعن نزعات الفؤاد وخلجانه. وجرير رجل فنّ في الغزل، وفنه قائم بنوع خاص على الموسيقى اللفظية. فهو يجمع الى الرقة والعذوبة أنغاماً مطربة تتصاعد من تآلف ألفاظه ومن حسن اختياره بحوره وقوافيه، ومن تكرار بعض الألفاظ للمقارنة أو الطباق. وغزله هو غزل العاطفة الصادقة التي تتألم وتتنفّس في تعبير رقيق ليّن، يزخر بالألفاظ الموسيقية العذبة، ويخلو من البذاءة، والقصص الغرامي الفاحش، وتلمس فيه نزعة الشاعر الدينية[1] أمّا ما كان يعقد بين شعر جرير، وبين قلوب الناس، اكثر مما كان يعقد بين شعر منافسيه وقلوبهم فذلك أنه كان أحسن الناس تشبيباً[2] وكان يذهب في غزله مذهباً عاطفيّاً، يفارق فيه بعض المفارقة مذهب المدرسة العراقية، ويقارب منه المدرسة العاطفية الشعبية الحجازية. وهي المدرسة التي ظل زماناً ينكر على أصحابها أنهم بلغوا مبلغ الشعراء وكانت قوة العاطفة في شعر جرير بالقياس الى شعر شعراء العراق سبباً في قربه الى النفوس، وكانت اقوى ما تبدو في ذلك اللون الذي يتناول عاطفة عامة مشتركة بين الناس كالغزل. ونتبين من خصائص شعره، انه كان مرضياً عند كثرة سامعي قصائده، أي الى ان يكون شعبياً، لكثرة انتشار شعره وشيوعه، وقربه من نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم[3].

(١) فاخوري: حنّا: تاريخ الأدب العربي: ص: ٣٠٦.
(٢) ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء: ص: ١٠٩.
(٣) البهبيتي: نجيب محمد: تاريخ الشعر العربي: ص: ٢٨٧ – ٢٨٨

مختارات من شعره

قال في مدح هشام بن عبد الملك:

حَيّوا أُمَامَةَ واذْكُرُوا عهْداً مَضَى قَبْلَ التّصدّعِ مِنْ شَمَالِيْلِ النّوَى(١)

قَـالَتْ بِلِيْتَ فَمَا نَرَاكَ كَعَهْدِنا لَيْتَ العُهُوْدَ تَجَدّدتْ بَعْدَ البِلَى(٢)

أأمَــامُ غَيّرَني، وأنْـتِ غـريـرَةٌ

حـاجاتُ ذِيْ أُرَبٍ وَهَمٌّ كالجوى(٣)

قَالَتْ أُمَامَةُ: مَا لجَهْلِكَ مَالَهُ كَيْفَ الصّبَابَةُ بَعْدَ مَا ذهب الصِّبا

وَرَأَتْ أمَامَةُ، في العظام تَـحْنياً بَعْدَ استِقَامَتِها وَقَصْراً في الخطا(٤)

وَرَأَتْ بِـلِـحْـيَـتِـهِ خِـضَاباً رَاعَهَا

وَالوَيْلُ للفتياتِ مِنْ خَضْبِ اللّحى(٥)

---

(١) التّصدع: الفرقة والتباعد – الشماليل: ما تفرق من كل شيء – النوى: البعد.

(٢) البلى: التغير والمصاب.

(٣) أأمام: ترخيم لاسم أمامة – غريرة: طائشة: ساذجة لم تعرف أمور الحياة بعد. أرب: حاجة – الجوى: شدة العشق والحزن.

(٤) تحنياً: ميل وانحناء.

(٥) خضاباً: صباغاً – راعها: خافها.

وَتَقُوْلُ: إنِي قَدْ لَقِيْتُ بَلِيَّةً
مِنْ مَسْحِ عَيْنِكَ مَا يَزالُ بَها قَذَى[١]
لَوْلا ابنُ عائشةَ المُبَارَكُ سَيْبُهُ أَبْكَى بَنِي وَأَمَّهُمْ طُولُ الطَّوَى[٢]
إنَّ الرُّصَافَةَ مَنْزِلٌ لِخَلِيْفَةٍ جَمَعَ المَكارمَ والعَزَائِمَ والتُّقى[٣]
مَا كانَ جُرِّبَ عِنْدَ مَدِّ حِبالِكُمْ
ضَعْفُ المُتُوْنِ ولا انْفِصَامٌ في العُرَى[٤]
مَا إنْ تَرَكْتَ مِنَ البِلادِ مضِلَّةً إلاَّ رَفَعْتَ بِها مَناراً لِلْهُدَى[٥]
أعْطِيْتَ عَافِيةً وَنَصْراً عَاجِلاً آمِينَ ثُمَّ وُقِيْتَ أَسْبَابَ الرَّدَى[٦]
الحَمْدُ للهِ الذِي أَعْطَاكُمُ
حُسْنَ الصَنَائع والدَّسَائِعِ والعُلى[٧]
يا ابنَ الخَضَارِمِ لا يَغِيْبُ جَبَاكُمُ
صِغَرُ الحِيَاضِ وَلا غَوائِلُ في الجَبَا[٨]

---

(١) القذى: داء يلم بالعيون.

(٢) ابن عائشة: عبد الملك بن مروان وعائشة بنت معاوية بن مغيرة بن أبي العاص قتله علي بأمر من النبي بعد فراره من أحد.

(٣) الرصافة: مدينة هشام بن عبد الملك التي عمر أسوارها.

(٤) المتون: أواسط الجبال - انفصام: الانقطاع والتفكك - العرى: الروابط الوثيقة.

(٥) مضلة: ارض لا يهتدي بها أصحاب السفر.

(٦) وقيت: حميت - الردى: الموت.

(٧) الدسائع: مفردها دسيعة الاعطية الجزيلة.

(٨) الخضارم: الكرام (نسباً وكرماً) - الجبا: المياه الموجودة في الحياض - الحياض: أماكن تجمع المياه غوائل: شقوق تسرب منها المياه داخل الحياض.

لا تَجْفُوَنَّ بَنِي تَمِيْمٍ إِنَّهُمْ

تَلَبُوا النُّصُوْحَ وَرَاجَعُوا حُسْنَ الهُدَى(١)

مَنْ كَانَ يَمْرَضُ قَلْبُهُ مِنْ رِيْبَةٍ

خَافُوا عِقَابَكَ وَانْتَهَى أَهلُ النُّهَى(٢)

وَاذْكُرْ قَرابَةَ قَوْمِ بَرّة مِنْكُمْ فَالرَّحْمُ طالبَةٌ وَتَرْضَى بالرِّضَا(٣)

سَوَّسْتَ مُجْتَمَعَ الأَباطِحِ كُلِّها

وَنَزَلْتَ مِنْ جَبَلَيْ قُرَيشٍ فِي الذُّرَى(٤)

أَخَذُوا دقائِقَ أَمْرِهِمْ بعزائمٍ لِلْعَالَمِيْنَ وَلا تَرَى أَمْراً سدَى(٥)

يا ابْنَ الحُمَاةِ فَما يُرامُ حِماهُمُ والسَّابِقِيْنَ بَكُلِّ حَمْدٍ يُشْتَرَى(٦)

مَا زِلْتُ مُعْتَصِماً بِحَبْلٍ مَنْكُمُ مَنْ حَلَّ نَجْوَتَكُمْ بِأَسْبَابِ نَجَا(٧)

وَإِذا ذَكَرْتُكُمُ شَدَدْتُمْ قُوَّتي

وَإِذَا نَزَلْتُ بِغَيْثِكُمْ كَانَ الحَيَا(٨)

---

(١) تلبوا النصوح: تلبوا بصدق دون عدمه إلى ما نص.

(٢) ريبة: شك أو وساوس.

(٣) برّة: اسم لأخت تميم بن سرّة وهو نسيب للخليفة.

(٤) سوست: ملكت -الأباطح: مصب ولمسع وهو كناية عن سكن قبيلة قريش جبلي قريش: لقب لهاشم وعبد شمس من أسياد مكة.

(٥) الوثائق: الأمور المؤكدة - سدى: هباء.

(٦) يرام: يستطاع.

(٧) النجوة: الارض المرتفعة.

(٨) الغيث: العشب ومنها رعت الماشية الغيث والمقصود هنا الحما.

فَلأشكُرَنَّ بَـلاءَ قَـوْمٍ ثَبَّتُـوا قَـصَبَ الجناحِ وأنْبَتُوا رِيْشَ الغِنا

مَلَكُوا البِلاد فَسُخِّرَتْ أنهـارها في غَيْرِ مُظْلِـمَةٍ وَلا تَبع الرِّبا[(١)]

أُوتِيتَ مِنْ جِذْبِ الفُراتِ جَوارِيـاً مِنْـها المنيُّ وَسائحٌ في قرقرى[(٢)]

وَالمَجْدُ للزَّنْدِ الـذي أورَيْتُـمُ بَحْرٌ يَمُدُّ عُبَابُهُ جُوفَ القِنى[(٣)]

سِيروا إلى البَـلَدِ المُبارَك فَانْزِلُوا وَخُذُوا مَنَازِلَكُمْ مِنَ الغَيْثِ الحَيَا

سِيْرُوا إلى ابـنِ أُرُوْمَـةٍ عـادِيَّةٍ وابْنِ الفُرُوْعِ يَمُدُّها طِيْبُ الثَّرى[(٤)]

سِيْرُوا فَـقَـدْ جَـرَتْ الأيامِـنُ فانزلوا

بابَ الرُّصافةِ تَحْمُدوا غِبَّ السُّرى[(٥)]

سِـرْنا إليكَ مِـنَ المَلا عِيـدِيـةٌ

يَخْبِطْنَ في سُرُحِ النِّعالِ على الوَجى[(٦)]

تـنْمَى مَنَاسِمُها وَهُنَّ نَواصِلٌ مِنْ كُلِّ ناجِيَةٍ وَنَقْضٍ مُرْتَضى[(٧)]

---

(١) الربا: الزِّباء.

(٢) المني: اسم لنهر قرب الرمة. حفره هشام بن عبد الملك. قرقرى: سكان في اليمامة.

(٣) الزند: القدح – اوريتم: شبهه بقدح نار الزند إذا اسرع ناره. عباب : موج جوف: واسعة.

(٤) أرومة: أصل– عادية: نسبة إلى عاد (عاد و ثمود).

(٥) الأيامن: المباركون–السرى: المشي ليلاً.

(٦) الملا: الفلاة – العيدية: صفة للنياق التي تتحمل السير طويلاً – سرح: مخضوبة بالسرايح – الوجى: الحفا.

(٧) المناسم: الخفون، النواصل: المتقدمات، الناجية: السريعة، النقض:السير البطيء.

كَلَّفْتُ لاحِقَةَ النَّمِيْلِ خَوامِساً

غُبْرَ المَخارِمِ وَهيَ خاشِعةُ الصُّوَى[١]

نَرمِيْ الغُرابَ إذا رأى بِرِكابِنا جُلَبَ الصِّفاحِ وَداميَاتٍ بالكُلى[٢]

وقال لسليمان بن سعد صاحب ديوان العطائر باليمامة:

لَقَدْ كانَ ظَنِّيَ يا ابنَ سَعدٍ سعادةً وَما الظَّنُّ إلاَّ مُخطِئٌ وَمُصِيبُ

تَرَكْتُ عِيالِي لا فَواكِهَ عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ ابنِ سَعْدٍ سُكَّرٌ وَزَبِيبُ

تَحَنَّى العِظامُ الرَّاجِفاتُ مِنَ البِلى وَلَيْسَ لِداءِ الرُّكْبَتَيْنِ طَبِيبُ

كأنَّ النِّساءَ الآسِراتِ حَنَيْنَنِيْ عَرِيشاً فَمَشْيي في الرِّجالِ دَبِيبُ[٣]

مَنَعْتَ عَطائي يا ابنَ سَعْدٍ وَإنَّما سَبَقْتَ إليَّ المَوْتَ وَهْوَ قَرِيبُ

فإنْ تُرجِعُوا رِزْقِيْ إليَّ فإنَّهُ مَتاعُ لَيالٍ، والحَياةُ كَذُوبُ

قال يمدح عبد العزيز بن الوليد:

أراحَ الحَيُّ مِنْ إرَمِ الطِّرادِ فَما أبْقَوْا لِعَيْنِكَ مِنْ سَوادِ[٤]

---

(١) لاحقة: ضعيفة – النميل: صفة للبن الحامض – خوامساً: صفة للجمال التي ترعى أياماً ثلاثة، ثم تعود في اليوم الرابع.

(٢) الجلب: ما يعلو الجرح حين يتماثل للشفاء – الصفاح: الجوانب – الكُلى: الكليتان.

(٣) حنيني: جعلنني أنتوي وأميل – العريش: الخيمة.

(٤) ارم الطرد: المكان الذي تذكر الشاعر أطلاله – عما أبقوا لعينك من سواد: وصف لحالة مقلتي الشاعر وقد ابيضت من البكاء.

أراني الكاشِحينَ وأتَّقِيهِمْ كأنيِّ كاشِحٌ لَهُمُ مُعادي(١)
تَقَرَّبْنا، فَلا طَمَعٌ قَرِيبٌ وَباعَدْنا فَزِدْتِ على البِعادِ
وَما بَالَيْتِ يَوْمَ رَأَيْتِ دَمْعي لَهُ سَبَلٌ يَفيضُ عَلى بِخادِي(٢)
فَيا لكَ إذْ تُجاوِرُ خَيْرَجارِ وَإذْ وَادِي سُلَيْلَةَ خَيْرُ وادي
إلى عَبْدِ العَزِيزِ شَكَوْتُ جُهْداً مِنْ البَيْضاء أوْ زَمَنِ القَتادِ(٣)
سِنِينَ مَعَ الجَرادِ تَعَرَّقَتْنا فَما تُبْقِي السِّنُون مَعْ الجرادِ؟
وَلَوْلا فَضْلُ نائِلِهِ عَلَيْنَا لَما أُحْيا بَنيَّ وَلا تِلادي(٤)
وَلَمْ يَعْشُرْ نَداكَ أبُو عَدِيٍّ وَلا كَعْبُ بنُ مامَةَ مِنْ إيادِ(٥)
سَنَشْكُرُ مَنْ لَهُ أثرٌ عَلَيْنا كَآثارِ الوَلِيِّ على العِهادِ(٦)
دَعَوْتُكَ وَاليَمامَةُ دُوْنَ أهْلِي وَلَوْلا البُعْدُ أسْمَعَكَ المُنادِي
على علياءَ تَرْفَعُ خَيْرَ نارِ وَتَقْدَحُ بالوَرِيِّ مِنَ الزِّنادِ(٧)
إذا ما خِفْتُ رَدَّ إليَّ نَفْسي وَصارَ إلى مَساكِنِهِ فُؤادِيْ
بَدَأْنا في الزِّيارَةِ ثُمَّ عُدْنا فَلا بَدْئِي جَفَوْتَ وَلا معادي

---

(١) الكاشحين: الأعداء.

(٢) البخاد: حمائل السيف.

(٣) البيضاء: سنة القحط والجفاف– القتاد: الجفاف حيث لا ينبت غير الشوك.

(٤) نائلة: عطاياه – التلد: ما يملكه المرء.

(٥) الندى: الكرم – أبو عدي: حاتم الطائي – كعب بن أمامة: كريم من كرماء العرب.

(٦) الولي: المطر الذي يأتي متاخراً – العهاد: أول الغيث.

(٧) الوري: المختفي.

وَقَدْ كُنّا نُحِبُّ جِمادَ رَهْبِي وَما بيْنَ الوريعة والمقادِ(١)

وَسُلمانَيْنَ نَذْكُرُ مِن هـوانا إلى الدُّورِ الدَّواخِلِ في الجمادِ(٢)

وَوَدَّعْـنـا الـخَفايرَ مِنْ فُلَيْحٍ وَحيّاً يَسْكُنونَ رَحا الثَّمادِ(٣)

لَقَدْ طَيَّبْتَ نَفْسي عَنْ صَديقي وَقَدْ طَيَّبْتَ نَفْسي عَنْ بِلادي

فأصْبَحْنا وَكُلّ هَوىً إلَيْكُمْ يُقَعْقِعُ نحوَ أرْضِكُمْ عِمادِي(٤)

تُقَرِّبنا مِنَ اليَمَنِ المَـهارى لِعيديُّ مِنْ النُجَبِ التِّلادِ(٥)

يُجاذِبْـنَ البُـرِينَ وهُنَّ خُوصٌ يُطِرْنَ شَوابِكَ الزَّبَدِ الجِعادِ(٦)

إذا افترَّ الحُـداةُ مَـضَيْنَ قُدْمـاً

وَفي الخِمْسِ الجُمُوْحُ لَهُنَّ حادِي(٧)

يُصادِيْنَ الهَـواجِرَ حِينَ تَحْمَى وَحِرْباءُ الـفَلاةِ أَحَمُّ صادِ(٨)

---

(١) (رهبى) و(الوريعة) و(المقاد): أسماء مواقع مرَّ القوم بها.

(٢) (سلمانين): إسم موقع كذلك.

(٣) (فليح) و(رَحا الثِّماد): إسمان لموقعين.

(٤) يقعقع: يقلع عماد بيته للارتحال.

(٥) المادي: موقع في اليمن.

(٦) البرين: الخلاخل- خوص: صفة للعيون الداخلة بعكس الجاحظة والناتئة.
الجعاد: ما يجتمع على خطم النوق من الزبد.

(٧) افتر: انفتح الفم وظهرت منه الأسنان - الجموح: السير المتعب.

(٨) يصادين: يتجنبن - الهواجر: الصرارى - حرباء الفلاة: شدة حرالصحراء - صاد: ظمآن

دَأَبنَ اللَّيْلَ نَحْـوَكُـمُ فَلَمَّا تَجَلَّتْ مِنْ أَواخِرِهِ الهوادي[(١)]

وَقَعْنَ جَوانِحاً في ظلِّ لَبْـلٍ عَلى مَطْوِيَّةٍ والصُّبحُ بادي[(٢)]

كأنَّ الصُّبحَ أَبْلَقُ ذو حُجُولٍ يَشِبُ وَراءَ قَنْبَلَةٍ وِرادِ[(٣)]

وَسَيَّرنا قَـوافِيَ آبِداتٍ غَلَبْنَ مُهَلْهِلاً وَأَبا دُؤادِ[(٤)]

وَحِينٌ الخافقَيْن يسِرْنَ فيهم سِراعَ السَّيرِ نازِحَةَ المصادِ[(٥)]

يُشَبِّهُ وَقعُهُنَّ مُصَمِّماتٍ سُيُوفاً هَزَّها أُخَوا مُرادِ

قال في هجو الفرزدق. وهي من النقائض:

زارَ الـفَرَزْدَقُ أَهْـلَ الحِجازِ فَلَمْ يَحْظَ فيهِمْ وَلَمْ يُحْمَدِ

وَأَخْزَيتَ قَوْمَكَ عِنْدَ الحطِيمِ وَبَيْنَ البَقِيعَيْنِ وَالْفَرْقَدِ[(٦)]

وَجَدْنا الفَرَزْدَقَ بِالْمَوْسِمَيْنِ خَبِيثَ المداخِلِ وَالمَشْهَدِ[(٧)]

---

(١) الهوادي: بشائر البداية.

(٢) المطويَّة: وصف للنياق الباركة على قوائمها.

(٣) الأبلق ذو الحجول: الحصان عندما يرتفع بقوائمه يظهر بياض في بطنه. وهكذا شبه بداية الصبح بعد آخر الليل - يشب: يرفع قوائمه استعداداً للانطلاق- القنبلة: الجماعة - الوارد: صفة للخيول.

(٤) المهلهل، وأبو دُؤاد: من شعراء الجاهليَّة.

(٥) الخافقين: المشرق والغرب.

(٦) الحطيم: ركن الكعبة - البقيع والفرقد: مقابر قريش في المدينة المنورة. وهذه المواقع من المشاعر المقدسة.

(٧) الموسمان: رِحلَتا الشتاء والصيف اللتان كانت قريش تقوم بهما في كل عام.

نَفاكَ الأغَرُّ ابنُ عَبْدِ العَزيزِ   بِحَقِّكَ تُنْفى عَنِ المَسْجِدِ[1]

وَشَبَّهْتَ نَفْسَكَ أَشْقى ثَمودَ   فَقالوا، ضَلِلْتَ وَلَمْ تَهْتَدِ[2]

وَقَدْ أُجِّلُوا حِينَ حَلَّ العَذابُ   ثَلاثَ لَيالٍ إلى المَوْعِدِ

وَشَبَّهْتَ نَفْسَكَ حُوقَ الحِمَارِ   خَبِيثَ الأواريِّ والمِرْوَدِ[3]

وَجَدْنا جُبَيْراً أبا غالِبٍ   بَعِيدَ القَرابَةِ مِنْ مَعْبَدِ[4]

أَتَجْعَلُ ذا الكِيرِ مِنْ مالِكٍ؟   وَأَيْنَ سُهَيْلٌ مِنَ الفَرْقَدِ[5]

وَشَرُّ الفِلاءِ ابنُ حُوقِ الحِمارِ   وَتَلْقى قُفَيْرَةَ بِالمَرْصَدِ[6]

وَعِرْقُ الفَرَزْدَقِ شَرُّ العُروقِ   خَبِيثُ الثَرى كابِيُ الأَزْنُدِ[7]

وَأَوْصى جُبَيْرٌ إلى غالِبٍ   وَصِيَّةَ ذِي الحُرْمَةِ المُجْهَدِ

فَقالَ: أَرْفُقَنْ بِلِيِّ الكَتيفِ   وَحَكِّ المَشاغِبِ بِالمِبْرَدِ[8]

---

(١) في هذا البيت تلميح إلى طردِ الفرزدق على يد الخليفة عمر بن عبد العزيز من المدينة لسوء سلوكه.

(٢) أشقى ثمود: الذي عقر ناقة نبي الله صالح، بعد أن نهي عن ذلك.

(٣) الأواري: حلقات تثبت في الأرض وتُربط بها الدواب - المرود: الحديد الذي يُربط بها اللجام.

(٤) جبير: خادم كان عند جد الفرزدق - معبد: ابن زرارة بن عدس الدارمي.

(٥) الكير: زق ينفخ فيه - سهيل والفرقد: من الكواكب.

(٦) قفيرة: أم الفرزدق

(٧) الثرى: التراب: والمعنى مجازي، القصد به أصل الفرزدق - الكابي الأزند: الذي لا يُرجى منه خيراً

(٨) لي الكتيف: طيّ الحديد - المشاغب: الجوانب.

وَجَحْشَنُ حَطٌّ بِها المِنقريُّ كَرَجْعِ يَدِ الفالجِ الأَمْرَدِ(١)

تَثاءبَ مِنْ طُولِ ما أَبْكَرَتْ تَشاؤُبَ ذي الرقيةِ الأَدْرَدِ(٢)

فَهلاَّ ثأرْتَ بِبِنْتِ القُيونِ وَتَتركَ شَوْقاً إلى مَهْدَدِ

وَهلاَّ ثأرتَ بحِلِّ النطاقِ وَدَقِّ الخلاخِيلِ والمعضَدِ(٣).

فأصبحْتَ تَقْفُر آثارَهُمْ ضُحىً مِشْيَةَ الجادِفِ الأعْقَدِ(٤)

كَليلاً وَجَدْتُمْ بَني مِنْقَرٍ سِلاحَ قَتيلِكُمُ المُسْنَدِ(٥)

تَقولُ نَوارُ فَضَحْتَ القُيونَ فَلَيْتَ الفرَزْدَقَ لَمْ يُولَدِ

وَقالتْ بَذي حَوْمَلٍ والرِّماحِ شَهِدْتَ وَلَيْتَكَ لَمْ تَشْهَدِ

وَفازَ الفرزدقُ بِالكَلْبَتَيْنِ وَعِدْلٍ مِنَ الحُمَمِ الأَسْوَدِ

فَرَقِّع لِجَدِّكَ أَكْيارَهُ وَأَصْلِحْ مَتاعكَ لا تُفْسَدِ(٦)

وَأَدْنِ العَلاة وَأَدْنِ القُدومَ وَوَسِّعِ لِكيرِكَ في المقعَدِ(٧)

---

(١) المنقري: عمران بن مرّة – الفالج: الإبل ذات السنامين.

(٢) المقصود: أن من عليه رقيه يتثاءب عند الرقي والأدرد من خلا فمه من الاسنان.

(٣) ويقول في هذا البيت: إنه اراد الدعوة إلى الثأر من وصل نطاق الإبل، استعداداً للمواجهة. وبنت القيون هي نوار.

(٤) الجادف الأعقد: صفات قبيحة تطلق على الكلاب.

(٥) كليلاً: بعد كثير من الجهد – المسند: الذي ينتسب إلى القوم وهو غريب عنهم.

(٦) الأكيار: الصمامات.

(٧) العلاة: السندان.

قَرَنْتَ البَعِيثَ إلى ذي الصَّليبِ مَعَ القَيْنِ في المَرَسِ المُحْصَدِ[1]
وَقَدْ قُرِنُوا حِينَ جَدَّ الرِّهانُ بِسامٍ إلى الأَمَدِ الأَبْعَدِ[2]
يُقطِّعُ بالجَرْي أَنْفاسَهُمْ بِغَمْرِ النِّجادِ، وَلَمْ يُجْهَدِ
فإنّا أُناسٌ نُحبُّ الوَفاءَ حِذارَ الأَحاديثَ في المَشْهَدِ
ولا نَجْتَبي عِنْدَ عَقْدِ الجِوارِ بِغَيْرِ السُّيوفِ ولا نَرْتَدي
شَدَدْتُمْ حُباكُمْ على غَدْرَةٍ بِجَيْشانَ وَالسَّيْفُ لَمْ يُغْمَدِ[3]
فَبُعْداً لِقَوْمٍ أجارُوا الزُّبَيْرَ وَأَمّا الزُّبَيْرُ، فَلا يَبْعَدِ
فَلَمّا أَتَيْتَ وَأَنْتَ الذَّليلُ قَعَدْتَ على استِ امرِئٍ مُقْعَدِ
أَعِبْتَ فَوارِسَ يَومِ الغَبيطِ وَأَيّامَ بِشْرِ بَني مَرْثَدِ
وَيَوْماً بِبَلْقاءَ يا ابنَ القُيونِ شَهِدْنا الطِّعانَ وَلَمْ تَشْهَدِ[4]
فَصَبَّحْنَ أَبْجَرَ والحَوْفَزانَ بِوِرْدٍ مُشيحٍ على الوُرَّدِ
وَيَومَ البُحَيْرَيْنِ أَلحَقْتَنا لَهُنَّ أَخاديدُ في القَرْدَدِ[5]

(١) المحصد: المحكم الفتل.
(٢) قرنوا: شُبّهوا.
(٣) إشارة إلى غدر قوم الفرزدق بالزبير بن العوّام ولم تمض مدّة على موقعه الجمل.
(٤) في هذا البيت، والبيت الذي سبقه، يفاخر جرير على الفرزدق لأنه لم يلتحق بالمواقع التي ذكرها.
(٥) الأخاديد: شقوق الأرض - القردد: الأرض المنبسطة.

نُعِضُّ السُّيوفَ بِهامِ المُلوكِ ... وَنَشفي الطِّماحَ من الأَصيَدِ[1]

وَقالَ يهجو التيم:

غَزا نَمِرٌ وَقَلادَ بَني تَميمٍ ... وَمَرَّ لَهُ الأَيامِنُ بالسُّعودِ[2]

فَفَكَّ الغُلَّ عن تَيمِ بنِ قُنبٍ ... وَتَيمٌ في السلاسِلِ والقُيُودِ[3]

قال في رثاء جبير بن عياض الكلبي:

لَعَمري لَئِنْ خَلَّى جُبَيْرٌ مَكانَهُ

لَقَدْ كانَ شَعْشاعَ العَشيَّةِ شَيْظَما[4]

أَشَمَّ، طُوالَ السَّاعِدينِ تَرَى لَهُ ... إذا القَومُ هابُوا القَوْمَ أَنْ يَتَقَدَّما

لَعَمْري لَقَدْ عالى على النَّعْشِ مُحْرِزٌ

فتىً نالَ قِدْماً عِفَّةً وَتَكَرُّما

فتىً كانَ أَحْيا مِنْ فَتاةٍ حَيِيَّةٍ ... وَأَشجَعَ مِنْ لَيثٍ بِخَفَّانَ مُقْدِما[5]

إذا اللَّحم كانَ الزَّادَ لم يُلْفَ لَحْمُهُ

جَميعاً وَلَكِنْ شاعَ في الحَيِّ الحُما

---

(١) الهام: الرأس من كل شيء، وتطلق على الجسد أيضاً - الطماح: السيوف - . الأصيد: الشامخ، المتكبر.

(٢) نمر: هو نمر السعدي الذي أنقذ التيم.

(٣) الغلّ: القيود.

(٤) الشيظم: الطويل - الشعشاع: المشوق.

(٥) خفان: موضع قريب من الكوفة بالعراق.

إذا الأمْرُ نابَ الحيَّ لَمْ يُغْضِ دونَه
وَإنْ طَرَقَ الأضْيافُ لَيْلاً تَبَسَّما

وقال يرثي عطية بن جعال الغداني:

مَنْ ذا يُعِدّ بَني غُدانَةَ للعُلى وَالخَيرِ، بَعْدَ عَطِيَّةَ بنِ جُعالِ
كانَ المُمانِعَ في العريّة بَعْدَما أَلْقى الشتاءُ أصِرَّةَ الأشوالِ[1]
وَمُدَفَّعِينَ جَفا الأقارِبُ عَنهُمُ حَلُّوا إِلَيْكَ بِدَمْثَةٍ مِحْلالِ[2]

وقال يرثي الفرزدق:

فُجِعْنَا بِحَمّالِ الدّياتِ ابنِ غالبٍ وَحامِي تَميمٍ عِرْضَها والمُراجِمِ
بَكَيْناكَ حِدْثانَ الفِراقِ وإنَّما بَكَيْناكَ إذْ نابَتْ أُمورُ العَظائِمِ
فلا حَمَلَتْ بَعْدَ ابنِ لَيْلى مَهيرَةٌ وَلا شُدَّ أَنْساعُ المَطِيِّ الرَّواسِمِ

ومن غزله قوله:

حَيُّوا المقامَ وَحَيُّوا ساكِنَ الدّارِ ما كِدْتَ تَعْرِفُ إلاّ بَعْدَ إِنْكارِ
إذا تَقادَمَ عَهْدُ الحيّ هَيَّجَني خَيالُ طَيِّبَةِ الأرْدانِ مِعْطارِ[3]
لا يأمَنَنَّ قَويٌّ نَقْضَ مِرَّتِهِ إنّي أرى الدَّهرَ ذا نَقْضٍ وإمْرارِ

---

(١) العريّة: السنة البادرة – الأشوال: الإبل التي لا تدر.
(٢) الدمثة المحلال: الأرض الطيبة التي نزل بها.
(٣) الأردان: مفردها ردن وهو الكم الواسع

قَدْ أطْلُبُ الحاجَةَ القُصْوى فأُدْرِكُها وَلَسْتُ للجارِةِ الدُّنيا بِزوّارِ

ألا بغُرٌّ مِنَ الشِّيزى مُكَلَّلَةٍ

يَجْري السَّديفُ علَيها المُرْبعُ الواري[1]

إذا أقولُ تَرَكْتُ الجَهْلَ هيَّجَني رَسْمٌ بذي البَيْضِ أو رسْمٌ بدوّارِ[2]

تُمْسي الرِّياحُ بِهِ حنَّانَةً عُجُلاً سَوْفَ الرَّوائِمِ بَوّاً بَيْنَ أظآرِ[3]

هَلْ بالنَّقيعَةِ ذاتِ السِّدْرِ من أحَدٍ

أوْ مَنْبِتِ الشّيحِ مِنْ رَوْضاتِ أعْيارِ[4]

سُقِيْتِ مِنْ سَبَلِ الجَوْزاءِ غادِيَةً وَكُلُّ وَاكِفَةِ السَّعْدَيْنِ مِدْرارِ[5]

قَدْ كُدتُ، إنّ فراقَ الحيِّ يَشْعَفُني أنسى عَزايَ وأُبْدي اليَوْمَ أسراري

لولا الحياءُ لهاج الشوقُ مُخْتَشِعٌ مِثْلُ الحَمامَةِ مِنْ مُسْتَوقِدِ النّارِ[6]

لَمَّا رَمَتْني بِعَيْنِ الرِّيمِ فاقْتَتَلَتْ

قَلْبي رَمَيْتُ بِعَيْنِ الأجْدَلِ الضّاري[7]

---

(١) الشيزى: شجر تصنع منه بعض أوعية الطعام – السديف: السَّنام، الواري: الكثير الشحم.

(٢) ذو البيض: من بلاد يربوع – دوار: ماء لبني أسد.

(٣) السّوف: الشم – الروائم: الحنونة – البو: جلد يُحشى بالتبن يوضع أمام الناقة فتحسبه ابنها ولا تنقطع عن الدر. الآظار: المرضعات.

(٤) النقيعة، وأعيار: أسماء مواقع.

(٥) الغادية: والسحابة – السّعدين: من سعود النجوم، سعد السعود وسعد الأخبية.

(٦) المختشع: الرّماد.

(٧) الأجدل الضاري: الصقر من الطيور الجارحة.

مِلْءُ العُيونِ جَمالاً ثُمَّ يُونِقُنِي لَحْنٌ ليثٌ وَصَوْتٌ غَيْرُ خَوّارِ

ومن غزله - أيضاً - قوله:

لِـمَـنْ الـدِّيارُ كأنَّها لَمْ تُحْلَـلِ بَيْنَ الكِناسِ وَبَيْنَ طَلْحِ الأعْزَلِ(١)
وَلَقَدْ أرى بِلَدٍ والجَديدُ إلى بِـلَـى مَـوْتَ الهَوَى وَشِفاءَ عَيْنِ المُجْتَلي
نَظَرَتْ إلَيْكَ بِمِثْلِ عَيْنَيْ مُغْزِلٍ قَـطـعَتْ حِبالَتَها بِأعْلَى يَلْيَلِ(٢)
وَإذا التَمَسْتَ نَوالَها بَخِلَتْ بِـهِ وَإذا عَـرَضْتَ بِوِدِّهَا لَمْ تَبْخَلِ
ولقد ذَكَرْتُكِ والمَطِيُّ خَواضِـعٌ وَكَأَنَّـهُـنَّ قَـطًـا فَـلاةٍ مَجْهَلِ
يَسْقِيْـنَ بالأدَمَى فِراخَ تَـنُوفَةٍ زُغْباً حَواجِبُهنَّ حُمْرَ الحَوْصَلِ(٣)
يا أُمَّ ناجِيَـةَ الـسَّـلامُ عَلَيْكُمُ قَبْلَ الرَّواحِ وَقَبْـلَ لَـوْمِ العُزَّلِ
وَإذا غَـدَوْتِ فَـبـاكَـرَتْكِ تَـحِيَّةٌ
سَبَقَتْ سُرُوحَ الشّاحِجاتِ الحُجَّلِ
لَوْ كُنْتُ أَرْهَبُ وَشْكَ بَيْنٍ عـاجِلٍ لَقَنَعْتُ، أوْ لَسَـأَلْتُ مـا لَمْ يُسْأَلِ

وكذلك من غزله قوله:

أُسْرَى لِخالِدَةَ الخَيالُ ولا أرى طَلَلاً أُحَبُّ مِنَ الخَيالِ الطارِقِ

---

(١) الكناس: موقع لبني غني - الطلح: نوع من الشجر - الأعزل: ماء لبني كليب.

(٢) يليل: إسم مكان.

(٣) الحوصل: مفردها حوصلة، وهي من الطائر بمنزلة المعدة من الأسنان.

إنَّ البليَّةَ مَن يُمَلُّ حَديثُهُ

فَانْشَحْ فُؤادَكَ مِنْ حَدِيْثِ الوامِقِ[1]

أهْواكِ فَوْقَ هَوَى النُّفوسِ وَلَمْ يَزَلْ

مُذْ بِنْتِ قَلْبِي كالجناحِ الخافِقِ

طَرَباً إلَيْكِ وَلَمْ تُبالِيْ حاجَتِي   لَيْسَ المُكاذِبُ كالخليلِ الصادِقِ

هَلْ رام فِيه مَحَلُّنا رَوْضُ القَطا   فَرُوَيَّتانِ إلى غَديرِ الخانِقِ[2]

ما يُقْحِمُونَ عليَّ مِنْ مُتَمَرِّدٍ   إلاَّ سَبَقْتُ فَنِعْمَ قَوْم السابِقِ

---

(١) الوامق: المحب المخلص.

(٢) رويتان والخانق: موضعان.

- المصادر والمراجع -

١ - إبن سعد: عبد الله بن محمد بن منيع الزهري. طبقات ابن سعد. ط. ليدن (١٣٢٥هـ ١٩٠٨ م).

٢ - ابن سلاّم الجمحي: محمد. طبقات الشعراء. تقديم عبد الحميد فايد. بيروت.

٣ - إبن عبد ربّه: أحْمَد بن محمد؛ العقد الفريد، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة (١٩٦٥).

٤ - إبن قتيبة: عبد الله بن مسلم. الشعر والشعراء. ط. دار المعارف بمصر.

٥ - الأصبهاني: أبو الفرج: علي بن الحسين. الأغاني:

- المنشورات دار مكتبة الحياة بيروت: ١٩٥٥.
- دار الثقافة، بيروت، الطبيعة الثالثة ١٩٦٢.
- دار الكتب المصرية ١٩٢٨.

٦ - البستاني: فؤاد أفرام؛ الروائع. ط. ٦ (١٩٨٣).

٧ - البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر. فتوح البلدان. ليدن (١٨٦٦).

٨ - البهبيتي: نجيب محمد. تاريخ الشعر العربي. دار الفكر. مكتبة الخانجي.

٩ - الجاحظ: أبو عثمان: عمرو بن بحر: محبوب الكناني. البيان والتبين. الخانجي بمصر. ط.٢ (١٩٦٠).ج١.

١٠ - حتي: فيليب: تاريخ العرب. دار غندور للطباعة والنشر. بيروت (١٩٧٤).

١١ - الحموي: ياقوت: ابن عبد الله الرومي. معجم الأدباء القاهرة (١٩٣٦).

١٢ - الدينوري: أبو حنيفة: أحمد بن داود: الأخبار الطوال. ليدن (١٨٦٧).

١٣ - الشريف المرتضى: أبو القاسم: علي بن الحسين موسى العلوي - أمالي الشريف المرتضى «غرر الفوائد، ودرر القلائد» دار إحياء الكتب. القاهرة.

١٤ - ضيف: شوقي. التطور والتجديد في الشعر الأموي. دار المعارف. القاهرة. الطبعة السادسة منقّحة (١٩٥٩).

١٥ - الطبري: محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك. نشر دي غويه. ليدن (١٨٨٢ م).

١٦ - المحاسني: زكي. شعر الحرب في أدب العرب، في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة. دار المعارف بمصر (١٩٦١).

١٧ - محمد حسين: محمد. الهجاء والهجّاؤون في صدر الإسلام، ط.٢ دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت (١٣٨٩ هـ ١٩٧٠م).

١٨ - المرزباني: محمد بن عمران بن موسى: أبو عبد الله، الموشح. ط. دار النهضة. مصر. القاهرة.

١٩ - المسعودي: أبو الحسن: علي بن الحسين. مروج الذهب ومعادن الجوهر. نشر دي غويه. ليدن (١٨٩٣ م).

فهرس المحتويات